

بدايات
فصلية ثقافية فكرية
العدد ٣٥ ◆ ٢٠٢٢
الأوليغارشية اللبنانية
سيطرة الطبقة التجارية
في عهد الاستقلال
Air Liban
1 PIASTRE 1

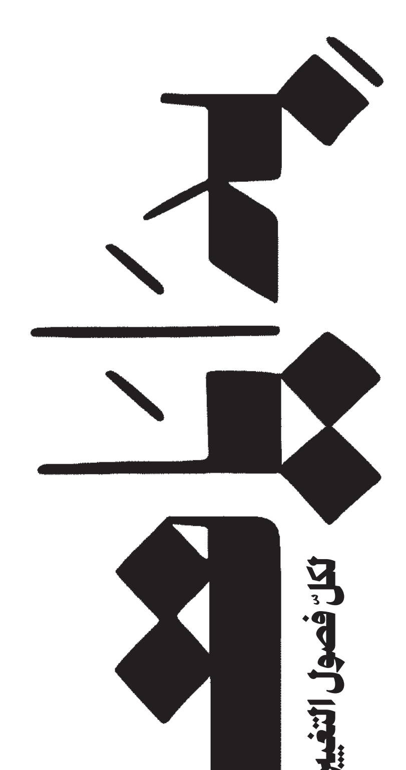
BEIRUT
Zahle
BEIRUT – SAIDA IRRIGATION SYSTEM
RANGE
ANTI-LEBANON
BISRI POWER PLANT
JOUN TUNNEL
BISRI TUNNEL
Saida
JOUN POWER PLANT
JOUN DIV. DAM
KARAOUN DAM AND RESERVOIR
LEBANON
LITANI RIVER
HERMON
SYRIA

سيارات ولوازمها
AUTOMOBILES & ACCESSORIES
مستحضرات طبية
MEDICAL SUPPLIES
مواد كيماوية
CHEMICAL PRODUCTS
ف. ا. كتانه
تجارة - استيراد - تصدير
في الشرق الادنى والاوسط
بيروت، جادة الافرنسيين. دمشق: شارع معاوية
F.A.KETTANEH
NEAR AND MIDDLE EAST
BEYROUTH - Ave. des Français
DAMAS
Mouawayat Street
مواد بناء
BUILDING MATERIALS
ادوات كهربائية
ELECTRICAL SUPPLIES
بضائع مختلفة
SUNDRY MARCHANDISE

تصميم بناء وزارة البريد والبرق والهاتف







فصلية ثقافية فكرية
العدد ٣٥ • ٢٠٢٢

بدايات
رئيس التحرير: فواز طرابلسي
تحرير وترويج: زينب سرور
إشراف فني: جنى طرابلسي
إدارة فنية: خاجاگ أبيليان
تصميم وإخراج: فيليبا دحروج
أبحاث الصور والرسوم: آلاء منصور
الموقع الإلكتروني: منصور عزيز
المدير المسؤول: حسّان الزين

تصدر عن بدايات ش.م.م.
صندوق البريد ٥٧٤٨/١٣
شوران، بيروت — لبنان
التوزيع: الأوائل لتوزيع الصحف والمجلات، بيروت، لبنان

www.bidayatmag.com
info@bidayatmag.com
facebook.com/bidayatmag

صدر هذا العدد من «بدايات» بالشراكة مع مؤسسة روزا لوكسمبرغ، مكتب بيروت.

Sponsored by the Rosa Luxemburg Stiftung with funds of the Federal Ministry for Economic Cooperation and Development of the Federal Republic of Germany.

ROSA LUXEMBURG STIFTUNG
BEIRUT OFFICE
مؤسسة روزا لوكسمبورغ مكتب بيروت



المحتويات

العدد ٣٥ ◆ ٢٠٢٢

هذا العدد

منذ انتفاضة ١٧ تشرين/ أكتوبر ٢٠١٩ قررنا في «بدايات» إيلاء أهمية خاصة لقضايا الاقتصاد والنقد الاقتصادي نظرًا لما أثارته الأزمة الماليّة من اهتمامٍ بتركيب الاقتصاد اللبناني وقضاياه ولم تكن في رأس اهتمامات قوى التغيير.

خصصنا العدد ٣٠ للتعريف بالنيوليبرالية، من حيث هي تاريخ وأيديولوجيا وسياسات. وبدأنا بنشر نُبَذٍ من «القاموس النقدي لمصطلحات النيوليبرالية» الذي يوثّق ولادة عناصر لغة جديدة في الحياة العامة مواكبة للحقبة الجديدة من تطوّر الرأسمالية. وقد أصدرنا ملفّين (في العددين ٣٢ و٣٣) للتعريف بظاهرة اقتصادية - اجتماعية - ثقافية تعاظم انتشارُها وزادت أهمّيتها في اقتصاديات بلادنا خلال العقود الأربعة الأخيرة هي «مجتمع الاستهلاك». تناولنا جوانب عديدة من هذه الظاهرة في مجالات السكن المسوّر، وثقافة السيارات الخاصة، والمجمّعات التجارية «المولات» والجراحة التجميلية، والإعلان، وغيرها. وفي مواكبةٍ للنقاش الذي تثيره المؤسسات المالية والإنمائية الدولية حول الاقتصاد الريعي/ الاقتصاد الإنتاجي، نشرنا في العدد ٣٣ حوارًا يسأل «هل الاقتصاديات العربية ريعية؟» ويعالج حالتَي مصر ولبنان. إلى هذا، أوْلينا أهميةً خاصةً في عدد مئوية لبنان (٢٨-٢٩) للإضاءة على العوامل الاقتصادية في إنشاء لبنان الكبير في ظل الانتداب الفرنسي (محورية مرفأ بيروت واقتصاد الحرير في جبل لبنان).

نواصل في هذا العدد الجهد المذكور أعلاه عن طريق ملفّ يوثّق للمرحلة التأسيسية للأوليغارشية اللبنانية في عهد الاستقلال الأول. ننشر وثيقتين من أرشيف الخارجية الأميركية، الأولى تقرير بعنوان «السلطة السياسية للطبقة التجارية وتقدير لثروتها» الصادر مطلع العام ١٩٥٢، الموثّق والمبني على مقابلات وشهادات. والوثيقة الثانية هي نصّ محاضرة لنعيم أميوني، مساعد مدير وزارة الاقتصاد عن أحوال الاقتصاد اللبناني مرفق بتعليقات لكاتب التقرير الأميركي عليها.

يقدّر واضعُ التقرير الأميركي عددَ الطبقة التجارية بما بين ٢٠٠ و٢٥٠ فردًا يسيطرون على مفاصل الاقتصاد الأساسية في المال والتجارة والوكالات الخارجية وتتراوح ثروة الواحد بين ٥٠٠ ألف ومليون ليرة. مصادر الثروات متنوّعة: الاغتراب (المكسيك والعربية السعودية)، أرباح الحرب، التجارة الاستيرادية (بما فيها تجارة السلاح)، وكالات الشركات الأجنبية، العقارات، المقاولات، المضاربة على الذهب، ملكية المصارف وشركات التأمين وشركات الطيران، بالإضافة إلى عدد محدود من الصناعيين. وتشكّل سبعُ أسرٍ الحلقةَ الأضيق والأوسع نفوذًا من أبناء أسرة رئيس الجمهورية بشارة الخوري، وأنسبائه ومصاهريه، وهي المجموعة التي أطلق عليها الصحافي إسكندر الرياشي تسمية «الكونسورسيوم».

تجدر ملاحظة ثلاثة أمور في تلك الوثيقة.

الأولى، مدى استمرار تبعيّة الاقتصاد اللبناني للاقتصاد الكولونيالي الفرنسي من خلال شركات الامتياز الفرنسية، ومصرف الإصدار، والسيطرة على التجارة الخارجية السورية اللبنانية والسيطرة بواسطة مدير عام «مصرف سورية ولبنان»، الفرنسي رينيه بوسون. ولا يخفى على القارئ اهتمام المفوضية الأميركية في بيروت بالمصالح الفرنسية من منظار القوة الاقتصادية الأميركية الوافدة حديثًا إلى شرق المتوسط وقد بدأت تغزوه بالمصنوعات خصوصًا في وسائط النقل والسيارات الخاصة والآلات الزراعية والأدوات الكهربائية والمنزلية.

الملاحظة الثانية، هي أنّ تغليب قطاعات المال والترانزيت والتجارة الاستيرادية على الاقتصاد بدفعٍ من مصالح الأوليغارشية المسيطرة، لم يكن فقط ابنَ أفكار ميشال

شيحا، أيديولوجي الاقتصاد الحر والنظام الطائفي، وشقيق زوجة الرئيس، فقد تولّى تنفيذها الوزير حسين العويني، ممثل المصالح السعودية في لبنان، وأغنى أغنياء الأوليغارشية، من خلال الحكومات التي ترأسها رياض الصلح.

الملاحظة الثالثة، تضمّ الوثيقة عيّنة من حالة مخصوصة من الفساد تتعلق بالمصالح المستفيدة من مشروع إنشاء مطار بيروت. وهي الدليل، لمن يحتاج إلى أدلّة، على أنّ الفساد - أي الانتفاع من المال العامّ وسوء استخدام النفوذ السياسي لأغراض التكسّب الشخصي، بالمستوى الذي ينتج فيه من أرباح كالتي نتجت من مشروع بهذا الحجم - يستدعي الشراكة وتبادل المصالح بين رجال المال ورجال السلطة. وليس يقتصر على الموظف المرتشي أو على السياسي الذي «يسرق» العقود والامتيازات من نصيب القطاع الخاص.

والمعلوم أنّ فضائح عهد الاستقلال الأول، واستمرار تبعيّته للمصالح الفرنسية، غذّت الغضب الشعبي الذي عبّر عن نفسه بإضرابات عارمة ضد شركات الكهرباء والماء والترامواي، وتُوّجت بالإضراب السياسي الذي ألزم بشارة الخوري على التنحّي في أيلول/سبتمبر ١٩٥٢.

الوثيقة الثانية من أرشيف الخارجية الأميركية هي نص لمحاضرة ألقاها عام ١٩٤٦ نعيم أميوني، نائب مدير وزارة الاقتصاد، يدافع فيها عن ضرورة اعتماد لبنان المستقل على موارده الزراعية والصناعية وتنميتها. ويساجل أميوني ضدّ الاستيراد العشوائي الذي يستنزف الموارد المالية، ويخلّ بالميزان التجاري، ويتسبّب بغلاء المعيشة وبإفقار السكان في الأرياف. ويحذّر من مخاطرة الاتكال على المداخيل غير المنظورة، بما فيها عائدات المغتربين، لسدّ العجز في الميزان التجاري. وفي حديثه عن إهمال الزراعة يلاحظ الخبير الاقتصادي أنّ لبنان لا ينتج أكثر من ثلث الحبوب التي يحتاجها، وينعى تراجع زراعة الحمضيات في الساحل حيث كان إنتاجه يوازي إنتاج فلسطين، قبل الحرب، وقد تطوّر الإنتاج الفلسطيني بفضل اعتماد الوسائل الحديثة وتفوَّق على الإنتاج اللبناني بعدة أضعاف. وفي معرض دفاعه عن التصنيع، يذكّر المحاضر بأن الذين يتغنّون بأنّ لبنان هو «سويسرا الشرق» يتناسون أنّ الاقتصاد السويسري قائم على الصناعة لا على السياحة. وفي نقده لغلَبة قطاع الاستيراد، يذكّر أميوني بأنّ التجارة هي وسيط الاقتصاد وليست هي الاقتصاد كلّه. وينتقد إثراء المستوردين قياسًا إلى سائر اللبنانيين وسيطرتهم على الخيارات والقرارات الاقتصادية في البلد.

المادة الرئيسة في القسم النظري هي دراسة عن أحلام وخيبات الطبقة الوسطى العالمية لغوران ثربورن. بين من يبشّر بعالم جديد ارتقى معظم سكانه إلى مصاف الطبقات الوسطى ومن ينعى اختفاء الطبقات الوسطى بالجملة، يعمل ثربورن على تعريف الظاهرة الجديدة ودورها في تضخيم التحرّر من الفقر من جهة، والترويج للطبقة الوسطى بما هي حاضنة مجتمع الاستهلاك من جهة أخرى.

«إعجاز أحمد: ماركسي من عصرنا»، عنوان مقال ثائر ديب في وداع مفكّر تجرّأ على الدفاع الخلّاق عن الماركسية من موقعه في الأطراف، وأن يستكشف معالم العصر الإمبريالي الجديد وهو يقدّم في الآن نفسه مساهمات ثمينة في النظرية النقدية، وفي تحليل ظواهر الطائفية واليمين الفاشي الجديد، من خلال التجربة الهندية.

* * *

يحتوي القسم الأدبي والمرئي موادَ غنية ومبتكرة ومتنوعة. ننشر لأول مرة باللغة العربية ترجمة لأجزاء من المسرحية الوحيدة لإرنست هِمِنغواي، كتبها خلال الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦- ١٩٣٩) وهي الحرب التي ألهمته عددًا من أبرز وأنجح رواياته وقصصه القصيرة. ويقدّم ماهر جرّار دراسة شاملة ومعمّقة عن روايات إلياس خوري. وتقرأ رنا عيسى في رسائل أحمد فارس الشدياق من منظار الاقتصاد السياسي لكاتب نهضوي بات «عاملاً ثقافيًا» يؤلف ويترجم بناءً على طلب هيئات أهلية أو سلطات أو ينتج مباشرةً للسوق. ويكتب رؤوف مسعد عن زميله في الشيوعية والسجن عبد الحكيم قاسم فيعرّف عن حياة وأدب قاصٍّ موهوبٍ غادرنا باكرًا ولم يحظَ بما يستحقه من تقدير. من جهتها، تكتب الباحثة مارو يابون تعريفًا بالشاعر والفنّان الكوبي من أصل لبناني فيّاض خميس. يليها نص بمناسبة وفاة الشاعر مظفر النوّاب يحاول فيه محمد ناصر الدين الإحاطة بملابسات شعرية الشاعر العراقي بين الفصحى والعامية. ونختم بترجمة لقصيدتين لإتيل عدنان عن ماياكوفسكي وبابلو نيرودا. وبقصة مصورة للأطفال من تأليف أنطونيو غرامشي.

في قسم الذاكرة، يواصل بول أشقر بحثه عن هجرة أبناء المشرق العربي في أميركا اللاتينية الذي يركّز فيه على العاملين في السياسة والثقافة. ونختم في زاوية نهوند بمقال لسمر سلمان عن الملحّن اللبناني عفيف رضوان.

ف.ط.



من تاريخ الأوليغارشية اللبنانية بالوثائق

من تاريخ الأوليغارشية اللبنانية - ١
سيطرة «الطبقة التجارية» في عهد الاستقلال الأول

ترجمة فيفيان عقيقي

ننشر في ما يلي وثيقتين من أرشيف الخارجية الأميركية عن الحلقة الضيّقة من رجال الأعمال المحيطة ببشارة الخوري، رئيس جمهورية العهد الاستقلالي الأول (١٩٤٣-١٩٥٢)، والمرتبطة به عائليًا. وتضمّ الأسر السبع التي تسيطر على الاقتصاد وعلى السلطة السياسية. وهي الحلقة التي أطلق الصحافي اسكندر الرياشي عليها اسم «الكونسورسيوم». والجدير بالملاحظة في تلك التقارير التي وضعها موظفون في البعثة الدبلوماسية الأميركية لدى لبنان، مبلغ الصلة الوثيقة - في عهد الاستقلال عن السيطرة الفرنسية - بين كتلة المصالح المحلية والمصالح الاستعمارية الاقتصادية الفرنسية المستمرة منذ السلطنة العثمانية والمتجددة والمتّسعة في ظل الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان (١٩٢٠-١٩٤٦).

تتضمّن الوثيقة الثانية نص محاضرة لنعيم أميوني، مساعد مدير وزارة الاقتصاد الوطني، في الكليّة الأميركية الإعدادية Junior College، يدافع فيها عن مشروع للتنمية الصناعية والزراعية يوفر المزيد من الصادرات ويقلّص نسبة الاتّكال على المستوردات الأساسية. ويساجل أميوني ضد النظرة السائدة لدى الطبقة التجارية التي تقول بأن لبنان يستطيع أن يعيش اقتصاديًا بالدرجة الأولى على التجارة.

السيطرة السياسية للطبقة التجارية في لبنان

سرّي (تصنيف أمني)
برقية خارجية رقم ٣٧٢ - ٢١ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٢
من: البعثة الأميركية في بيروت
إلى: وزارة الخارجية في واشنطن
جدول المحتويات

* **ملخّص**
* **الجزء الأول - مسح لأهمّ الشخصيّات الثرية في الطبقة التجارية اللبنانية**

I. زيادة الأهمية التجارية للبنان

١. التجارة العامّة
٢. تجارة الترانزيت
٣. سبب الزيادة

II. أهم الثروات اللبنانية

١. حلقة رئاسية من سبع شخصيات (حسين بك العويني، فؤاد الخوري، ميشال ضومط، هنري فرعون، جان فتّال، ألفرد كتّانة، خليل الخوري)
٢. أعضاء بارزون في المجموعة الفرنسية من خارج الحلقة الرئاسية الأساسية
٣. ثروات متنوّعة
٤. ثروات أخرى متوسّطة الحجم

* **الجزء الثاني - درجة السيطرة السياسية التي مارسها قادة الطبقة التجارية اللبنانية**

I. ملخّص عن إنجازاتهم
II. سيطرتهم على السياسة التجارية
III. الحلقة الرئاسية، موقعها التفضيلي
IV. المصالح الفرنسية

١. النشاط المصرفي الفرنسي
٢. دليل على ضعف السيطرة الفرنسية

* **تقييم المصادر**

ملخّص

تضاعف نشاط الطبقة التجارية في لبنان وأهمّيتها منذ الحرب. إنّ نجاح هذه الطبقة في جعل لبنان سوقًا للتبادل الحرّ، ومركزًا مصرفيًا، ومرفأ إقليميًا للشرق الأوسط، أدّى إلى زيادة حيويتها وعدد أعضائها. وإذ تنطوي جوانب أخرى من السياسة اللبنانية على دلالات دينية، إلّا أن السلوك السياسي للطبقة التجارية علماني بشكل رئيسي. يحلّ الموارنة، والمؤمنون من طائفة الروم الأرثوذكس، والمسلمون السنّة والشيعة والدروز خلافاتهم، ويتّحدون بانسجام في الصفقات المُربحة. زادت هذه الطبقة توجّهها نحو الغرب الذي هو مصدر بضائعها، كما زادت مرونتها في التعامل مع جيرانها العرب الذين يستخدمون أسواقها.

تمارس هذه الطبقة كلّ السلطة السياسية التي تحتاجها لتطوير التجارة. وهو ما يُعدّ عاملًا حتميّ التوقّع في ظل معادلة سياسية ذات متغيرات عدة. كانت هذه الجماعة حذقة للغاية في تقدير قيمتها لدى كلّ من الغرب وبين جيرانها الشرقيين، بحيث لا يمكن التخلّي عنها فجأة خلال أي فورة قومية عربية، أو تأميم، أو تطرّف ديني. وبالتالي، وجبت ترجمة مشاريع مثل «المقاولون متعدّدو المشاريع» MSP «والنقطة الرابعة» و«مشروع الليطاني» بلغة الانتفاع الشخصي لإثارة اهتمام هذه المجموعة.

الجزء الأول

مسحٌ لأبرز ٢٥ شخصيّة ثرية في الطبقة التجارية اللبنانية، يلخّص النقاط الآتية لكلّ منها: (١) مصدر ثروتها، (٢) ارتباطها بالمجموعة المصرفية الفرنسية أو بالحلقة الرئاسية، و(٣) الولاءات السياسية أو التجارية الأخرى التي تؤثّر في هذا النشاط السياسي.

الجزء الثاني

يقدّم تحليلاً لدرجة سيطرتها السياسية ونقاشًا مُفصّلًا يُظهِر؛ (١) أنّ السياسة التجارية اللبنانية في كلّ من المجالين الوطني والدولي تتوافق مع مصالح هذه المجموعة، (٢) أنّ حلقة رئاسية من سبعة رجال لها امتيازات ومكانة خاصّة، و(٣) يعطي تقييمًا مميّزًا عن الوضع الحالي للمصالح الفرنسية يُظهر؛ (أ) أنّ المصالح المصرفية الفرنسية أقوى من أي وقت مضى؛ (ب) لكن ردّ الفعل الشعبي يصبّ ضدّ امتيازات فرنسية أخرى مثل كهرباء بيروت وشركة المرفأ.

الجزء الأول – مسح لأهمّ الشخصيّات الثرية في الطبقة التجارية اللبنانية

I. زيادة الأهمّية التجارية للبنان

يتّفق رئيس دائرة الإحصاء والمراقبون الآخرون على أنّ اللبنانيين نجحوا في مضاعفة نشاطهم التجاري منذ الحرب العالمية الثانية. وبما أنّ نطاق هذا التقرير لا يسمح بتحليل جميع المواد الإحصائية المتاحة، فإن التجارة العامّة وتجارة الترانزيت تستحقّان التعليق:

١. لحِظت إحصاءات التجارة العامّة اللبنانية للسنوات الممتدة بين ١٩٤٨-١٩٥١ زيادة في حجمها بمعدل ٦٠٪ على الأقل، بالمقارنة مع أرقام فترة ما قبل الحرب ١٩٣٨-١٩٤١، فيما لم يتم التشديد على الزيادة في القيمة التي بلغت ٤٠٠٪ بسبب وجود عنصر تضخمي قوي.

إحصاءات التجارة العامّة اللبنانية

	الحجم بالطنّ	*القيمة بالليرة اللبنانية*
١٩٣٨	٩٣٩,٦٢٨	٨٥,٣٨٥,٠٠٠
١٩٣٩	٥٨٧,١٩٧	٩٢,٢٠٣,٠٠٠
١٩٤٠	٣٥٩,٧٧١	٧٦,٧٠٤,٠٠٠
١٩٤١	٣١١,٢٨٣	٧٧,٨٦٣,٠٠٠
١٩٤٢	٥٧٩,٦٨٠	١٧٤,٨٧٥,٠٠٠
١٩٤٣	٥٢٣,٧٧٣	٢٣٠,٦٤٤,٠٠٠
١٩٤٤	٢٧٩,٦٤٧	٧٢,٠٦٥,٠٠٠
١٩٤٥	١٤٦,١٨١	٤٥,٧٨٩,٠٠٠
١٩٤٦	١٠٧,٠٩٣	٨٦,٦٨٧,٠٠٠
١٩٤٧	٤١٣,٦٥٣	٣٦١,٤٣٥,٠٠٠
١٩٤٨	٨٠٣,٢٠٧	٤٩١,١٤٠,٠٠٠
١٩٤٩	٩٥٧,٠٤٤	٥١٧,٤٦٢,٠٠٠
١٩٥٠	٨٦٣,٥١٨	٣٦٦,٤٩٥,٠٠٠

هذه هي الإحصاءات السنوية للاتحاد الجمركي السوري - اللبناني باستثناء العام ١٩٥٠ الذي تمثّل الأشهر التسعة الأخيرة منه إحصاءات لبنان فقط.

تقدّم إحصاءات التجارة العامّة منذ العام ١٩٤٤ أفضل مؤشّر للمقارنة، كونها لا تشمل شحنات ترانزيت النفط بأحجامها الكبيرة التي تشوّه المجاميع من وجهة نظر تجارية. لقد حسمت البعثة شحنات ترانزيت النفط من أرقام السنوات السابقة لعام ١٩٤٤ لتوحيد الإحصاءات. وعلى الرغم من أنّ الإحصاءات تعود لكلّ من سورية ولبنان، إلّا أن لبنان مسؤول بدرجة كبيرة عن أنشطة الاستيراد والتصدير، لأنّ الشركات الموجودة في حلب ودمشق لها مكاتب فرعية في بيروت لهذا الغرض. تُعدّ إحصاءات العام ١٩٥٠، وهو العام الذي حُلّ فيه الاتحاد الجمركي السوري - اللبناني المشترك، إحصاءات مفيدة في هذا السياق، لأنّها تشكّل ٩٠٪ من حجم التجارة في العام ١٩٤٩، علمًا أن إحصاءات الأشهر التسعة الأخيرة منها تشمل لبنان فقط. مع ذلك، ولمّا كانت هذه الإحصاءات لا تتضمّن سجّلًا لحركة التهريب الكبيرة، تناقص أهميتها بالنسبة لنا.

٢. تجاوزت الزيادة في تجارة الترانزيت ٢٠٠٪. ويمكن أن تُعزى هذه الزيادة جزئيًّا إلى تراجع ميناء حيفا المنافس الذي كان يسيطر على تجارة الترانزيت نحو مناطق الانتداب البريطاني، وهي تعود جزئيًّا أيضًا إلى الطلب المتزايد من مراكز النفط في الخليج الفارسي: المملكة العربية السعودية والكويت والبحرين. تميل إتاوات النفط العربي إلى التدفّق نحو بيروت.

٣. يمكن أن تُعزى الزيادة بنحوٍ أكثر إنصافًا إلى تحسّن المرافق التجارية للّبنانيين أنفسهم.

- **رأس المال**: أثمرت أرباح الحرب زيادة صافية هائلة في رأس المال اللبناني. حقّق التربح من الحرب أكثر من نصف الثروات اللبنانية الكبيرة المُدرجة أدناه وضاعف الثروات الأخرى. هناك طبقة وسطى كبيرة، تضمّ نحو ٥ آلاف فرد، راكمت رأس المال نتيجة وجود جيوش الحلفاء وظروف السلام داخل البلاد.
- **سياسة الصرف**: حقّقت سياسة التبادل الحرّ الحكومية نجاحًا مُضاعفًا لأنها جعلت البلاد جزيرة حرة في بحرٍ من الاقتصادات الموجّهة. منذ العام ١٩٤٨، كان لدى سوق القطع الحرّ في بيروت مخزون كافٍ من الذهب والدولار والجنيه الإسترليني والفرنك الفرنسي لإتمام المعاملات التجارية في جميع أنحاء منطقة الشرق الأوسط. يقول حسين بك العويني، وزير المالية الذي أطلق هذه السياسة في العام ١٩٤٨، إنّ العملة اللبنانية الموضوعة في التداول زادت من ١٦٠ مليون إلى ٢٢٠ مليون ليرة لبنانيّة نتيجة لهذه السياسة.
- **السياسة السياحية**: دعمت السياسة السياحية هذا الدور التجاري، إذ سمحت بمجيء الزائرين من جميع دول الجامعة العربية خلال أشهر الصيف. وتستقطب السياسة السياحية نحو ٢٥ ألف زائر سنويًّا من دول الجامعة العربية، الذين يأتون بسبب جداول أسعار النقل الجذّابة التي وضعتها الحكومة اللبنانية. يرافق المستوردون اللبنانيون الزوّار إلى السوق الحرّة في المرفأ، ويعرضون عليهم المخزونات المتوفّرة، والتي يمكن شراؤها بأسعار تنافسية مخفّضة. انظر تقرير البعثة عن السياحة، العدد ١٩٥، ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٠.

زادت هذه الأصول من ثروة المجتمع التجاري وعززت حيويته. يمتلك قادة هذه الطبقة قناعات قوية مُتعلقة بالسياسة التجارية، ويمارسون درجة من السيطرة السياسية تجلّت في سلسلة من مرافق التجارة الحرّة، التي تشمل جميع السياسات التي تعزز موقع بيروت كعاصمة تجارية في الشرق الأدنى: سياسة التجارة الحرّة، وسوق القطع الحرّة، وسياسة رسوم الاستيراد المنخفضة، وسياسة العملة القوية، والسياسة السياحية الإقليمية المصمَّمة لتوسيع الأسواق اللبنانية في الشرق الأوسط. لحسن حظ الغرب، إنّ هؤلاء القادة موجّهون بالكامل نحوه ويقومون برحلات مُتكررة إلى أوروبا أو الولايات المتّحدة. ولحسن حظ الشرق الأوسط، إنّ الخبرات التجارية لهؤلاء تُمكّنهم من تقديم السلع والكماليات بأسعار أقل مقارنةً مع أي مكان آخر في الشرق الأوسط أو أوروبا أو أميركا.

يهدف مسح الشخصيات البارزة إلى مناقشة أصول ثرواتهم، وأنشطتهم التجارية الرئيسية، وعلاقاتهم السياسية، كخطوة أوّلية قبل إجراء تقييم لسيطرتهم السياسية.

II. أهم الثروات اللبنانية

١. الحلقة أو المجموعة الرئاسية (من ١ إلى ٧)

أ- *حسين بك العويني*

منذ سقوط المدير الفرنسي لـ«بنك سوريا ولبنان» رينيه بوسون (يُناقش الموضوع في الجزء الثاني)، يمكن تصنيف حسين بك كأهم شخصية مالية في لبنان. هناك أربع حقائق تجعله متميّزًا بشكل لافت:

- **شخصية مالية**. بصفته وزير مالية سابقًا ورئيس وزراء سابقًا، فقد كان شخصية بارزة في تطوير مرافق التجارة الحرّة، لا سيما سياسة التبادل النقدي الحرّ التي أطلقها في العام ١٩٤٨. وبوصفه شخصية مالية من القطاع الخاص،

تقدّر ثروته بنحو ١٥ مليون ليرة لبنانية، معظمها في المملكة العربية السعودية.

- **الروابط مع المجموعة الفرنسية:** لديه الروابط الأقوى مع المجموعات المصرفية الفرنسية من بين كلّ الشخصيّات اللبنانية المحلّية. نظّم العويني معظم المعاملات النقدية مع مصرف الهند الصينية في بيروت عندما كان مديرًا لمصرف الهند الصينية في جدة. ارتبط بشكل وثيق مع رينيه بوسون في «بنك سوريا ولبنان» بسبب العلاقات المتبادلة بينهما، ولطالما اعتبرته المصالح الفرنسية رجلها، عدا أنّه عضو في عدة مجموعات تجارية كبرى في لبنان، بما فيها مجموعة «الاتحاد الوطني» (Union Nationale).
- **الروابط السعودية:** جمع حسين بك العويني ثروته في المملكة العربية السعودية حيث عمل لمدة عشرين عامًا مع إبراهيم شاكر لصالح [عبد العزيز] ابن سعود، تحت إدارة نجيب صالحة، وهو درزي من جبل لبنان، واليد اليمنى لابن سعود. ارتبط بعقود عمل مع كلّ من ابن سعود وتابلاين (Tapeline) في السعودية، وكلّما أرادت الملكيّات العربية استبدال دولاراتها بالذهب، كان، بصفته مديرًا لمصرف الهند الصينية في جدة، ينظّم تحويلات الذهب والدولار في بورصة الذهب في بيروت.

جمع العويني ثروته في السعودية حيث عمل تحت إدارة نجيب صالحة، وهو درزي من جبل لبنان واليد اليمنى لابن سعود

- **عضو في الحلقة الرئاسية:** هو عضو صميمي في الدائرة الرئاسية، كون الرئيس يحبّه، وسبق أنّ عيّنه رئيسًا لحكومة انتخابات العام ١٩٥١. وهناك احتمال قويّ لاختياره رئيسًا للوزراء كونه أحد أقوى السياسيين المسلمين.

يتّفق المراقبون الأميركيون واللبنانيون على أنّ حسين بك العويني رجل حسن النيّة. وعلى الرغم من أنه عضو في المجموعة الفرنسية بشكل أساسي، فإن من المحتمل أن يوافق على أي نشاط للولايات المتّحدة قد يصبّ في المصلحة الوطنية مثل مشروع الليطاني. في الواقع، هو من الزعماء اللبنانيين الذين قد يكتسبون أهمّية أكبر مع تراجع الفرنسيين.

٢- *فؤاد الخوري*

- **شخصيّة من الحلقة الرئاسية:** بصفته شخصيّة رئيسية في مجال البناء، حقّق شقيق الرئيس ثروة كبيرة قبل الحرب، إذ ورث من خلال زوجته أعمال والدها مستورد مواد البناء درويش حدّاد، وسيطر على كلّ من معمل الإسمنت في شكّا وصناعة البلاط. باعتباره عضوًا في المجموعة الرئاسية، يحصل فؤاد الخوري على الأفضليّة في جميع مشاريع البناء الحكومية الكبيرة مثل مطار بيروت الدولي ومبنى البريد والتلغراف الجديد. في قسمٍ تالٍ، يتّهمه جبرايل المرّ بتأمين الإسمنت لكلا المشروعين بسعر ثابت أعلى من أسعار الولايات المتّحدة مُضافةً إليها تكاليف الشحن ورسوم المرفأ المحلّي والنقل الداخلي.
- **الروابط مع المجموعة الفرنسية:** أبرمت الامتيازات الفرنسية الكبيرة عقودًا ضخمة معه من أجل الحفاظ على موقعها التفضيلي داخل الحلقة الرئاسية. تشتري شركة المرفأ الحديدَ والإسمنت منه، تمنحه شركة كهرباء بيروت عقود شبكة التوزيع - أعمدة الخطوط المصنوعة من الفولاذ والإسمنت التي تُستخدم لدعم كابلات الطاقة. يُعدّ الشيخ فؤاد الخوري إحدى الشخصيات الرئيسية في المجموعة التجارية الفرنسية – «مؤسسة الدراسات والتنفيذ الصناعي والزراعي والتجاري» (SERIAC) – التي تمنح الأعمال والامتيازات والمشاريع إلى الرأسماليين الموالين لفرنسا، وسوف يتمّ التطرّق إليها لاحقًا. تشير الشائعات إلى أنّه يملك أكثر من ١٤٠ مليون ليرة لبنانية مستثمَرة في مصارف أوروبية وأميركية مختلفة.

٣- *ميشال ضومط*

- **امتداد لبناني للفرنسيين:** يرتبط ميشال ضومط بالمجموعة الفرنسية من خلال أنشطة مصرف الهند الصينية. أعاد والده ٥٠ ألف جنيه إسترليني إلى البلاد من اتحاد جنوب أفريقيا في العام ١٩٢٥. تزوّج ميشال ضومط من ابنة ألبير عسيلي، صناعي نسيج، قبل الحرب عندما كان عسيلي يواجه أوضاعًا صعبة. جمعا معًا ثروة تقدّر بنحو ٥٠ مليون ليرة لبنانية خلال الحرب، وهي مقسّمة على ثلاثة أشخاص بالتوازي: اثنين من آل العسيلي وميشال ضومط.

يقول أحد المصادر إنّ ضومط حقق أرباحًا طائلة من خلال المضاربة على مشتريات الذهب عبر مصرف الهند الصينية. بنى فندق البريستول بتكلفة مليوني ليرة لبنانية خلال الحرب. ولديه مليونا ليرة لبنانية أخرى في

استثمارات متنوّعة. يمتلك شقيقه ٤ ملايين ليرة لبنانية غير مستثمَرة في أنشطة تجارية.

- **عضو في الحلقة الرئاسية:** عندما كان جبرايل المرّ ينتقد الفساد ضمن الحلقة الرئاسية، لاحظ أنّ ميشال ضومط كان أحد المقاولين الذين قاموا بأعمال الحفر في مطار بيروت الدولي بسعر ١٧٠ قرشًا للمتر المربّع، في حين أن أي مقاول محلّي كان ليقوم بالعمل نفسه مقابل ١١٠ قروش فقط. يمتلك ميشال ضومط نفوذًا في الأوساط السياسية من خلال حبيب أبي شهلا.

٤- ***هنري فرعون - نائب بيروت***

- **المجموعة الرئاسية:** عضو قوي في المجموعة الرئاسية، وشريك ميشال شيحا، شقيق زوجة الرئيس. يدير الاثنان مصرف فرعون وشيحا. بصفته أحد مستشاري الرئيس في السياسة التجارية، أعدّ ميشال شيحا مؤخرًا ورقة لافتة عن السياسة اللبنانية، عرضتها وزارة المالية على البعثة [الدبلوماسية الأميركية]. وبما أنّها تناقش في الصحافة وفي كلّ الدوائر الرسمية، فقد تمّ تلخيص نقاطها الأساسية في الجزء ٢، القسم ١ أدناه.

ورث فرعون عقارات في ضواحي بيروت. وعندما بنَت الحكومة شوارع حول المدينة، ارتفعت قيمة العقارات، وتمكّن من تحقيق ثروة بنحو ٣ إلى ٤ ملايين ليرة لبنانية. وبما أنه يدير حلبات سباق الخيل لصالح دونّا ماريّا سرسق، فقد حقّق أرباحًا كبيرة من هذه المؤسّسة الشعبية التي تفتح كلّ يوم أحد. حصل عمّه ميشال على ٣ إلى ٤ ملايين ليرة لبنانية من خلال عقود مع شركة IPC والبريطانيين.

٥- ***جان فتّال***

- **المجموعة الرئاسية:** عضو آخر في هذه المجموعة تربطه علاقة مصاهرة بأسرة الرئيس. جنى ثروته من التربّح في زمن الحرب وخصوصًا من خلال استيراد السلاح لصالح الجيش اللبناني، والانخراط في أعمال المضاربة بالفرنكات السويسرية لصالح الحكومة اللبنانية.

مع ذلك، يتخصّص فتّال في استيراد الأدوية، وتُعدّ شركته من أكبر شركات استيراد الأدوية في الشرق الأدنى. معروف عنه أنه كان وراء شائعة تفشّي التيفوئيد الكاذبة في سورية عام ١٩٥٠، التي أدّت إلى بيع كمّيات كبيرة من الأدوية المضادّة للوباء.

- **عضو لبناني في المجموعة الفرنسية:** عضو في «مجموعة الاتحاد» الوطني (Union Nationale) الفرنسية للتأمين،



مسافرون على طيران ميدل ايست عقب وصولهم إلى مطار بيروت.



وعمل مع المدير الفرنسي لـ«بنك سوريا ولبنان» رينيه بوسون. أنهى للتو بناء مبنى فتّال الجديد ولعلّه أجمل المباني في بيروت، وفيه سوف تستقرّ مكاتب فتال وكتّانة والاتحاد الوطني. أسوةً ببوسون، انخرط بكثافة في أعمال المضاربة خلال فقّاعة القطن في منطقة الجزيرة- القسم السوري- في العام ١٩٥١. ويؤكّد مراقبون أنّه خسر الكثير بسبب فشل بذور القطن في تلك المنطقة.

تصل ثروة فتّال إلى ٤-٥ ملايين ليرة لبنانية، من ضمنها مليونا ليرة مُستثمرة في التجارة.

يتخصّص فتّال في استيراد الأدوية، وتُعدّ شركته من أكبر شركات استيراد الأدوية في الشرق الأدنى

٦- *ألفرد كتّانة وأخوته*

- **المجموعة الرئاسية:** يدور الأخوة كتّانة في فلك المجموعة الرئاسية، وإن لم يكونوا ضمن الحلقة الداخلية. يرتبط فرانسيس كتّانة المقيم في نيويورك بالعائلة الرئاسية عن طريق المصاهرة.

  انخرط الأخوة كتّانة في أنشطة مختلفة قبل الحرب، لكنهم جمعوا ثروتهم الأساسية من بيع الشاحنات إلى إيران خلال تلك الفترة. تشير الروايات إلى أنّ الأخوة كتّانة لجؤوا إلى حيلة لإخراج رؤوس أموالهم من إيران بعد أن مُنِع شحن الذهب منها، إذ عادت الشاحنات من طهران بناقلات سرعة مُغلّفة بالذهب، وقد أفاد الجيران بأنّهم استيقظوا في الساعة الرابعة صباحًا على الأخوة كتّانة وهم يعملون على انتزاع الذهب عن أجزاء الشاحنات في مرآب منزلهم.
- **الروابط الأميركية:** بصفتهم وكلاء لعدد كبير من الصناعيين الأميركيين، فإنّهم ينخرطون بأعمال استيراد وتوزيع هائلة في جميع أنحاء الشرق الأوسط، ولديهم فروع في جميع العواصم والمدن المُهمّة. تتصدّر كرايسلر وجنرال إلكتريك قائمة تضمّ أكثر من ٥٠ وكالة أخرى يمتلكونها. يدير أحد الأخوة، فرانسيس، فرع نيويورك الذي ينظّم عمليّات الشراء في الولايات المتحدة.
- **الروابط الفرنسية:** على الرغم من الروابط الأميركية المتينة، يشير المراقبون إلى أنّ الأخوة كتّانة مرتبطون بشكل وثيق بكلّ من الدائرة الرئاسية والمجموعة المصرفية الفرنسية. نظرًا إلى أن معظم مضاربات الأخوة كتّانة حصلت من خلال «بنك سوريا ولبنان»، فقد وضعهم مدير المصرف رينيه بوسون في ضائقة كبيرة في العام ١٩٥١، عندما طالبهم بمبلغ ٨ ملايين ليرة لبنانية كانوا قد اقترضوها من المصرف، وعندما تدخّل الرئيس شخصيًّا لإنقاذ مصالحهم، رأى المراقبون أنّ هذه الخطوة قد تُعزى إلى إحسان الرئيس، لكن من المحتمل أن يكون للمصاهرة والعلاقات التجارية وزن أكبر.

  تتجلّى علاقة الأخوة كتّانة بالفرنسيين في اتجاهات أخرى. ألفرد كتّانة هو عضو في مجلس إدارة شركة كهرباء بيروت وامتياز الطاقة الفرنسي البلجيكي. كما أنه عضو في شركة تأمين الاتحاد الوطني لبوسون. انخرط الأخوة كتّانة، إسوةً ببوسون وفتّال، في المضاربات خلال فقّاعة القطن في منطقة الجزيرة السورية في العام ١٩٥١، ويرجّح أنهم سوف يخسرون مثلما خسر هؤلاء نتيجة تلف المحاصيل وتفشّي الحشرات والجفاف ونقص العمالة.

  تقدّر ثروة الأخوة كتّانة في لبنان بنحو ١٢ مليون ليرة لبنانية، معظمها مرتبط باستثمارات عقاريّة ومخزونات سلعيّة ضخمة. ويُعتقد بأنّ الثروة الموجودة في الولايات المتحدة أكبر بكثير.

٧- *الشيخ خليل الخوري، ابن الرئيس*

- **المجموعة الرئاسية:** على الرغم من أن الشيخ خليل الخوري لا يملك ثروة كبيرة، إلّا أن قائمة شخصيات المجموعة الرئاسية الأبرز لا تكتمل من دون مناقشة أنشطته. يمارس الشيخ خليل، بصفته وسيطًا للمصالح الرئاسية، سيطرةً اقتصاديةً أكثر من أي شخصية أخرى مذكورة أعلاه.
- **أنشطة المجموعة الفرنسية:** إنّه محامي الشركات الفرنسية الكبرى ذات حقوق الامتياز مقابل أجر مرتفع للغاية. عيّنته كلّ من شركة كهرباء بيروت وشركة المرفأ محاميًا لها لقاء أتعاب تبلغ ١٠٠ ألف ليرة لبنانية سنويًّا. تنامت ردود الفعل الشعبية ضدّ هذين الامتيازين الممنوحين لأجانب لأنّهما يدرّان أرباحًا هائلةً على حساب الاقتصاد اللبناني تفوق الأرباح الأخرى مجتمعةً، مستفيدين من جداول رسوم المرفأ وتعرفة الكهرباء المرتفعتين للغاية. تنبّه الموظفون وأبناء الشعب مؤخرًا إلى كون امتياز الطاقة معفيًا من الضرائب، فيما تدفع شركات الكهرباء اللبنانية الضرائب. طالب وزير المالية فيليب تقلا، الذي كشف

عن هذا الأمر، الفرنسيين بتعديل شروط الامتياز، التي سبق أن تستّر عليها الشيخ خليل بصفته مدافعًا عن هذه المصالح. وهناك أدلّة على أن المجموعة الرئاسية لن تكون قادرة على دعم هذه الامتيازات لفترة أطول. (انظر الجزء ٢ أدناه، المجموعة الفرنسية).

يعتقد المصدر أنّ الخوري يتحكّم في صحيفة «الأوريان» (L'Orient) الناطقة باللغة الفرنسية، التي نشرت العديد من المراجع الكاذبة، وعرضت انتقادات بنّاءة عن مشروع الليطاني الذي وضعه مهندسون فرنسيون. إنّ التكلفة الرخيصة للطاقة التي يقدّرها مسح مشروع الليطاني بثلاثة قروش في غضون سنوات هي بطبيعة الحال غير مرحّب بها من قِبَل شركة كهرباء بيروت التي تتقاضى ٩ قروش لكلّ كيلوواط/ ساعة.

٢. أعضاء بارزون في المجموعة الفرنسية من خارج الحلقة الرئاسية الأساسية

لا تضمّ هذه المجموعة أيًّا من الامتيازات الفرنسية، بل شخصيّات لبنانية محلّية صنعت ثرواتها من خلال الارتباط بالفرنسيين. وبالتالي، كلما فُقِدت السيطرة الفرنسية خلفتها هذه الشخصيّات على الساحة المحلّية. ويزعم مسؤولو البعثة الفرنسية أنّ الشركات الفرنسية لم تستغلّ اللبنانيين بل إن هذه العلاقات المحلّية هي التي تستغلّهم.

٨- *جورج كرم، نائب في البرلمان اللبناني*

ورث جورج كرم ثروة بشارة كرم. وبصفته أكبر مستورد للأخشاب والنشارة، فإنّه يستورد بشكل أساسي من رومانيا، وأيضًا من السويد والولايات المتحدة.

جورج كرم، نائب في البرلمان اللبناني: ورث جورج كرم ثروة بشارة كرم. أكبر مستورد للأخشاب والنشارة

- **الروابط الفرنسية:** ارتباطه بالفرنسيين واضح في «الاتحاد الوطني» (Union Nationale) و«الخطوط الجوية اللبنانية» (Air Liban) ومجموعات أخرى يرعاها بوسون. تبلغ قيمة ممتلكاته، النقدية والمُخزّنة، نحو ٧ إلى ٨ ملايين ليرة لبنانية.

٩- *ميشال الصحناوي وأولاده*

يُعدّ أهم مستورد حديد في لبنان. استُخدِم معظم هذا الحديد في فورة البناء الجارية حاليًّا. على الرغم من أنّ عائلة الصحناوي، وهي من أصل سوري، لديها روابط سياسية قويّة في سورية، إلّا أنّ قوّتها السياسية في لبنان ليست كبيرة.

- **الروابط الفرنسية:** يستورد ميشال وأنطوان الصحناوي من بلجيكا ولوكسمبورغ وفرنسا، وبصفتهما وكلاء لـ UCOMETAL – «اتحاد تجارة الفولاذ البلجيكية»، وCOLUMETA في لوكسمبورغ. استورد الصحناوي الحديد من بيتسبرغ خلال الحرب العالمية الثانية. وفي وقت مُبكر من الحرب الكوريّة، اشترى الصحناوي كمّيات ضخمة من الحديد والصلب قبل ارتفاع الأسعار، وحقّقا بالفعل أرباحًا هائلة. يعتبر مخزون الشركة من الحديد، الذي يُحتفظ به عند مستوى ثابت، من الأصول الضخمة في الشرق الأدنى، لا سيما الآن في ظل نقص العرض في جميع أنحاء العالم. لدى الصحناوي أسهم في «الخطوط الجوية اللبنانية» ومجموعة شركات فرنسية أخرى.

تبلغ ثروة الأخوين الصحناوي نحو ٢٥ مليون ليرة لبنانية من العقارات والنقد والبضائع.

١٠- *ميشال قطّار*

- **الروابط الفرنسية:** يمتلك الأخوة قطّار، بصفتهم أعضاء في المجموعة الفرنسية، أسهمًا في «الاتحاد الوطني للتأمين» و«الخطوط الجوية اللبنانية». خلال الحرب، ارتبط ميشال قطّار بشركة إيطالية وتولّى إدارتها، وجمع ثروة من بيع بكرات الحرير إلى الجيش البريطاني. باعتبارهم مصنّعي ملابس صوفية، فقد باعوها بأسعار خياليّة خلال الحرب العالمية الثانية وجنوا أرباحًا كبيرة.

تتراوح ثروتهم بين ٥ و٦ ملايين ليرة لبنانية موزّعة على ثلاثة أشقاء.

١١- *غابرييل طراد*

- **الروابط الفرنسية:** امتصّت المصالح الفرنسية مصرف G. Trad and Co.، الذي يُعتبر من الثروات القديمة القليلة التي يعود تاريخها إلى أيام الأتراك. ويُعدّ غابرييل طراد الوريث الأساسي للعائلة، إذ ورث المصرف الذي يمتلك أصولاً بقيمة مليون ليرة ذهبيّة، و٢ إلى ٣ ملايين ليرة لبنانية في العقارات. بصفته مصرفيًّا قديمًا ذا سمعة

طيّبة، لم يقم بأي أنشطة ترجّية خلال الحربين العالميتين، لكنه استثمر في العقارات.

- بما أن مصرف طراد كان يمثّل مصرف «كريدي ليونيه»، فقد أقنعه بوسون بالاندماج مع المصرف بعد الحرب، وبات لدى الشركة الجديدة Credit Lyonnais (G. Trad & Co.)، مدير فرنسي يُدعى السيد دو مونتاليفيه. وسّع «كريدي ليونيه» نطاق أعماله ليشمل جميع الأنشطة المصرفية وخصوصًا تجارة العملات التي يزاولها لصالح المصرف الرئيسي [في باريس]. تُعدّ هذه العمليّة من أصول المصرف الأمّ، إذ سمحت له بالانخراط في أنشطة الصرافة في لبنان، التي يحظرها القانون الفرنسي في فرنسا.

١٢- *آل صبّاغ*

- **الروابط الفرنسية:** دمج الأخوان، روبير وبيارو، مصالحهما مع المصارف الفرنسية بطريقة مشابهة لما فعله طراد وفق ما ورد أعلاه. بتوجيهات فرنسية، حوّلا «مصرف صبّاغ» القديم إلى «مصرف الهند الصينية» الفرنسي، الذي يُعدّ أهم مصارف الصرافة. يملك روبير صبّاغ ٥ ملايين ليرة لبنانية نقدًا وبالعقارات. ويملك بيارو ضعف هذا المبلغ لكونه يملك ٨٥٪ من أسهم «شركة مياه بيروت». تدرّ هذه الأسهم دخلًا صافيًا بقيمة ٣٠٠ ألف ليرة لبنانية سنويًّا. تُستخدم هاتان الثروتان لإدارة «مصرف الهند الصينية» الفرنسي و«المصرف التجاري الإيطالي».

يملك روبير صبّاغ ٥ ملايين ليرة، وبيارو ضعف هذا المبلغ كونه يملك أغلب أسهم «شركة مياه بيروت» والتي تدرّ ربحًا سنويًّا

١٣- *جوزيف سالم*

كان جوزيف سالم وشقيقه التوأم نقولا نائبَين في البرلمان اللبناني؛ ونقولا نائب في الوقت الحالي. ينشط الأخوان سالم في السياسة اللبنانية منذ أيام الأتراك حين كان والدهما يمثّل بيروت في [مجلس المبعوثان] باسطنبول.

- **الروابط الفرنسية:** بصفته عضوًا في مجموعة بوسون للتأمين، كان جوزيف سالم عضوًا في مجلس إدارة «الاتحاد الوطني للتأمين» و«شركة المياه» و«بنك سوريا ولبنان».

وارتبط الأخوان سالم أيضًا ببعض الأعمال مع شركة «تابلاين» في شركة بناء، وامتلكا معمل «كوكا-كولا»، ولكن هذه ليست مصالحهما المهيمنة.

١٤- *جوزيف خديج*

- **الروابط الفرنسية:** يمتلك هذا المستورد الكبير للبضائع والسلع الفاخرة الفرنسية تأثيرًا كبيرًا في الدوائر التجارية، لأنه يملك فروعًا في كلّ من فرنسا وليون. إنّه المرجع الأعلى للروابط الفرنسية في لبنان، ورئيس جميعة التجّار. ثروته ليست ضخمة.

٣. ثروات متنوّعة

١٥- *ألبير عسيلي*

اكتسب العديد من ورثة آل العسيلي ثرواتهم من صناعة المنسوجات القطنية خلال الحرب. على الرغم من أنّ عسيلي يدير الصناعة الآن، لكن كما ذكر أعلاه، زوّده ميشال ضومط برأس مال الأنشطة التي نُفّذت خلال الحرب، وحقّقت ربحًا بقيمة ٥٠ مليون ليرة لبنانية موزّعة بينهما. بيعت المنسوجات بأرباح ضخمة خلال الحرب، ومن حينها وجد آل العسيلي أسواقًا أخرى للغزل في أفريقيا وإنكلترا وأماكن أخرى. حاليًّا تستثمر العائلة الأموال في الفورة الزراعية السورية، وشيّدت مبنى إداريًّا كبيرًا في وسط بيروت. تقدّر ثروة آل العسيلي بنحو ٢٥ مليون ليرة لبنانية موزّعة على أربعة ورثة على الأقل.

١٦- *سليمان عريضة*

يتأتّى رأس مال عريضة في الأصل من المكسيك التي هاجر إليها أعضاء أقدم من العائلة. بعد عودتهم إلى لبنان، حقّق الأخوة الثلاثة، سليمان ويوسف وجورج، نحو ٢٠ إلى ٢٥ مليون ليرة لبنانية من صناعات النسيج خلال الحرب. يمتلك كلّ من يوسف وسليمان ٣ ملايين ليرة لبنانية. استثمر يوسف عريضة رأس ماله في فندق «أمباسدور» في بحمدون، وبنى سليمان منزلًا عصريًّا واسعًا في بيروت وباعه بمليون و٥٠٠ ألف ليرة لبنانية. أمّا جورج الذي أنفق ٣ ملايين ليرة لبنانية لشراء يخت هتلر، فلم يُعدّ شخصيّة تجارية وازنة. على الرغم من أنّ ابنة جورج متزوّجة من الشيخ خليل الخوري، إلّا أن الأخوة عريضة ليسوا ضمن الحلقة الرئاسية، لا بل هم معارضون للنظام الحالي إلى حدّ ما. الشاب كارلوس عريضة، ابن يوسف، ناشط جدًّا في الحلقة التجارية.

١٧- أسعد جبر

يعود أساس ثروة جبر إلى ما جُمِع خلال هجرته إلى الساحل الغربي لأفريقيا. أمّا الأرباح المحقّقة من البيرة والزيوت النباتية في زمن الحرب فقد رفعت هذه الأرباح إلى ٣ ملايين ليرة لبنانية. يشترك أسعد جبر مع ثلاثة آخرين في ملكيّة «مصنع البيرة اللبناني»، ويمتلك جميع حقوق ملكيّة مصنع زيت نباتي كبير. أنفق مؤخرًا ٣ ملايين ليرة لبنانية في توسيع مصنع النسيج الخاص به، ولديه علاقات وثيقة مع حسين بك العويني الذي زوّده بـ٢٥٪ من رأس المال.

١٨- صائب سلام، نائب في البرلمان اللبناني

- **روابط الأقلية المسلِمة:** يتمتّع الأخوة سلام، والذين يُعدّ صائب بك أبرزهم، بأهمّية سياسية واقتصادية في لبنان. باعتبارهم من أبرز العائلات المسلمة في بيروت، فإنهم يشاركون الأقلية المسلمة رأيها بأن اتحادًا أوثق مع سورية وجامعة الدول العربية سوف يؤدّي إلى حلّ معظم مشاكل لبنان الاقتصادية.
- **الروابط الأميركية:** دخل آل سلام في شراكة مع شركة «بان أميركان العالمية للطيران» في تطوير «شركة طيران الشرق الأوسط»، وهو ما عدّ دليلاً على تقاربهم مع الولايات المتحدة. مشروعهم المالي الأنجح هو «شركة طيران الشرق الأوسط» التي يمتلكون ٦٤٪ من أسهمها، خصوصًا أنّ القيمة الأساسية للأسهم البالغة ١٥ مليون ليرة باتت تساوي الضعفين الآن. تبلغ قيمة معدّات النقل التي يملكونها نحو مليون ليرة لبنانية، والآلات والأراضي والمباني نحو مليوني ليرة لبنانية. حقّقت هذه الشركة نحو مليون ليرة لبنانية خلال العام الماضي، مع ذلك لا يمكن التقليل من أهمّيتها لأنّها تملك خطّ الشحن الجوي المباشر بين بيروت والكويت والظهران. وقد اهتمّ آل سلام أيضًا بمشروع «فندق إنتركونتيننتال» لبناء فندق كبير في بيروت، وكانوا مستعدّين لوضع معظم رأس المال المحلّي عندما علّق «فندق إنتركونتيننتال» المشروع بسبب الوضع العالمي في العام ١٩٥٠ (انظر تقرير البعثة الدبلوماسية الأميركية عن السياحة، البرقية رقم ١٩٥ في ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٠).

لطالما كان صائب بك مهتمًّا بتوسيع علاقاته الأميركية. وبما أنّه كان يشعر بالسيطرة الكبيرة التي تمارسها المصارف الفرنسية في المناقصات الحكومية، فقد زار Chase National Bank في نيويورك طالبًا فتح فرع له في بيروت ليمنح المجموعات خارج الدائرة الفرنسية فرصة لتقديم مناقصات للمشاريع الحكومية. ومن المُحتمل أن يتواصل بعض شركائه مع السفير لوك في هذا الإطار.

- **الرؤية الصناعية:** بنى الأخوان سلام معملاً للزيوت النباتية المُهدرجة بكلفة مليوني ليرة لبنانية، وباعتبارهما صناعيَّين، فإنهما يعارضان بشدّة مزاعم ميشال شيحا عن أن لا مكان للصناعة في لبنان.

بنى الأخوان سلام قرية نموذجية بالقرب من صور تبلغ قيمتها ٢ إلى ٣ ملايين ليرة لبنانية. أمّا استثماراتهما الضخمة في العقارات بالقرب من مطار بيروت الدولي فقد كانت عبارة عن مضاربات خطرة لم تحقّق أرباحًا حتّى الآن.

- **القوة السياسية:** بصفته شخصية سياسية إسلامية قويّة، قد يصبح صائب بك سلام رئيسًا للوزراء في المستقبل.

١٩- إميل البستاني، نائب في البرلمان اللبناني

- **ارتباطات بريطانية:** يمتلك إميل البستاني شركة المقاولات والتجارة اللبنانية التي تقوم بأعمال بناء لصالح «شركة نفط العراق» IPC، لذلك هو مرتبط بشدّة بالبريطانيين. بصفته أحد قادة المعارضة، فإنّه يثير النقاشات في جميع القضايا. تتراوح ثروته بين ٣ و٤ ملايين ليرة لبنانية.

٢٠- إيلي أبو جودة، نائب في البرلمان اللبناني

أنفق نحو ٢٠٠ ألف ليرة لبنانية على حملته الانتخابية الأخيرة. يملك شركة تأمين جديدة.

٢١- أحمد الداعوق، وزير لبناني خلال الانتداب الفرنسي

لديه نحو ٣ ملايين ليرة في ملكيّات عقارية. [شغل منصب رئيس الوزراء بين عامي ١٩٤١–١٩٤٢، ثم اختير مرة جديدة للمنصب في ١٩٦٠ واستمر فيه لعدة أشهر].

٢٢- توفانكجيان، ش.ج.

جمع ثروة من بيع أسطول من شاحنات Oldsmobile إلى إيران وروسيا خلال الحرب العالمية الثانية. يملك وكالة Oldsmobile في الوقت الحالي. هو أرمني وبعيد عن السياسة اللبنانية.

٢٣- آل سرسق

تعود ثروة عائلة سرسق إلى أيام الإمبراطورية العثمانية. على الرغم من أنّ نشاطها خمُد بالمقارنة مع ما كان عليه في السابق، إلّا أنها لا تزال تملك ثروة عقارية ضخمة، وشققًا ومنازل، وحلبة سباق، إلخ. خسرت العائلة الكثير

من الممتلكات في حيفا، إلّا أن مكانتها الاجتماعية في بيروت والإسكندرية لا تزال موازية لوضعها الاقتصادي السابق. أنفق ألكسندر سرسق مبالغ طائلة للحصول على موقع ضمن لائحة انتخابية تضمن وصوله إلى البرلمان نائبًا عن البقاع. دفع هذا المبلغ إلى صبري حمادة وإبراهيم حيدر.

٢٤- *البطريرك عريضة*

- **الروابط الفرنسية:** بصفته بطريرك الكنيسة المارونية، كان المونسينيور عريضة مُخلصًا للفرنسيين بشدّة. رعى البطريرك عريضة تطوير معمل الإسمنت في شكّا، ولا يزال يملك نحو ٢,٥٠٠ سهم فيه بقيمة مليون ليرة. ويملك أيضًا ٢,٥٠٠ سهم في امتياز كهرباء قاديشا الذي يغذّي طرابلس وتبلغ قيمته نحو ٧٠٠ ألف ليرة. ولديه سبعة مبانٍ في بيروت وعقارات في سيدني بأستراليا. سيطر المونسينيور عريضة على أموال الكنيسة المارونية لسنوات، وكان نشطًا في العمليّات التجارية.

يملك البطريرك عريضة أسهمًا في معمل الإسمنت بشكّا وفي امتياز كهرباء قاديشا. ولديه سبع مبانٍ في بيروت وعقارات في سيدني

٢٥- *عبد الرحيم دياب*

- **الروابط البريطانية:** تطوّرت أنشطة آل دياب الضخمة في الاستيراد بالتعاون مع البريطانيين أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها. كانوا يستوردون معدّات السباكة، ويصنعون كمّيات ضخمة من المواد الخام المستوردة. خلال الحرب، زوّدوا البحرية البريطانية بمعدّات السباكة. ولديهم وكالة Best Niagara البريطانية التي باتت موجودة في معظم الأبنية في بيروت.

٤. ثروات أخرى متوسطة الحجم

هناك ما لا يقلّ عن خمسة أشخاص آخرين لديهم استثمارات ضخمة في العقارات، ولكن لم يُدرَجوا ضمن المسح لأنهم غير نشطين تجاريًا. جمع «ريموند منتورة» ثروة من شحنات الخردة إلى دول الستار الحديدي في العام ١٩٥١ لكن التفاصيل غير معروفة.

إلى جانب هذه المجموعة الرائدة، يوجد في لبنان بين ١٥٠ و٢٠٠ شخص تتراوح ثرواتهم بين ٥٠٠ ألف ومليون ليرة لبنانية. يشكّلون على الأرجح الطبقة التجارية في بيروت، وهم أكثر نشاطًا من العديد من الشخصيّات المهمّة المذكورة أعلاه. نسبة الشخصيّات التجارية بينهم أعلى بكثير بالمقارنة مع المجموعة أعلاه التي تحتوي على الجزء الأكبر من الشخصيّات الصناعية.

الجزء الثاني - درجة السيطرة السياسية التي مارسها قادة الطبقة التجارية اللبنانية

على الرغم من أنّ الطبقة التجارية في لبنان لا تهتمّ بالسياسة بالدرجة الأولى، إلا أنّها ناجحة في ممارسة سيطرتها السياسية على جميع أنشطة الحكومة ولا سيّما الأنشطة المهمّة في المعاملات التجارية، والحفاظ عليها. حتى التنازلات الحكومية المقدّمة في مجال السياسات مع «جامعة الدول العربية» ليست إلّا تعبيرًا عن مساومات هذه الطبقة.

تُعتبر الطبقة التجارية علمانيّة، فهي لا تهتم إلّا عرضيًا بالانقسامات السياسية للمجموعات الدينية والعرقية. وعلى الرغم من وجود ولاء خفي بين القادة التجاريين الذين بمعظمهم من الطائفة المارونية، وبين الفرنسيين الذين حَموهم لمدة قرن، فإن من اللافت أنّ المسلمين السنّة والشيعة والدروز والموارنة ورجال الأعمال الأرثوذكس، وحتّى البطاركة يندمجون بانسجام تامّ في عمليات مُربحة.

يتطلّب تحليل هذه السيطرة السياسية معاينة ثلاثة عوامل: (١) مصالح المجموعة التي تحدّد السياستين التجاريتين الوطنية والدولية؛ (٢) تمتّع مجموعة أو حلقة رئاسية من سبع شخصيات تجارية بمكانة متميّزة تمكّنها من الحصول على عقود معظم المشاريع الحكومية؛ (٣) الشخصيات المصرفية الفرنسية التي تعمل مع القادة التجاريين وتمارس السيطرة ماليًا وبالوكالة داخل الحلقة الرئاسية. قد يحدث تعديل جديد نتيجة عدم تمكّن الحكومة من تقديم دعم تفضيلي للامتيازات الفرنسية لأنّ ردود الفعل الشعبية ضدّها أصبحت كبيرة للغاية.

I. ملخّص عن إنجازاتها

إنّ تلخيص إنجازات الطبقة التجاريّة منذ الاستقلال في العام ١٩٤٣ هو بمثابة تمهيد أساسي للمناقشة التحليلية، إذ لا ينبغي إغفال منظور مساهماتها البنّاءة في تنمية لبنان والشرق الأوسط. أبرز هذه الإنجازات:



في أحد شوارع بيروت، ١٩٤٨

- **إقامة سوق قطع حرّ في بيروت**، حيث يمكن لجميع دول الشرق الأوسط الحصول على الذهب والدولار والجنيه الإسترليني والفرنك والدينار وأي عملة أخرى مرغوبة لأغراض تجارية.
- **وضع سياسة تخزين بعيدة المدى**. حوّل التجار اللبنانيون السوق الحرّة في المرفأ إلى مركز تجاري لشحن السلع والكماليّات المُصنّعة في أوروبا والولايات المتحدة إلى جميع دول الشرق الأدنى.

تعتبر الزيادة المُحقّقة بنسبة ١٠٠٪ في المخزونات بمثابة أصول إقليميّة في الوقت الحالي الذي بدأت تظهر فيه ندرات الحرب. ظلّت أسعار هذه السلع منخفضة للغاية لدرجة أنّ جوزيف خديج (رقم ١٤ أعلاه) قال إنّ أسعار الجملة في بيروت هي أعلى بنسبة ١٠٪ فقط من مستويات ما قبل الحرب الكورية، في حين أنّ الأسعار في أوروبا هي أعلى بنسبة ٦٠ إلى ٨٠٪.

لا ينبغي إغفال منظور المساهمات البنّاءة للطبقة التجارية في تنمية لبنان والشرق الأوسط

- **تقديم تسليفات بأسعار فائدة متدنية نسبيًا** للاستثمار في جميع أنحاء منطقة الشرق الأوسط. يقدّر ألفرد كتّانة استثمار نحو ٦٠ مليون ليرة لبنانية بفائدة ١٢-١٨٪ في الفورة الزراعية السورية الكبيرة، مقارنة مع ٢٤-٣٠٪ للتسليفات المعروضة في حلب.
- **إقامة سلسلة من المشاريع الحكومية** بعيدة المدى مثل مطار بيروت الدولي، ومبنى البريد والتلغراف الجديد، ونظام الهاتف الآلي، وتحسين مرفأ بيروت. وعلى الرغم من أنّ معظم انتقادات الفساد في الدوائر الحكومية تركّز على هذه المشاريع، إلّا أنه لا يمكن إنكار مساهماتها الكبيرة التي تصبّ في المصلحة الوطنية.

II. سيطرتها على السياسة التجارية

بلغت سياسة التجارة الحرّة شكلها الناضج في العام ١٩٤٨، إلّا أن الكتّاب اللبنانيين يصرّون على أنّها تعبير عن الموهبة التجارية الموروثة من الفينيقيين. تتضمّن سياسة عدم التدخّل الحالية: تجارة حرّة، تحرير نظام الصرف، سوقًا حرّة في المرفأ، وقد تضاف إليها سياسة رفع الرسوم الجمركية إذا لم يتمّ التوصل إلى حلّ مع سورية قريبًا. يعود الفضل المباشر إلى حسين العويني (الشخصية رقم ١ في هذا المسح)، الذي بصفته وزيرًا للمالية في العام ١٩٤٨، أطلق هذه السياسة بعد سنوات الحرب حين كان الاقتصاد خاضعًا للسيطرة الكاملة، فيما يعود الفضل غير المباشر إلى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء الأسبق رياض الصلح، وكذلك إلى مجلس الوزراء الذي وضع السياسة لصالح المجموعة التجارية. وعلى الرغم من أنّ عمليات التبادل غير المشروعة في زمن الحرب وتهريب الذهب كشفت عن أهمّية نظام التبادل الحرّ الناشئ، إلّا أنّها لا تخفّف من سطوع هذه الفكرة المُلهمة الموروثة.

- **رأي الغالبية**. المستشاران اللذان ساعدا في تطوير أفكار الرئيس هما المدير الفرنسي السابق لبنك سوريا ولبنان رينيه بوسون، وشقيق زوجته ميشال شيحا. مؤخرًا، أعدّ ميشال شيحا، الشريك المصرفي لهنري فرعون (الشخصية رقم ٤)، مقالًا لافتًا عن السياسة التجارية اللبنانية. تمّ مناقشة هذا المقال على نطاق واسع في الدوائر الحكومية والصحافة، ويمكن تلخيصه على النحو الآتي:

سياسة التجارة الحرّة هي الخيار الغرائزي لشعب تكمن أصوله الرئيسية بالكفاءة التجارية لا الموارد الوطنية. يريد لبنان تجنّب العِلل التشريعية والمالية في أوروبا من خلال اتباع سياسة نقدية موثوقة. بصفتهم تجّارًا أفرادًا، يجب أن يتمتّعوا بالحرّية الكاملة من أجل اتخاذ القرارات بسرعة، وتنفيذ الأعمال المُربحة بجرأة. يجب أن يتمتّعوا بالحرّية للتعامل مع الغرب الذي هو مصدر سلعهم المُصنّعة. أمّا دورهم في جامعة الدول العربية فيكمن بتوزيع البضائع والخدمات، والتحوّل إلى بيضة قبّان وسط الطموحات المُتضاربة لأعضاء الجامعة العربية. لا شكّ أنّ الوطنية أمرٌ عظيم، لكن الحقوق المشروعة لبلد ما يجب أن تخضع في كثير من الأحيان للاحتياجات الدولية.

تكمن النتيجة الطبيعية لهذه العقيدة بعدم رغبة الطبقة التجارية اللبنانية في خوض غمار الصناعات الثقيلة. تعرف الشخصيّات التجارية أنها لا تستطيع منافسة الصناعات البريطانية والفرنسية والأميركية، وأنّ التوسّع الصناعي الذي حقّق أرباحًا في سنوات الحرب بات يشكّل إحراجًا خطيرًا الآن، لأنّ اللبنانيين لا يجدون أسواقًا لتصريف الفوائض الصناعيّة مرتفعة الثمن، وبالتالي، لا ترغب الطبقة التجارية بنشوء طبقة صناعية تعاني من

مشاكل التوظيف والبطالة، عدا أنها تنظر إلى التصنيع كأرض خصبة للعديد من المشاكل بما فيها الشيوعية.

هذا هو رأي غالبية الطبقة التجارية. ويضيف إميل بستاني ملاحظة هامشية عن رفع جميع الرسوم الجمركية إذا لم يتمّ التوصّل إلى اتفاق تجاري مع سورية قريبًا.

لا ترغب الطبقة التجارية بنشوء طبقة صناعية تعاني من مشاكل التوظيف والبطالة. وهي تعتبر التصنيع أرضًا خصبة للمشاكل بما فيها الشيوعية

- **رأي الأقلية الذي تمثّله الطبقة الصناعية.** سارع الصناعيون إلى الردّ بأنّ الصناعة اللبنانية يمكنها توفير جزء كبير من السلع الاستهلاكية التي تُستورد من أوروبا والولايات المتحدة. احتجّ صائب بك سلام، (الشخصية ١٨ أعلاه) الذي يمتلك مصنعًا لهدرجة الزيوت النباتية، بأنّ شيحا لا يعبّر عن رأي الغالبية. كتب الصناعيون مقالات افتتاحية في الصحف المحلّية عن أنّ الصناعة ليست عدوة الشعب. تستجيب الحكومة لمطالب الصناعيين إلى درجة معيّنة، وفي بعض الأحيان تفرض تعرفات حمائية على عدد صغير من السلع، مثل واردات المفروشات، لتجنّب البطالة أو أي أزمة بين الصناعيين. منذ حلّ الاتحاد الجمركي السوري اللبناني، أجرت الحكومة محادثات كثيرة مع المسؤولين السوريين للحدّ من هذه الضائقة. مع ذلك، نجحت الطبقة التجارية في حلّ المشكلات من خلال إيجاد أسواق في أفريقيا وكذلك في دول الشرق الأوسط.

III. الزمرة الرئاسية، موقعها التفضيلي

تعريف

تتكوّن الحلقة الرئاسية من سبعة رجال يتمتّعون، بحكم مكانتهم التفضيلية مع الرئيس، بأفضل فرصة للاستفادة من المشاريع والعقود والامتيازات الحكومية. تضمّ المجموعة (المدرجة في المسح أعلاه من ١ إلى ٧): حسين العويني، فؤاد الخوري، ميشال ضومط، هنري فرعون، جان فتّال، ألفرد كتّانة، والشيخ خليل الخوري.

تُعتبر المصاهرة أو أواصر الدم مع الرئيس عاملاً ذا أهمّية خاصّة في تكوين المجموعة، إذ يرتبط خمسة من الأعضاء السبعة بالرئيس بصلات القربى تلك. فؤاد الخوري هو شقيقه؛ خليل الخوري ابنه؛ جان فتّال وفرانسيس كتّانة متزوّجان من بنات أخي زوجته، التي هي من عائلة شيحا. هنري فرعون هو شريك ميشال شيحا، شقيق زوجة الرئيس. وميشال شيحا متزوّج من شقيقة هنري فرعون. إنّ الحاجة إلى صداقة مسلم ثري قوي من صفّ الرئيس سوف تكون وراء انضمام حسين بك العويني.

رُبِطت ثلاثة امتيازات فرنسية بهذه الدائرة بالوكالة وهي: «بنك سوريا ولبنان» (الذي مثّله بوسون سابقًا)، وشركة المرفأ، وكهرباء بيروت. أمّا مواقعهم التي ضعفت فسوف تُناقش أدناه.

رسم توضيحي لنشاط المجموعة - التهم المحيطة ببناء مطار بيروت الدولي

يقول وزير الأشغال العامة السابق، جبرايل المرّ، إنّ المثال الكلاسيكي على فساد هذه المجموعة يكمن في بناء مطار بيروت الدولي. طرح المرّ فكرة إنشاء مطار دولي كبير للبنان خلال السنوات الأولى التي تلت الحرب عندما كان وزيرًا للأشغال العامّة، والتي تخلّلتها زيارات لعدّة فرق من الخبراء لمعاينة ودراسة مرونة المشروع. استشار المرّ في المرّة الأولى المهندسين العسكريين الموجودين في القاهرة، ثمّ فريقًا من خبراء الكهرباء من شركة «وستينغهاوس»، ومجموعة من المسؤولين من إدارة الطيران المدني، وأخيرًا مجموعة من شركة طيران «بان أميركان» العالمية. وصلت تكلفة الخطّة الأساسيّة التي تتوافق مع مشورة فرق الخبراء الأربعة إلى ٢٤ مليون ليرة لبنانية بما فيها تكاليف استملاك الأراضي، والمعدّات الكهربائية، والحفر، والمواد الخام، والبناء. يطالب المرّ بإجراء تحقيق في مجلس النواب بعد أن أنفقت الحكومة نحو ٤٥ مليون ليرة لبنانية على المشروع، وهناك معركة قويّة بين الحكومة والنقّاد في الصحافة.

- **معدّات كهربائية.** يقول المرّ إنّه استحصل على رأي تحكيمي في بند المعدّات الكهربائيّة، التي نصح بها كلّ من شركة «وستينغهاوس» وإدارة الطيران المدني وبلغت تكلفتها الإجمالية نحو ٤٢ ألف دولار بالإضافة إلى ١٠٠ ألف ليرة لبنانية للتركيب. قُسّمت العقود بين International Standard Electric وSadir-Carpentier، وارتفعت التكاليف إلى أكثر من مليون دولار، تضاف إليها عقودٌ أخرى. ردّت الحكومة بأنّ المعدّات التي طُلِبت بداية لم تكن كافية، وأنّ عمليات الشراء الجديدة تمّت بناءً على نصيحة المهندس السويسري ماتليس.

يتفق المراقبون على أنّه جرى شراء كمّيات كبيرة من المعدّات غير الضرورية لإرضاء غرور مسؤولي المطار، وتوفير أرباح لشركة Sadir-Carpentier.

- حدّد التجّار وملّاك الأراضي تكاليف استملاك العقارات بـ٥ ملايين و٥٠٠ ألف ليرة لبنانية في العام ١٩٤٨. إلّا أن التكاليف التي تتحمّلها البلاد، ارتفعت بالتواطؤ، إلى ٩ ملايين و٥٠٠ ألف ليرة لبنانية بداية، ووصلت إلى ١٣ مليون ليرة لبنانية حاليًّا، ولا يوجد سقف لها.
- وجّه المرّ اتهامات متعلّقة بتكلفة إزالة التربة والحفر في المطار الجديد، والتي شكّلت عبئًا على الخزينة نتيجة تآمر المقاولين الذين هم أعضاء في المجموعة المذكورة أعلاه. على الرغم من أنّ تكلفة أعمال الحفر في بيروت تبلغ ١١٠ قروش للمتر المكعب، إلّا أنّ عقود الأعمال أبرمت بـ١٧٠ قرشًا للمتر المكعّب. وبما أنّ ملايين الأمتار المكعبة من أعمال الحفر كانت ضرورية، خسرت البلاد ملايين الليرات اللبنانية لصالح ثلاثة مقاولين هم: ميشال ضومط وألفرد كتّانة وصبّاغ من شركة Regie de Travaux.
- بصفته وكيلاً لمصنع الإسمنت في شكّا، باع الشيخ فؤاد الخوري الباطون بسعر ثابت يتجاوز تكلفة استيراده من الولايات المتحدة مضافًا إليها رسوم الشحن البحري والمرفأ والنقل الداخلي. كان على مسؤولي إدارة الطيران المدني إقناع هيئة المطار بأن لا حاجة إلى ثلاثة مدرّجات بطول ٨ آلاف قدم لمطار بيروت الدولي بل يكفي وجود مدرجين. يشار إلى أنّ الشيخ فؤاد هو أيضًا عضو في هيئة المطار.

بصفته وكيلاً لمصنع الإسمنت في شكّا، باع فؤاد الخوري الباطون بسعر يتجاوز تكلفة استيراده مضافًا إليها رسوم الشحن البحري والمرفأ والنقل الداخلي

- اتهمّ المر أيضًا امتياز شركة كهرباء بيروت بتحقيق أرباح لا مبرّر لها على حساب المصلحة الوطنية. يقول إنّ هيئة المطار دفعت لشركة كهرباء بيروت ٥٠٠ ألف ليرة مقابل مدّ الكابلات من المحوّل الكهربائي في ضاحية بيروت إلى المطار، بينما أخبره أحد مهندسي الشركة سرًّا أنّ التكلفة الفعليّة بلغت ١٥٠ ألف ليرة فقط.

لإنصاف الحكومة، لا بدّ من الإشارة إلى وجود اعتبارات خاصّة خلف انتقادات المرّ، فهو عندما وضع مخطّط المطار، كان يهدف إلى تنفيذه بأدنى كلفة وشراء ما هو ضروري لجعله مطارًا جيّدًا. وبعد أن أقنع الحكومة بالمشروع، حرص خلفاؤه وهم جزئيًّا ذوو نزعة وطنية، على جعله تحفة مطليّة بالذهب. وبالتالي فإنّ جميع مشترياتهم كانت للحصول على أفضل المعدّات.

مع ذلك، يمكن القول وبثقة تامّة إنّ اتهامات المرّ تنطوي على أكثر من ٥٠٪ من الحقيقة.

IV. المصالح الفرنسية

بلغت ردود الفعل الشعبية ذروتها من خلال المطالبة بمراجعة عقود الامتيازات الفرنسية في مجلس النواب في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٢، ما جعل إجراء تقييم خاصّ للمجموعة الفرنسية ضروريًّا في هذا الوقت. مع ذلك، لا تؤثّر ردود الفعل الشعبية بأي شكل على الشخصيّات المحلّية الواردة في المسح والمرتبطة بالمجموعة الفرنسية، لأنّها تمتلك الآن سلطة تفوق ما كانت تمتلكه سابقًا، وبالتالي إذا غادرت الامتيازات الفرنسية، سوف ترتّب هذه الشخصيّات الأمور بما يضمن استيلاءها على هذه المصالح. أيضًا، لا تؤثّر ردود الفعل الشعبية بأي شكل على المصارف الفرنسيّة المسؤولة جزئيًّا عن زيادة النشاط التجاري في لبنان. لقد أدّى التحالف السعيد بين المصرفيين الفرنسيين والشخصيّات المحلّية إلى ازدهار هائل.

مع ذلك، أثارت ردود الفعل الشعبية موجة غضب عارمة تجاه ثلاثة امتيازات كبرى، ومن المرجّح أن تفشل الدائرة الرئاسية في الاستمرار بتوفير الدعم غير المشروط للامتيازات الكبرى الذي تمتّعت به في الماضي، وهي شركة كهرباء بيروت، شركة المرفأ، وسكة حديد دمشق حمص ومتفرّعاتها، التي تصدّر، بحسب النقّاد، نحو ٥٠ مليون ليرة لبنانية سنويًّا [من أرباحها للخارج]. يمكن اعتبار الهجوم الذي شُنّ في البرلمان مع سقوط رينيه بوسون في العام ١٩٥١ دليلاً على أنّ الفرنسيين ينزلقون سياسيًّا من المواضع التي يرغبون بممارسة سيطرتهم الاقتصادية عليها.

- **النشاط المصرفي الفرنسي - رينيه بوسون:** يُعتبر رينيه بوسون الشخصيّة الرئيسة للمجموعة، وهو المدير السابق لـ«بنك سوريا ولبنان» الذي أدار ورعى توسيع النفوذ المصرفي الفرنسي في لبنان قبل إقالته في العام ١٩٥١. كان بوسون، قبل سقوطه، أقوى شخصيّة مالية في لبنان، وتجاوز بنفوذه الشخصيّات السبع الأولى في الدائرة

الرئاسية. لو أعدّ هذا التقرير في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٥١ بدلًا من ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٢، لكان احتلّ المركز الأوّل في المجموعة الرئاسية متجاوزًا حسين العويني.

- **بنك سوريا ولبنان:** إنّ برقية البعثة [الدبلوماسية الأميركية] رقم ٦٦٩ الصادرة بتاريخ ١٣ حزيران/ يونيو ١٩٥١، وكتبها مارون جلخ بعنوان «تأثير بنك سوريا ولبنان الخاضع للسيطرة الفرنسية على النظام المالي في لبنان»، قدّمت تقريرًا كاملًا عن أنشطة هذا المصرف، الذي استطاع الاحتفاظ بسيطرته على النظام المصرفي اللبناني، كونه مصرف الإيداع بالنسبة للخزينة اللبنانية، ويمتلك ودائع بقيمة ٤٠ مليون ليرة لبنانية تحت الطلب ومُتاحة للاستخدام. على الرغم من أنّ المصارف الأخرى يمكنها تقديم القروض، إلّا أنها لا تملك سيولة كبيرة بالليرة اللبنانية. لذلك، بما أنّه يمتلك ليرات لبنانية، كان يمكنه تقديم قروض كبيرة من دون المخاطرة بتخفيض قيمة العملة. ونظرًا إلى أنّ الحكومة تدفع للمقاولين بالليرة اللبنانية في العام التالي للسنة التي تجري فيها الأشغال، يجب على المقاولين الاقتراض من المصارف لتنفيذ أي مشروع كبير، ويجب على المصارف بدورها أن تعود إلى «بنك سوريا» للحصول على قروض بالليرة اللبنانية لأنّ جميع المصارف الفرنسية والإيطالية وحتى البريطانية في إيران والشرق الأوسط لا تملك رأس مال كبيرًا في لبنان. بهذه الطريقة يتحكّم «بنك سوريا» بجميع السلف الممنوحة للمشاريع الحكومية مثل بناء المطار، مبنى البريد والتلغراف، والهاتف الآلي.

احتفظ «بنك سوريا ولبنان» بسيطرته على النظام المصرفي اللبناني، كونه مصرف الإيداع للخزينة اللبنانية، ويمتلك ودائع بقيمة ٤٠ مليون ليرة لبنانية

يمارس المصرف الجزء الأكبر من سيطرته بشكل غير مباشر عبر المصارف الفرنسية الأخرى لتجنّب الانتقادات. وبالتالي، إذا وافق على قرض لمشروع حكومي، فمن المحتمل أن تجري الترتيبات من خلال المصرف الوطني للتجارة والصناعة (أفريقيا)، فيما يتعهّد «بنك سوريا ولبنان» بزيادة ائتمان المصرف الوطني للتجارة والصناعة حتى مبلغ مساوٍ لحجم القرض.

- **زيادة أنشطة الصرف:** رعى بوسون توسيع المصالح المصرفية الفرنسية من خلال تشجيع مصرفَين فرنسيين كبيرين على التحالف مع مصرفين محليّين قديمين للقيام بأنشطة التبادل. استحوذ كريدي ليونيه على مصرف طراد (انظر رقم ١١ أعلاه في المسح) حتى يتمكّن من القيام بعمليات التبادل التي لا يمكنه القيام بها في فرنسا. ورعى بوسون تغييرًا مشابهًا من خلال تحويل مصرف صبّاغ إلى مصرف الهند الصينية. نظرًا إلى أن النشاط الرئيسي لمصرف الهند الصينية هو تجارة الذهب، فقد ساعده بوسون من خلال شراء الذهب منه لتأمين التغطية الذهبية للّيرة اللبنانية. هذا المصرف حرّ في شراء الذهب لأنّه ليس مصرف الإصدار. أمّا المدير الفرنسي نيلهوم، فهو صديق مقرّب لبوسون، وربما يكون بوسون أستاذه. يُذكر أنّ بوسون شريك في هذا المصرف، وبالتأكيد شريك في معظم معاملات الذهب. لا يمكن المبالغة في التشديد على أهمّية ارتباط وزير المالية السابق حسين بك العويني، في هذه المرحلة، [ببوسون وبنك سوريا ولبنان] لأنّه مدير مصرف الهند الصينية في جدة، وعضو في مجلس إدارة مصرف الهند الصينية في لبنان.

منذ سقوط بوسون، يُعتبر نيلهوم، مدير مصرف الهند الصينية، أقوى شخصية في الأوساط المالية الفرنسية.

- **مجموعة SERIAC (بوسون):** إنّ مؤسسة الأبحاث والتنفيذ الصناعي والزراعي والتجاري (SERIAC) هي الخليفة المباشر للمكتب الفرنسي الاقتصادي للحرب (OEG)، الذي قدّم أعمالاً وامتيازات ومشاريع لدعم الرأسماليين المقرّبين من فرنسا. والهدف المُعلن لهذه المؤسّسة تنظيم جميع المعاملات التجارية بين سورية ولبنان وفرنسا برعاية بوسون. وقد تمثّلت المصارف الآتية فيها:
  - المصرف الفرنسي للتجارة الخارجية
  - المصرف الوطني للتجارة والصناعة (أفريقيا)
  - كريديه ليونيه

محامو المجموعة هم: الوزير السابق حميد فرنجية. فؤاد الخوري، شقيق رئيس الجمهورية، وهو أيضًا عضو في المجموعة، ويؤمّن لها المواد اللازمة لإنجاز مشاريعها الإنشائية بسعر ثابت.

لم تحقّق مجموعة SERIAC سوى نجاح جزئي في السيطرة على الصادرات والواردات الفرنسية لأنّ وزير الاقتصاد كمال جنبلاط شنّ حملة إعلامية قويّة لمنعها من تحقيق أهدافها منذ تشكيلها.

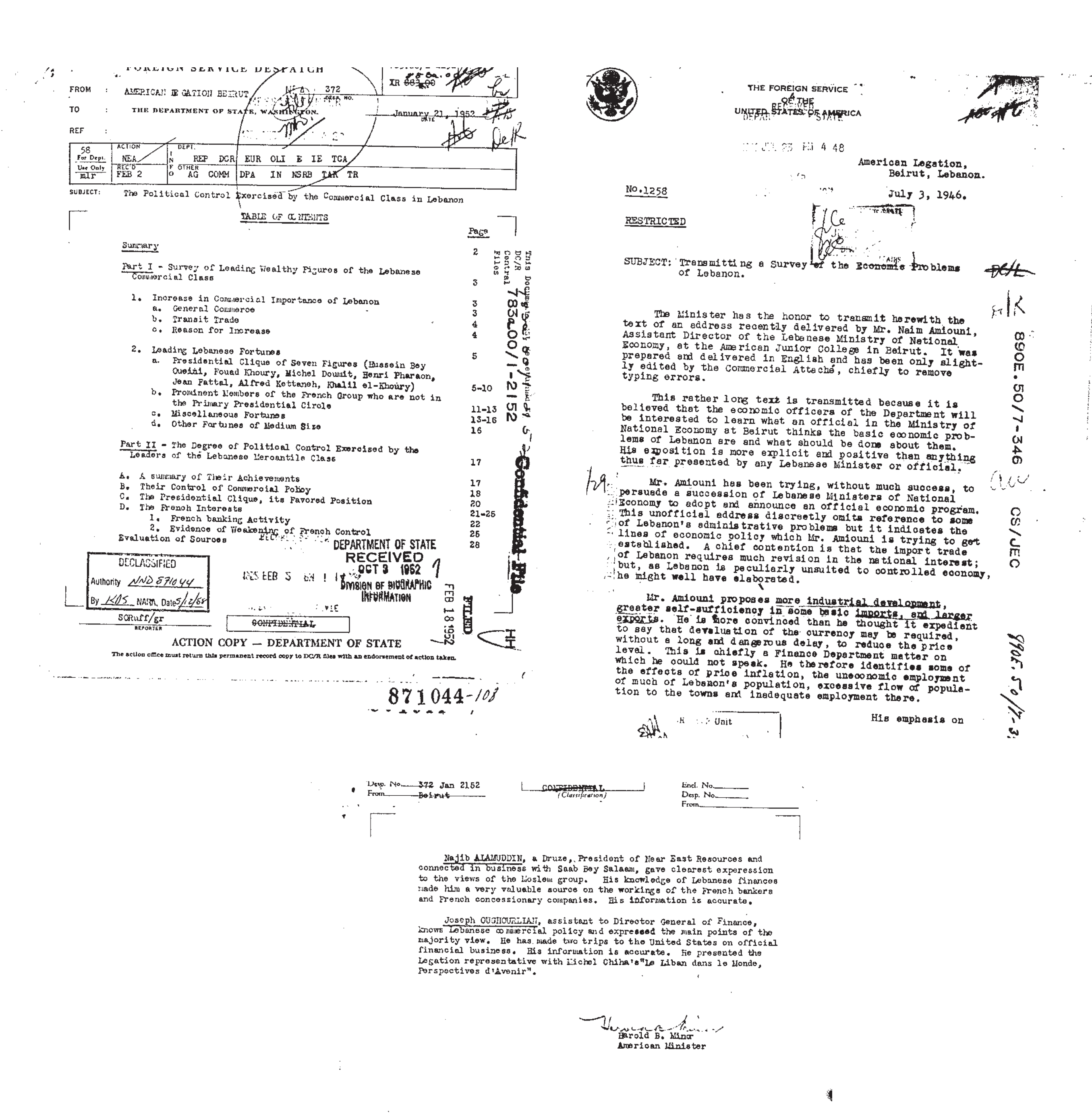
حاولت SERIAC السيطرة على تصدير الحمضيات لكنها لم تنجح. وتعمل المؤسّسة على بناء مجمّع ضخم في وسط بيروت، من المفترض أنّ يضمّ مكاتب وشققًا سكنية. هناك قصّة منتشرة على نطاق واسع في بيروت تفيد بأنّ بوسون نصح راهبات المحبّة اللواتي يمتلكن العقار بالاقتراض من «بنك سوريا ولبنان» بمعدّلات فائدة عالية لبناء جزء من المشروع، مع علمه الكامل بأنهنّ لن يتمكنّ من سداد مدفوعات الفائدة، بما يؤدّي إلى مصادرة ممتلكاتهنّ الثمينة. لا يمكن للمفوّضية التحقّق من التفاصيل الدقيقة.

لم تحقّق SERIAC سوى نجاح جزئي في السيطرة على الصادرات والواردات الفرنسية لأنّ كمال جنبلاط شنّ عليها حملة إعلامية قوية

- **مجموعة بوسون للتأمين (Union Nationale):** عندما نظّم اللبنانيون شركة الاتحاد الوطني للتأمين، وافقوا على أن يكونوا وكلاء Union Nationale لأنّ بوسون وعدهم بمنحهم عقود تأمين الامتيازات الفرنسية الكبيرة: شركة المرفأ، شركة كهرباء بيروت، إدارة الأشغال العامّة، الخطوط الجوية اللبنانية... الشخصيّات الرئيسية في هذه المجموعة الخاضعة للسيطرة الفرنسية هي:
  - جوزيف سالم
  - جان فتّال
  - ألفرد كتّانة
  - حسين بك العويني

  بنَت هذه الشركة مبنًى إداريًّا كبيرًا بجوار المرفأ، ومنزلاً فخمًا في القسم السكني من المدينة.
- **انتقادات للمصارف الفرنسية:** يوجّه المراقبون في الأوساط التجارية في بيروت الانتقادات الآتية:
  - تتحكّم المصارف الفرنسية في التجّار والتسليفات وجميع المشاريع الكبرى من خلال النقد والتسهيلات الائتمانية. وتمارس سلطتها في تفضيل الرأسماليين الموالين لفرنسا على حساب جميع المجموعات الأخرى. وتميّز بين التجّار بالطريقة نفسها خدمةً للمصالح الفرنسية.
  - طوّرت الدوائر المصرفية تقنيات خفيّة لإفساد موظّفي الدولة. في التعاطي مع الموظّفين الذين يتعالون على قبول رشوة، كانت تمدّهم بمعلومات داخلية عن بورصة الذهب حتى يتمكّن الموظف من شراء الذهب عندما يكون منخفضًا وبيعه عندما يكون مرتفعًا. بلّغ صديق مدير «مصرف الهند الصينية» نيلهوم عن هذا الأمر إلى مصدر موثوق للغاية من البعثة. لا يحمل هذا النظام أي مخاطر على المصرفي أو المسؤول الحكومي.

- **دليل ضعف السيطرة الفرنسية**
  - **سقوط بوسون:** ذات مرّة، أشار مراقب على مستوى وزاري إلى أن كلّ خطوة مهمّة قام بها الفرنسيون في لبنان منذ الحرب كانت بمبادرة من رينيه بوسون. ومنذ أن أقاله مجلس إدارة «بنك سوريا ولبنان» في باريس من منصبه في أوائل ربيع العام ١٩٥١، انتشرت تكهّنات عن سبب إقالته. وأبرز التخمينات المنطقية في لبنان هي:
    - **خلافات بوسون مع فيليب تقلا:** يُعتبر فيليب تقلا، وزير المالية الحالي، أحد الموظّفين الذين يتمتّعون بدعم شخصي كبير من رئيس الجمهورية أسوةً بالأعضاء السبعة في الدائرة المذكورة أعلاه. خلال الانتخابات الرئاسية الأخيرة، حارب بوسون تقلا، ويبدو أنّه نشب عداء شخصي بينهما. بعد الانتخابات، أصرّ تقلا على الحصول على وزارة الماليّة وكان له ذلك. وبما أنّ مدّة الامتياز الممنوح لـ«بنك سوريا ولبنان» على وشك الانتهاء قريبًا، لم يكن بوسع المصرف أن يتحمّل وجود مدير يتعامل بعداء شخصي مع وزير المالية.
    - **مفتّش المصرف:** بما أن مصرف لندن العثماني لديه حصّة بنسبة ٢٥٪ في «بنك سوريا ولبنان»، فقد بعث بمفتّشه، غوسلينغ، إلى المصرف منذ أكثر من عام. ومن المحتمل أنّه أبلغ عن صفقات بوسون الشخصية ونشاطاته إلى المكتب الرئيسي للمصرف العثماني ومكتب باريس لـ«بنك سوريا ولبنان».



FOREIGN SERVICE DESPATCH

FROM : AMERICAN LEGATION BEIRUT 372 DESP. NO.

TO : THE DEPARTMENT OF STATE, WASHINGTON. January 21, 1952 DATE

REF :

58 For Dept. Use Only	ACTION NEA	DEPT. I N F O	REP DCR EUR OLI E IE TCA
mlr	REC'D FEB 2	OTHER	AG COMM DPA IN NSRB TAR TR

SUBJECT: The Political Control Exercised by the Commercial Class in Lebanon

TABLE OF CONTENTS

This Document must be returned to DC/R Central Files

783a.00/1-2152

Confidential File

DEPARTMENT OF STATE RECEIVED OCT 3 1952 DIVISION OF BIOGRAPHIC INFORMATION

DECLASSIFIED Authority NND 871044 By KDS NARA, Date 5/12/88

FEB 18 1952 FILED

SORuff/gr REPORTER

CONFIDENTIAL

ACTION COPY — DEPARTMENT OF STATE

The action office must return this permanent record copy to DC/R files with an endorsement of action taken.

871044-108

THE FOREIGN SERVICE OF THE UNITED STATES OF AMERICA

American Legation, Beirut, Lebanon.

No.1258

July 3, 1946.

RESTRICTED

SUBJECT: Transmitting a Survey of the Economic Problems of Lebanon.

The Minister has the honor to transmit herewith the text of an address recently delivered by Mr. Naim Amiouni, Assistant Director of the Lebanese Ministry of National Economy, at the American Junior College in Beirut. It was prepared and delivered in English and has been only slightly edited by the Commercial Attaché, chiefly to remove typing errors.

This rather long text is transmitted because it is believed that the economic officers of the Department will be interested to learn what an official in the Ministry of National Economy at Beirut thinks the basic economic problems of Lebanon are and what should be done about them. His exposition is more explicit and positive than anything thus far presented by any Lebanese Minister or official.

Mr. Amiouni has been trying, without much success, to persuade a succession of Lebanese Ministers of National Economy to adopt and announce an official economic program. This unofficial address discreetly omits reference to some of Lebanon's administrative problems but it indicates the lines of economic policy which Mr. Amiouni is trying to get established. A chief contention is that the import trade of Lebanon requires much revision in the national interest; but, as Lebanon is peculiarly unsuited to controlled economy, he might well have elaborated.

Mr. Amiouni proposes more industrial development, greater self-sufficiency in some basic imports, and larger exports. He is more convinced than he thought it expedient to say that devaluation of the currency may be required, without a long and dangerous delay, to reduce the price level. This is chiefly a Finance Department matter on which he could not speak. He therefore identifies some of the effects of price inflation, the uneconomic employment of much of Lebanon's population, excessive flow of population to the towns and inadequate employment there.

His emphasis on

890E.50/7-346

CS/JEC

Unit

Desp. No. 372 Jan 2152
From Beirut

CONFIDENTIAL (Classification)

Encl. No.
Desp. No.
From

Najib ALAMUDDIN, a Druze, President of Near East Resources and connected in business with Saab Bey Salaam, gave clearest experession to the views of the Moslem group. His knowledge of Lebanese finances made him a very valuable source on the workings of the French bankers and French concessionary companies. His information is accurate.

Joseph OUGHOURLIAN, assistant to Director General of Finance, knows Lebanese commercial policy and expressed the main points of the majority view. He has made two trips to the United States on official financial business. His information is accurate. He presented the Legation representative with Michel Chiha's "Le Liban dans le Monde, Perspectives d'Avenir".

Harold B. Minor
American Minister

Cairo please pouch to:

Arab Capitals
and also
3 copies for Amlegation Beirut.

CONFIDENTIAL

871044-137

من وثائق الخارجية الأميركية

- **حياة بوسون الشخصية:** تعرّضت حياة بوسون الشخصية إلى الكثير من الانتقادات وخصوصًا في سورية. انزعج السوريون عندما بنى شقّة فخمة لعشيقته الكونتيسة دي لا رو، ومكتبًا للرئاسة. أثيرت بعض التساؤلات حول نزاهته وصدقه. أفاد أحد حرّاس المصرف في دمشق، ويُدعى بودون، بأنّ المصرف أغلق مكتب بوسون عندما تلقّي برقية فصله، وعُيِّن موظفان فرنسيان حارسين عليه، فيما سُفِّرت الكونتيسة إلى باريس على متن أوّل طائرة لشركة الخطوط الجوّية الفرنسية.

تعرّضت حياة بوسون الشخصية إلى الكثير من الانتقادات وخصوصًا في سورية. انزعج السوريون عندما بنى شقّة فخمة لعشيقته، ومكتبًا للرئاسة

- **الاستثمارات الشخصية:** تقول المصادر إنّ بوسون أدار المصرف مثل الديكتاتور، وغالبًا ما استثمر أموال المصرف في مشاريع خاصّة به. تقول يولاند دورافور، وريثة ثروة دورافور، التي عادةً ما تستضيف كبار موظّفي المصرف ونظراء منيلهوم من «مصرف الهند الصينية»، إنّها سمعتهم يتداولون السبب الذي أدّى إلى سقوط بوسون، وهو ارتباطه بقرض بقيمة ١٦ مليون ليرة لبنانية حصل عليه معمار باشي، مستورد سوري من حلب يدير مصرفًا في الجزيرة. وبما أن موسم القطن انهار في الجزيرة في ذلك العام، كانت أموال المصرف، على الرغم من وجود مؤونات المقابلة، مقيّدة بالكامل بحيث اضطر المصرف إلى تأجيل بناء مبنى إداري في وسط بيروت بعد بدء أعمال الحفر فيه. وتعتقد البعثة أنّ هناك بعضًا من الحقيقة في هذه الرواية خصوصًا أنّ معمار باشي كان ضمن مجموعة اقترضت هذا المبلغ الكبير.

- **طلب مراجعة الامتيازات الفرنسية:** يشير طلب صادر في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٥٢، يقضي بمراجعة عقود الامتيازات الفرنسية من قبل مجلس النواب، إلى أنّ ردود الفعل الشعبية تجاه الامتيازات أصبحت قويّة، بما يحتّم على الحكومة سحب دعمها الكامل لهذه المجموعة. وهو لم يُعدّ أمرًا ذا أهمّية خاصّة للبعثة التي أدركت أنّ العديد من الامتيازات الفرنسية الكبيرة، وليس فقط شركات النفط، هي التي تجني أرباحًا كبيرة من لبنان. وهو أمر مهمّ للولايات المتحدة أيضًا لأنّ هذه الشركات كانت وراء الاعتراضات التي طاولت مشروع النقطة الرابعة. وقد أدرك وزير المالية فيليب تقلا هذه الحقيقة أيضًا ووجّه انتباه الرأي العام إليها.

السيّد فيليب تقلا هو الرجل المثالي لمراجعة الشركات ذات الامتيازات لأنّ الحماية المُكتسبة من الرئيس تمنحه الدعم نفسه الذي يحظى به محامو الامتيازات وأصدقاؤها في الدائرة الرئاسية. وبما أنّه يتمتّع بثروة خاصّة من والد زوجته الذي يتربّع على رأس مصرف لبنان والمهجر الذي تتدفّق إليه أموال المهاجرين اللبنانيين، فهو محصّن عمليًّا تجاه ضغوطات مجموعات المصالح.

يقول السيّد تقلا إنّه إذا كان لا بدّ من فرض ضرائب على شركات الكهرباء اللبنانية، فلا ينبغي إعفاء أصحاب الامتيازات الأجانب من ضرائب مماثلة. تتلقّى شركة كهرباء نهر إبراهيم اللبنانية مبلغ ٤٠٠ ألف ليرة مقابل الكهرباء التي توزّعها على شركة كهرباء بيروت، وتدفع ١٢٥ ألف ليرة منها كضرائب. فيما توزّع شركة كهرباء بيروت الطاقة نفسها مقابل ٨٠٠ ألف ليرة لبنانية وهي مُعفاة من الضرائب.

فوجئت الحكومة اللبنانية والبعثة بردود الفعل الشعبية العنيفة تجاه الامتيازات، والتي ظهرت عندما نوقش الموضوع في مجلس النواب. شنّ كميل شمعون و«الحزب الاشتراكي» هجومًا على شركة كهرباء بيروت، وحدّدا مَواطن الضعف فيها، قبل أن يطالبا بتأميمها. اتهم شمعون شركة كهرباء بيروت والعديد من الشركات الأخرى بأنها تجني ٥٠ مليون ليرة لبنانية من لبنان على شكل أرباح سنوية، فيما المجموعات الصناعية والمستهلكون في المنازل غير راضين عن الخدمة التي تقدّمها الشركة، وقد ضجّت الصحافة بهذه الهجمات لأكثر من أسبوع. لم يستشهد المنتقدون بالأرباح العالية، والخدمة السيّئة، والتكاليف الباهظة فحسب، إنّما

أيضًا بعدم تحقيق الامتياز أي شيء لتلبية احتياجات الطاقة المتوقّعة في البلاد أو العمل على تطوير مشاريع الطاقة الكهرومائية. قمع رئيس مجلس الوزراء، عبد الله بك اليافي، مطلب التأميم بحجّة عدم تثبيط الاستثمارات الأجنبية في لبنان، لكن البرلمان صوّت بغالبية ساحقة على مراجعة امتيازات شركة المرفأ، وسكّة حديد دمشق حمص ومتفرّعاتها، وشركة كهرباء بيروت، لإلغاء الامتيازات الخاصّة الممنوحة في عهد الإمبراطورية العثمانية والانتداب الفرنسي والتي تتعارض مع مصالح البلاد العليا.

اتهم شمعون شركة كهرباء بيروت وغيرها بأنها تجني الملايين على شكل أرباح سنوية، فيما المجموعات الصناعية والمستهلكون غير راضين عنها

يُعتبر ردّ الفعل الشعبي مهمًّا لأن الرئيس سياسي ذكي ولن يفضّل مجموعة امتيازات أجنبية لا تحظى بشعبية لدى الناس. ويمكننا القول بثقة تامّة أن مناصبهم كأعضاء مميّزين في الدائرة الرئاسية مُعلقّة على الأقل حاليًّا. ومن المُحتمل أن تكون معارضتهم لمشاريع التنمية الأميركية المُقترحة مثل مشروع استجرار الطاقة من الليطاني أقل صخبًا في المستقبل القريب.

المصادر

جبرايل المر، وزير الأشغال العامة السابق

جوزف أوغورليان، مساعد مدير عام وزارة المالية

نجيب علم الدين، رئيس موارد الشرق الأدنى

فريد حلو، رئيس شركة مياه القرى الجبلية

إدوين فالنجا، المدير الفرعي لـ«بنك سوريا ولبنان»

ألفرد كتّانة، أحد الأخوة كتانة

دونالد بيكر، ممثل كيلي سبرينغفيلد للإطارات

مصطفى نصولي، مدير دائرة الإحصاء في وزارة الاقتصاد الوطني

فيليب تقلا، وزير المالية

يولاند دورافور، وريثة ثروة دورافور، وتعرف معظم المصرفيين الفرنسيين في المدينة

ميشال شيحا، لبنان في العالم: آفاق للمستقبل

مقابلات من ١٥ دقيقة إلى ساعة واحدة مع الشخصيّات الآتية:

حسين بك العويني، وزير المالية السابق أنطوان صحناوي، رئيس شركة صحناوي أخوان لاستيراد الحديد

نيقولا سالم، نائب في البرلمان اللبناني، وشقيق جوزيف سالم

جوزيف خديج، رئيس جمعية التجّار اللبنانيين

صائب بك سلام ومالك سلام، نائبان في البرلمان اللبناني

إميل بستاني نائب في البرلمان اللبناني

تقييم المصادر:

جبرايل المرّ، يُعتبر وزير الأشغال العامة السابق من أصدق موظفي الدولة في لبنان. منذ أن وضع تصوّره لإقامة مطار بيروت الدولي وحظيت فكرته بقبول عامّ، بات المصدر الأدقّ للمعلومات المتعلقة بالمشروع. وبما أنّ رئيس الجمهورية وقف ضدّه في الانتخابات الأخيرة التي خسر فيها، فإن انتقاداته تحمل درجة من المرارة الشخصية لا ينبغي إغفالها.

فريد حلو، شقيق وزير الخارجية شارل حلو، ورئيس شركة المياه التي تزوّد القرى الجبلية بالمياه. كمسؤول تنفيذي لديه معرفة وثيقة بالشخصيّات التجارية الرائدة وثرواتها، قدّم لنا مصادر وتقديرات ووصفًا للصلات الأسرية لـ ٢٥ شخصيّة بارزة. وبما أنّه صديق مُقرّب لمعظم أعضاء المجموعة، كانت معلوماته دقيقة ولا تحتوي على مواد مهينة.

نجيب علم الدين، درزي، رئيس موارد الشرق الأدنى، وتربطه علاقات عمل مع صائب بك سلام. قدّم التعبير الأوضح عن آراء المجموعة المسلمة. معرفته بالشؤون المالية اللبنانية جعلته مصدر معلومات قيّمًا عن عمل المصرفيين الفرنسيين والامتيازات الفرنسية. معلوماته دقيقة.

جوزف أوغورليان، مساعد المدير العام لوزارة المالية، يعرف السياسة التجارية اللبنانية ويعبّر عن النقاط الأساسية لرأي الغالبية. زار الولايات المتحدة مرّتين ضمن مهمّات مالية رسميّة. معلوماته دقيقة. قدّم إلى ممثل البعثة عرضًا عن كتاب ميشال شيحا «لبنان في العالم: آفاق للمستقبل».

هارولد ب. ماينور

مسؤول تنفيذي أميركي

من تاريخ الأوليغارشية اللبنانية - ٢
التجارة ليست وحدها الاقتصاد
دفاعًا عن الانتاج الصناعي والزراعي

ترجمة فيفيان عقيقي

السلك الدبلوماسي للولايات المتحدة
البعثة الأميركيّة
بيروت، لبنان
٣ تموز/يوليو ١٩٤٦
رقم ١٢٥٨

الموضوع: إحالة مسح عن مشاكل لبنان الاقتصاديّة

يتشرّف الموظف التنفيذي بإحالة النصّ المُرفق لكلمة ألقاها مساعد مدير وزارة الاقتصاد نعيم أميوني في الكلّية الأميركية الإعدادية في بيروت مؤخرًا. أُعدَّ النصّ وسُلّم باللغة الإنكليزية، وخضع لتحرير بسيط من المُلحق التجاري لتصحيح بعض الأخطاء المطبعية.

أحيل هذا النصّ الطويل، نوعًا ما، لاعتقادٍ بأنّ المسؤولين الاقتصاديين في الدائرة مهتمّون بمعرفة رأي أحد مسؤولي وزارة الاقتصاد الوطني في بيروت بالمشاكل الاقتصادية الأساسية في لبنان، وما يجب فعله حيالها. يُعتبر عرضه الأكثر وضوحًا وإيجابيّة بين كلّ ما قدّمه أي وزير أو مسؤول لبناني حتى الآن.

حاول السيّد أميونى إقناع وزراء الاقتصاد المتعاقبين باعتماد برنامج اقتصادي والإعلان عنه رسميًا، لكن باءت محاولاته بالفشل. يتجاهل هذا النصّ غير الرسمي أي إشارة إلى بعض مشاكل لبنان الإداريّة، لكنّه يُبيّن خطوط السياسة الاقتصادية التي يحاول السيد أميوني ترسيخها. يكمُن الخلاف الرئيسي حول ضرورة مراجعة تجارة الاستيراد في لبنان من أجل المصلحة الوطنية. لكن، بما أنّ الاقتصاد المُوجّه لا يلائم لبنان، من المُرجّح أنّه توسّع في شرح الأمر.

يقترح السيّد أميوني القيام بالمزيد من التنمية الصناعيّة، ورفع معدّل الاكتفاء الذاتي في بعض الواردات الأساسية، وزيادة الصادرات. إنّه مقتنع بضرورة تخفيض قيمة العملة المحلّية لخفض مستوى الأسعار من دون أي تأخير طويل وخطير. تتعلّق هذه المسألة بوزارة الماليّة بشكل رئيسي، والتي لا يمكنه التحدّث عنها. لذلك يُحدّد بعض آثار التضخّم، والتوظيف غير الاقتصادي لكثير من السكّان، والتدفّق السكّاني المفرط نحو المدن، وعدم كفاية الوظائف هناك.

يبدو أنّ تركيزه على الإمكانات الصناعيّة للبنان مبالغ فيه، فيما يقلّل من تقدير قيمة أصوله وفوائده كمركز سياحي ومقصد لقضاء العطلات. على عكس الممارسة السائدة هنا، فإنّه يشير إلى فلسطين باعتبارها من الأمثلة الجيّدة على التنمية الاقتصاديّة، مع افتراض مبالغ به بأنّ الصناعات الفلسطينيّة راسخة. مع ذلك، يقف على أرضيّة أكثر صلابة في معارضة وجهة النظر النموذجيّة للتاجر البيروتي من أنّ لبنان يمكنه الاعتماد بشكل أساسي على التجارة.

هناك ما يبرّر بعضًا من الانتقادات القاسية التي يوجهها إلى وجهة النظر قصيرة المدى لتجّار بيروت. على أنّ شكوكه بالقيمة الاقتصادية لمصافي النفط في لبنان توازنها دعوته إلى معامل التجميع وسواها من المؤسسات الصناعية. ويعكس تركيزه على زراعة المزيد من القمح رغبةَ اللبنانيين العامّة في أن يكونوا أقل اعتمادًا على الحبوب السوريّة. وتنطوي مقترحاته الأخرى عن التنمية الزراعية والتنويع على قيمة كبيرة.

لكن لا يمكن اتّباع حجّته الأساسية بأنّ «استنفاد الاحتياطيات النقدية التي تراكمت من خلال تقشّف آبائنا» و«إفقار السكان الزراعيين»- وكلاهما غير دقيق، أكثر من كونهما غير مرئيين- كانا عاملَيْ توازن في اقتصادٍ دَعم عجزًا في الميزان التجاري بقيمة ١٠٠ مليون ليرة لبنانية خلال ١٥ عامًا ممتدة بين العامين ١٩٢٩ و١٩٤٤. دخل لبنان تلك الفترة وخرج منها، وهو اليوم، لا مدين ولا دائن على الصعيد الدولي، إلّا إذا تطرّقنا إلى المداخيل «غير المنظورة»، أي التي تراكمت في

الخارج من أرباح نصف مليون من مهاجريه أو أكثر، ويعتقد بأنّ العديد منهم لن يعودوا، ولكنّهم سوف يحافظون على العلاقات المالية والتجارية الوثيقة وكذلك العلاقات الأسرية مع الوطن الأم.

في الخلاصة، يختم السيد أميوني بأنّ:

١. الاقتصاد عِلم جديد في لبنان، ويجب تعلّمه بسرعة.

٢. على الرغم من أنّ الحكم الأجنبي أعاق التقدّم، إلّا أنّ مسؤولية لبنان كبيرة في هذا الصدد.

٣. لا يمكن الوصول إلى الرخاء من خلال التجارة وحدها. الاستيراد العشوائي مضرّ، ومن غير الممكن أن يستمرّ، فضلاً عن أنّ أحدًا ليس مستعدًّا لمساعدة لبنان في الحفاظ عليه.

٤. تتضاءل الموارد الشحيحة بالأساس، وتتناقص تحويلات المهاجرين، وتوقّفت نفقات الجيوش الأجنبية. يجب على لبنان أن يعتمد على موارده الزراعية والصناعية، وأن يطوّرها إلى أقصى حدّ. «إذا فعلنا ذلك، سوف نجد المساعدة والتقدير من الخارج».

٥. من بين العديد من الإصلاحات العاجلة، أكثرها إلحاحًا يتعلّق بالظروف الريفيّة. (لم يُضِفْ، كما يعتقد، أنّ انتشار الشيوعية هو البديل في المدى القريب).

٦. قدّمت دولة مجاورة (فلسطين) أمثلة عن إنجازات واضحة.

٧. تمتلك دول عربيّة أخرى قدرة كبيرة على التنمية، وتحتاج إلى إصلاحات إسوةً بلبنان، وعلى لبنان أن يتعاون معها.

نُشرت أجزاء من كلمة السيد أميوني في الصحف العربية في بيروت ولكن لم يَرِد أيّ تعليق عليها. عبّر في محادثة خاصة عن شعوره بأنّه لا يصل إلى أي نتيجة بأفكاره أو حياته المهنية، وأنه يفكّر في تقديم استقالة مبكرة. قدّم مدير وزارة الاقتصاد في دمشق، والخبير الاقتصادي المتمرّس، أكرم ركابي، استقالته الأسبوع الماضي نتيجة إحباط مشابه.

مُرفق:

ورقة بعنوان «مسح موجز عن مشاكلنا الاقتصادية قبل الحرب وبعدها».

نسخ إلى:

قسم شؤون الشرق الأدنى

البعثة الأميركية في دمشق

أُرسلت النسخة الأصليّة وصورة طبق الأصل إلى الدائرة.

مُرفق بالبرقيّة رقم ١٢٥٨ بتاريخ ٣ تموز/يوليو ١٩٤٦

من البعثة الأميركية، بيروت، لبنان

مسح موجز عن مشاكلنا الاقتصادية قبل الحرب وبعدها

كلمة ألقاها نعيم أميوني في ٢٣ أيار/ مايو ١٩٤٦ في الكلّية الأميركية الإعدادية في بيروت.

أفترض أنّ الناس، وخصوصًا الطلاب، الذين يجدون مراجع كثيرة في الصحافة عن نقص الغذاء، والتجارة، والقيود، والتنمية الصناعيّة ومواضيع مشابهة، يتوقون أحيانًا للحصول على تقرير مباشر من الرجال الذين يعملون على مقربة من هذه المشاكل. إذا كان هذا شعوركم، فلا بدّ أن أرحّب بالفرصة التي أُتيحت لي للتحدّث إليكم اليوم، ومن خلالكم، أنتم الذين تمثّلون جيل المستقبل، للتواصل مع جميع المهتمين بجدّية بالمستقبل الاقتصادي لبلدهم.

كلمتي ليست أطروحة عن النقاط الاقتصاديّة المجهدة. إنّها خلاصة بسيطة عن مواضيعنا الاقتصادية الرئيسية، مكثّفة بطريقة توضح الوضع الحقيقي والخطير الذي نواجهه في لبنان. مع ذلك، أنا أعلم أنّ عملي لن يكتمل، لأنّه لا يمكن فصل الاقتصاد عن الجوانب الاجتماعية والسياسية التي يرتبط بها بشكل وثيق، عدا أنّ موقعي لا يسمح لي بمقاربة هذه المواضيع الدقيقة الآن. مع ذلك، في ما يتعلّق بالأسئلة المُلحّة حاليًّا، سأقدم رأيًا واضحًا قدر الإمكان، وسأكمله، إذا لزم الأمر، بإجابات عن أسئلة فرديّة.

سأبقى في حدود الاقتصاد اللبناني. لكن بما أنّ لبنان وسورية يعيشان في حالة من الاتحاد الاقتصادي، ولديهما عملة موحّدة، ومعظم قوانينهما وأنظمتهما الاقتصادية مشتركة، فقد يجد الطلّاب هنا إجاباتٍ عن الأسئلة المتعلّقة بسورية أيضًا. أمّا بالنسبة إلى دول الجوار الأخرى فلن أتمكّن من التعامل معها بالتفصيل. هنا أيضًا، يمكن للطلّاب أن يطرحوا الأسئلة إذا رغبوا في ذلك.

للتمكّن من إظهار مكانة لبنان الخاصّة، ربما من الضروري تقديم ملخّص عن الموارد الاقتصادية للدول العربية المجاورة مقارنةً مع مواردنا. تمتلك كلّ هذه الدول ثروات كبيرة محتملة، سواء زراعية أو معدنية، ويمتلك بعضٌ من هذه الدول كليهما. العراق وسورية ومصر بلدان زراعية بشكل أساسي، ولديها احتياطيات نفطية محتملة. مع زيادة الإمكانات، يمكن لأوّل بلدين أن يعيلا بسهولة عددًا أكبر من السكان مقارنةً بالوقت الحاضر. تمتلك المملكة العربية السعودية احتياطيات نفطية ضخمة، وعلى الرغم من أنّ بنيتها التحتية قد تكون فقيرة، إلا أنه يمكن استخدام ثروتها النفطية لعمل المعجزات في التنمية الاقتصادية. تتشارك فلسطين والأردن الترسّبات الكيميائية الغنيّة للبحر الميّت. وحتى الآن، لا يمتلك لبنان أي ثروة معدنية مهمة أسوةً بجيرانه، ولا تتناسب مساحته



مستودعات تبريد في بيروت.


ENTREPÔTS FRIGORIFIQU
GLACE
ENTREPÔTS FRIG
لات التبريد

وتضاريسه مع التنمية الزراعية واسعة النطاق. من ناحية أخرى، يتمتّع لبنان بظروف مناخية خاصّة توفّر له الإمكانات لتطوير زراعات خاصّة، جيرانه محرومون منها. كما أنّ لديه احتياطيات مياه محتملة يمكن استغلالها لإنتاج طاقة رخيصة لأغراض صناعيّة. بلادنا معنيّة بشكل مباشر بازدهار جيرانها، الذي ينعكس على ازدهارها.

ما مدى قدرتنا على التعامل مع الاقتصاد، وما هي خبرتنا في هذا المجال؟ بالنسبة إلى الغالبيّة الساحقة من اللبنانيين، وكذلك السوريين، يُعتبر الاقتصاد موضوعًا جديدًا. إنّها تجربة جديدة بالنسبة إلى حكوماتهما، ولا يمكن إتقانها بين ليلة وضحاها. على عكس الإصلاحات السياسية والاجتماعية، التي يمكن إجراؤها في وقت أقصر نسبيًا، تأخذ التنمية الاقتصادية وقتًا أطول بكثير، لأنّها تتطلّب بناء الزراعة والصناعة وتوفير الوسائل اللازمة، المالية والمادية وغيرها.

بالإشارة إلى هذه النقطة، ليس سرًّا أنّه لم يُسمح للبنان وسورية بمعالجة مشاكلهما الاقتصادية بحرّية حتى العام ١٩٤٣. فكّر الانتداب عنهما وخطّط لهما. لا أهدف إلى توجيه أي نقد في هذا الصدد، لكن يجب أن أذكر الحقائق للمساعدة في شرح الحالة الراهنة. إذا نظرتم إلى تاريخ الانتداب، تجدون أنه حتى العام ١٩٣٧، لم تتضمّن أي حكومة لبنانية وزارة للاقتصاد. ثم فجأة، بعد توقيع معاهدة الاستقلال الفرنسية- اللبنانية، ظهرت بخفوت أوّل وزارة للاقتصاد، لكنّها ارتبطت بشكل مُربك بوزارة العدل، وفي ما بعد بوزارة الشؤون الخارجية والتعليم العامّ . هذا يعني أنّها لم تكن مشروعًا جادًّا. في الواقع، استمرّت سلطة الانتداب بالاهتمام بحياتنا الاقتصادية، تمامًا كما كانت تفعل سابقًا، وبشكل مستقلّ، لوضع الخطط التي تنظّم وسائل حياتنا. لم يُعلَن عن هذه الخطط، ولكن كانت نتائجها واضحة. إحدى هذه النتائج أنّ لبنان وسورية عانيا من عجز منذ العام الأوّل للانتداب وحتى العام الأخير، واستمرّت هذه الحالة للأسف حتى بعد الانتداب.

حتى ١٩٣٧، لم تكن هناك وزارة للاقتصاد. ثم ظهرت بخفوت بعد الاستقلال لكنّها ارتبطت بوزارة العدل، ثم بالشؤون الخارجية والتعليم العامّ

إلى أي مدى وصل عجز الميزان التجاري، ولماذا؟ لطلّاب الاقتصاد وحتى للآخرين، الجواب هو في الأرقام الواردة أدناه، التي جُمِعت من الإحصاءات الرسمية، وتوضح لماذا نواجه قوّة شرائيّة غير مستقرة ومنخفضة للغاية بعد سنوات عديدة من الازدهار الواضح. خلال ١٤ عامًا، بين العامين ١٩٢٩ و١٩٤٣، بلغ الفارق بين قيمتَي وارداتنا وصادراتنا نحو ٥٥٢ مليون ليرة سوريّة ولبنانية. يجب ألا تحتسب القيمة الدولية الفعلية لهذا المبلغ الضخم بسعر الصرف الحالي، لأنّ معظم قيمتها فُقِدت حين كان الجنيه الإسترليني مُقدّرًا بـ ٥٥٠ قرشًا.

لماذا؟ لأنّنا استوردنا ما شئنا وبالكمّيات التي نرغب بحرّية. استوردنا السلع الأساسية مثل المواد الغذائية، والمنسوجات، والأدوية، والآلات وجميع السلع اللازمة للحياة العصريّة. كذلك استوردنا كميات كبيرة من السلع غير الأساسية والكماليات مثل العطور، والمشروبات، والمفروشات وآخر الصيحات، بدرجة لا تتناسب مع دخلنا القومي. وفقًا للجمارك، يبلغ متوسط عدد السلع المستوردة نحو الألف (تحديدًا ٩٩١ سلعة)، تمتدّ من الملح إلى الكافيار ومن الحرير إلى أجهزة الراديو، في حين أنّ صادرات البلدين لموازنة الواردات بالكاد تتجاوز عددًا قليلاً من المنتجات الزراعية مثل الحبوب، والتبغ، والحرير، والحمضيّات والخضروات.

عندما يبدأ الناس بالقلق بشأن خسائر الميزان التجاري، يواجَهون بحجّة ثابتة عن تعويض هذه الخسارة بدخل غير منظور يتأتّى من الأموال المُرسلة من المهاجرين إلى الوطن، ومن عائدات السياحة والترانزيت. درست هذا الجانب ووجدت أنه مجرّد وهم. ما لم تكن هذه العوائد غير المرئيّة، التي يسمّيها بعض اقتصاديينا «خدمات»، دائمة وذات حجم مهمّ نسبيًا، لا يمكن اعتبارها أصولاً أساسية لدخلنا القومي. في حالتنا، تتناقص تحويلات المهاجرين باستمرار، وهذا أمر منطقي لأنّ حركة الهجرة همدت عمليًا. السياحة إشكالية وغير آمنة. والترانزيت يتغيّر باستمرار. إذا لم نكن حذرين للغاية لن يبقى مصدر للدخل.

فضلاً عن أن المداخيل غير المنظورة المشار إليها، والتي لا تظهر في الميزان التجاري، يقابلها إنفاق ظاهر، الآلاف من تجّارنا وطلّابنا يقضون الشهور والسنوات في الخارج، وأصبحت زيارة مصر أقلّ شعبية بالنسبة إلى اللبنانيين بقدر ما هي زيارة لبنان بالنسبة للمصريين.

لذلك، فإنّ الآثار الإفقاريّة لعجز الميزان التجاري حقيقية، وما زالت. يمكن لتدبير واحد أن يكون قادرًا على التخفيف من حدّتها، أي تطوير مواردنا الاقتصادية الزراعية والصناعية على حدّ سواء، من أجل إمداد سوقنا المحلّية بأكبر قدر ممكن من السلع الاستهلاكية، وتصدير سلع بما يوازي، أقلّه، قيمةَ الواردات التي لا نزال نحتاجها على الرغم من تنظيمها. لكن

ربّما هذا ينطوي على تطلّب الكثير، فتلك السياسة تقتضي تنفيذ إصلاحات جادّة على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي. عدا أنّ تنمية الموارد الطبيعية وتنظيم الاقتصاد بالمعنى الحديث يعني تجميع القوى من خلال الثروة وتطلّب التقدم الاجتماعي. وهو ما لا يتماشى مع السياسة العامّة التي كانت متّبعة.

عندما يقلق الناس بشأن خسـائر الميزان التجـاري، يواجَهون بتعويض الخسارة بدخل يتأتّى من الأموال المُرسلة من المهاجرين ومن عائدات السياحة والترانزيت

هكذا تُرك لبنان وسورية يغرقان بالواردات التي حالت دون نمو اقتصادهما الإنتاجي؛ من الغذاء الذي يمكن زراعته، والقماش الذي يمكن نسجه في مصانعهما الخاصة، ومئات المواد الاستهلاكية التي تُثبت قدرتهما الكبيرة على التصنيع إذا أُتيحت لهما الفرصة والمعدّات. أدّت التخفيضات العديدة للعملة الفرنسية، التي ترتبط بها عملتنا، إلى زيادة الضرر المتأتي بالأساس من تأثيرات الميزان التجاري. وسوف يلاحظون بالتأكيد حجم هذا النزيف المالي الذي لا يمكن تعويضه وعواقبه الوخيمة على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي.

خلال فترة ما قبل الحرب، تساءل الاقتصاديون كثيرًا عن القدرة على الاستمرار طويلاً من دون الوصول إلى حالة الإفلاس الكامل. رأى بعض الخبراء أنّ الميزان التجاري قد يكون خضع لتعديلات من خلال التدفّقات الماليّة غير المنظورة التي ينفقها الجيش الفرنسي. لا تزال هذه المسألة في خانة الشكّ. أميل إلى الاعتقاد بأنّه إذا تمكّنا من الصمود لفترة طويلة والحفاظ على وضعيّة ماليّة صحية، فذلك لأنّنا كنّا نعيش ونستنزف، ببطء ومن دون وعي، الاحتياطيات النقدية التي تراكمت في أيام آبائنا المتقشّفين الذين لم يعرفوا شيئًا عن كماليات الحياة المعاصرة. خلال هذا المسار الاستنزافي، أصبح توزيع الثروة غير متكافئ بشكل متزايد من خلال إفقار السكان الزراعيين وتهجيرهم من أراضيهم نحو المدينة. وهو ما نشعر به الآن من خلال موارد أريافنا غير المطوّرة إلى حدّ كبير، بالتوازي مع سحب العاطلين من العمل من الأراضي الشاسعة إلى المدن.

هناك مصدر آخر للأموال يوازن الخسارة مؤقّتًا، وهو الحقيقة غير المعلنة الكامنة بمسارعة ملّاك الأراضي والصناعيين المفقرين إلى رهن ممتلكاتهم من خلال المصارف الأجنبية، ما أدّى تدرّجيًا إلى تحوّل المواقع القيّمة في البلاد إلى ملكيّات أجنبية.

في تلك المرحلة، كان الجزء الأكبر من حجم التداول الاقتصادي مدفوعًا بالاستيراد، وأصبح المستوردون الشريحة الأغنى من السكان، وأكثرها نفوذًا. هذا هو السبب في استمرار الخلط بين الاقتصاد واستيراد البضائع. لكن في كلّ مرّة تخطّط السلطات المسؤولة لإجراء إصلاحات، يُصرّ المستوردون على أن تكون لهم الكلمة الأولى والأخيرة .

كانت الحرب الممتدّة بين العامين ١٩٣٩ و١٩٤٥ مفيدة للبنان وسورية. أوقفتْ تدفّق جميع السلع غير الأساسية التي هُدِرت عليها الأموال في السابق، وأعادت إحياء الصناعات المحلّية القليلة، وزادت الإنتاج الزراعي، إذ تحوّل لبنان إلى انتاج الفاكهة والخضروات، وسورية إلى زراعة الحبوب. وأدّى الإنفاق العسكري الأجنبي إلى تعويض جزء من الخسائر المالية الموروثة من الواردات الوفيرة قبل الحرب. هل استفدنا بشكل كامل من هذه الفوائد غير المتوقعة؟ تُظهِر الأزمة الآنيّة أنّ لبنان على الأقل لم ينتهز تلك الفرصة.

صعوبات الحرب وما بعدها

بعد العام ١٩٤٣، بدأنا بإدارة مواردنا بأنفسنا، لكنّنا وجدنا صورة مختلفة تمامًا عن تلك التي اعتدناها، وفهمنا أنّ ظروف الماضي السهلة اختفت. أمّا جوانب الوضع الجديد فهي:

- ندرة السلع الاستهلاكية
- عدم الاستقرار المالي
- تقييد الواردات والصادرات والتجارة الداخلية
- ارتفاع تكاليف المعيشة

لا يحتاج النقص في السلع الاستهلاكية إلى أي تفسير مستفيض من جانبي. لقد كان ذلك بسبب انخفاض الواردات، وكنز التجّار المحلّيين المخزونات الحالية، وعدم قدرتنا على إنتاج معظم السلع المطلوبة. سوف أُجيد عن المشكلة المالية لأنّ التعامل معها أمر معقّد وصعب للغاية الآن. لكن الضوابط وارتفاع تكلفة المعيشة تحتاج إلى شرح، لأنها لا تزال تعيق تعافينا العامّ، وقد تستمرّ لفترة طويلة إذا لم يتمّ التعامل معها بشكل مناسب.

فُرضت الرقابة على الواردات خلال الحرب، أوّلاً لأنّ الدول المصدّرة، ولا سيّما الولايات المتحدة الأميركية والإمبراطورية البريطانية، كانت لديها كميات محدودة جدًّا من السلع المتاحة للتصدير، وثانيًا لأنّ لدينا كمية محدودة من العملات الأجنبية لتوفير كلّ هذه الواردات، ولم تعدْ قيمة عملتنا كما كانت في عصر التجارة الحرّة. قُيِّدت الصادرات من بلدنا كيلا نُحرم على

الأرجح من حاجاتنا الضئيلة من المواد الغذائية والمواد الخام. ولاستكمال الرقابة على وارداتنا وصادراتنا، فرضت السلطات الرقابة على التجارة الداخلية لتنظيم أسعار السلع الأساسية وتأمين استقرار كلفة المعيشة عند مستويات معقولة.

لسوء الحظ، نظرًا إلى الطاقة المتفجّرة للثروة الفردية من ناحية، وعدم قدرة القوانين الجديدة على التكيف مع الظروف المتغيّرة بسرعة، من جهة أخرى، لم تثبت الضوابط فاعليتها، ما أدّى إلى ارتفاع غير مسبوق في تكلفة المعيشة.

تكلفة المعيشة

غلاء المعيشة هو سبب معظم مشاكلنا. لقد تسبّب في تضخّم موازنة الدولة، ومنعنا من التصدير نظرًا لارتفاع سعر التكلفة على المستوردين الأجانب. ثم إنّه يبعِد السيّاح عن شواطئنا لأنّنا واحد من أغلى البلدان من حيث ارتفاع تكلفة المعيشة في العالم. وثمة العديد من الأضرار الأخرى الناتجة من ارتفاع تكلفة المعيشة.

غلاء المعيشة سبب معظم مشاكلنا. لقد تسبّب في تضخّم موازنة الدولة، ومنعنا من التصدير لارتفاع سعر التكلفة على المستوردين الأجانب

بدأ تضخّم الأسعار بسلعتين أساسيتين: الخبز والنسيج. ووجِهت الحكومات بواحد من خيارين منذ بداية الحرب: القيود الكاملة أو لا قيود البتة. أدّى تطبيق الإجراءات الواقعة بين هذه وتلك إلى انعدام الفاعلية. جرى تثبيت السعر المرتفع للخبز على معدّل التضخّم العالي للعام ١٩٤٣، وعلى الرغم من ضمان توفير الخبز، فقد ساهم سعره في استمرار ارتفاع تكاليف المعيشة وزيادتها. من جهة ثانية، لم يتمّ التحكّم في الأنسجة أو تقنينها، كما أنّ ارتفاع أسعارها باضطراد، بسبب المضاربة، ألقى بعبئه على إنفاق الطبقات العاملة، المثبتة في أعمالها، وأثّر على نحو غير مباشر في تكلفة إنتاج الغذاء.

قد يرغب الطلّاب في تدوين هذا الأثر الغريب: انخفضت أسعار المنسوجات إلى حدّ كبير مؤخّرًا، لكن هذا لم ينجم عن توافر السلع فقط. كان بسبب التدني المفاجئ في القوة الشرائيّة للسكان. كثير من الناس الذين احتاجوا إلى المنسوجات قبل بضعة أشهر ما زالوا في أمسّ الحاجة إليها، لكنهم لم يعودوا قادرين على شرائها. اسألوا مالكي الأسهم في الشركات، قد يكون لديهم ما يقولونه عن هذا الموضوع.

دفعت مشكلة الخبز الاقتصاد اللبناني إلى حالة هشّة جدًّا. قبل أيام قليلة، أدى نقص الخبز، ولو جزئيًّا، إلى التأثير على مروحة كاملة من أسعار السلع الأخرى، وبدأ في زعزعة الهيكل الاقتصادي والاجتماعي بأكمله. وهذا ما ثبت مرّات عديدة خلال هذه الحرب، ولا يوجد أدنى شكّ في أنّ حلّ مشكلة الخبز لدينا يعني حلّ معظم همومنا الاقتصادية. سوف أتناول هذه النقطة بشكل موسع عند مناقشة مسألة الزراعة لاحقًا في هذه الكلمة.

في ما يتعلّق بمراقبة الأسعار، من الخطأ تبرير بعض فشلنا بالنظر إلى البلدان التي فشلت أكثر أو أقل منّا، والأحرى النظر إلى البلدان التي واجهت الحقائق وفرضت ضوابط ونجحت في اجتياز حالات طوارئ مستبعدة التصديق، وهناك العديد من الأمثلة عن هذه الأخيرة.

الموارد والدخل القومي

بعد أن شرحت الظروف التي سبقت الحرب، والأرباح والأضرار التي لحقت بنا بسبب الحرب، سوف أرسم صورة مؤقّتة عن مواردنا الحالية وأحاول تقديم اقتراحات ليس لحلّ مشاكلنا، ولكن على الأقل لإيجاد أرضيّة لخطة عمل.

يعتمد مستوى معيشتنا ومستقبل شعبنا على دخلنا القومي وطريقة توزيع هذا الدخل أو الثروة. إذا كان هذا الدخل منخفضًا أو يوزَّع بشكل غير صحيح، فسوف ينخفض مستوى معيشتنا ويتعطّل التقدم الإجمالي للاقتصاد، والعكس صحيح. لكن الدخل القومي ليس مسألة ثابتة. يمكن زيادته حسب موارد البلد وقدرة السكان على تطوير تلك الموارد. سوف ينخفض الدخل القومي إذا أُهمِلت الموارد الطبيعية، فتكون العواقب الاجتماعية والاقتصادية كارثيّة. ما هي مواردنا الحالية، وما هي إمكانيات تطويرها؟ أولاً: الإمكانات البشريّة.

السكان

يبلغ عدد سكان لبنان نحو مليون و١٠٠ ألف نسمة؛ ومنهم ١٤٠ ألف عامل؛ من ضمنهم ١١٠ آلاف فقط يعملون في الزراعة والصناعة (قبل الزيادات الأخيرة في معدّل البطالة): هذه هي الوظائف المنتجة. ويعلن ٢٢٥ ألفًا عن أنهم تجّار وملّاك أراض ومستخدمون وموظّفو دولة ومحامون وأطباء: هذه فئة الوظائف غير المنتجة. وهناك ٧٣٥ ألفًا لا يمتلكون وظائف (من ضمنهم القسم غير النشط من السكان). تُظهر

هذه الأرقام أنّ نحو عُشْر السكان يساهمون في تكوين الثروة المادية، وتوفير وسائل العيش لبقية المجتمع، والقسم الأكبر منهم منخرط في العمل الإداري أو المضاربة أو هم متعطلون من العمل.

يبلغ عدد سكان لبنان نحو مليون و١٠٠ ألف نسمة؛ ومنهم ١٤٠ ألف عامل؛ من ضمنهم ١١٠ آلاف يعملون في الزراعة والصناعة

(لإدراك أضرار المضاربة، وهي إحدى أكبر مشاكلنا، لا يمكن إعطاء مثال أفضل من أسعار الفواكه والخضروات بالتجزئة. يسلّمها المزارعون بأسعار معقولة، لكن لا يمكن أن تصل إلى المستهلك قبل مرورها بالوسطاء، الذين لا يفعلون شيئًا سوى زيادة سعر الشراء بنسبة ١٥٠ إلى ٢٠٠٪).

قد تكون حالتنا المتعلّقة بتشغيل السكان النشطين غير موجودة في أي دولة حديثة. فرنسا، التي تقارن بشكل غير مؤاتٍ مع الدول الأفضل تنظيمًا، يعمل ٣٨٪ من سكانها في الزراعة والصناعة. أمّا بلجيكا فإنّ ٤٣٪ من سكانها النشيطين يعملون في الصناعة، والنسبة نفسها تقريبًا في الزراعة. أمّا عندنا فالنسبة هي ١٠٪.

بالنسبة إلى لبنان، يؤثّر هذا التوظيف الناقص للسكان النشطين كثيرًا على توزيع الثروة، والقوّة الشرائية، والتجارة العامّة والتقدّم الاجتماعي. وأحد الأسباب الرئيسية لهذا الوضع هو الهجرة من الريف إلى المدينة بسبب الاختلاف المعروف في المعايير والافتقار إلى التحسينات الريفية وانعدام الأمن. السبب الرئيسي التالي هو عدم وجود صناعات كافية لاستيعاب القوّة البشريّة المهاجرة.

لحسن الحظ، على الرغم من عوامل الضعف المفروضة عليهم لقرون، لم يفقد سكان البلد كامل حيويّتهم، وعند أخذ المهارة والذكاء بالاعتبار، يتبيّن أنّهم حافظوا على بعض المعايير الجيّدة التي تنكشف بمجرّد أن يتمكّن الأفراد من تحقيق الرخاء المادي.

الزراعة

أرضنا الزراعية غير مطوّرة وفقيرة جزئيًا بسبب الاستنزاف المستمرّ لعناصرها المغذّية من دون تجديدها بالوسائل العلميّة. يُعتبر القمح القزم الموجود في حقولنا، وضعف إنتاجية التربة (بمعدّل يراوح بين ثمرة إلى ٦ حبّات لكلّ بذرة)، دليلاً واضحًا على ضعف تغذية الأرض.

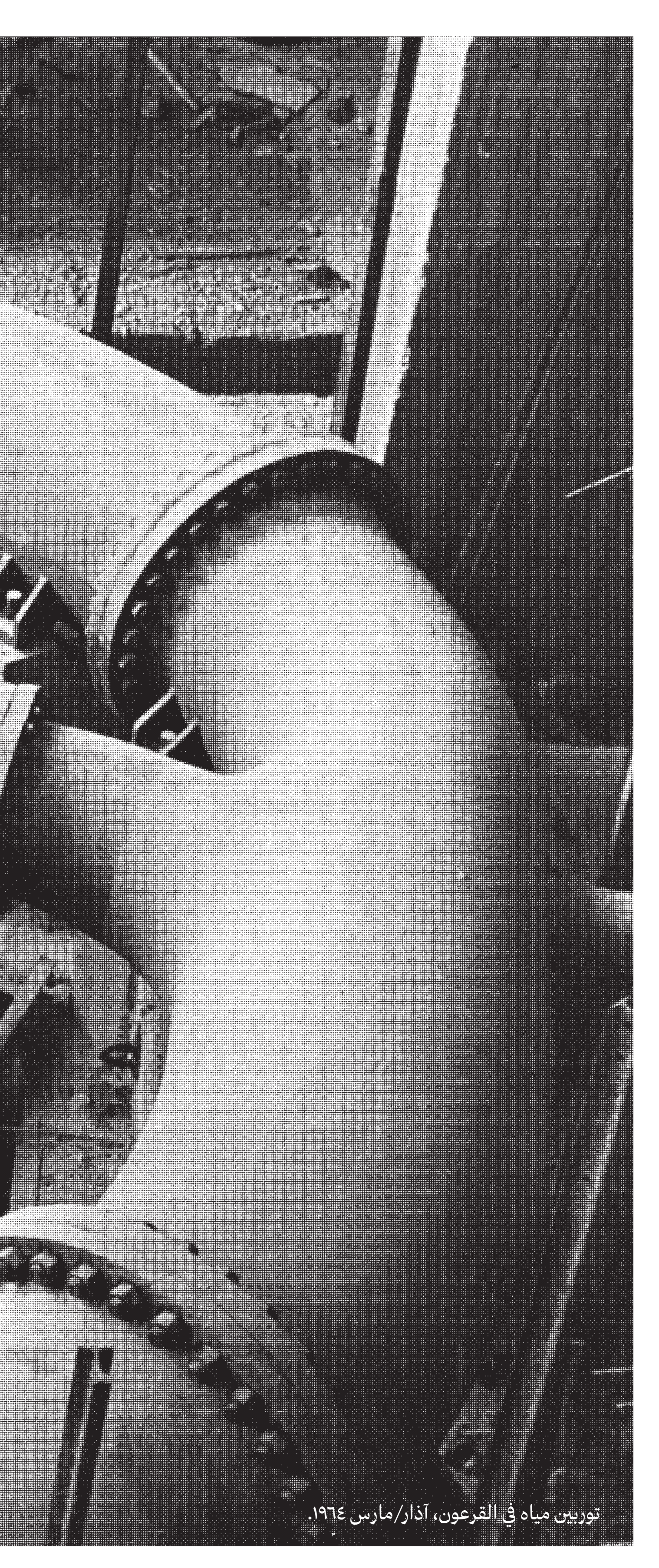
المياه وفيرة لكنّها تحتاج إلى أنظمة ريّ إضافية وأنظمة توزيع أفضل، والتي لا تقتصر فوائدها على كبار الملّاكين، بل تشمل صغارهم والعمّال الزراعيين أيضًا.

من المعروف أنّ مناخنا يوفّر الظروف المناسبة لزراعة أفضل أنواع الفاكهة والخضروات في العالم.

منتجاتنا الرئيسية هي زيت الزيتون والحمضيّات والحرير، لكن الإنتاج الفعلي لا يتوافق مع القدرة الإنتاجية للبلاد عند تطبيق الأساليب المُحسّنة والإنتاج المنظّم. يكفي تقديم مثال واحد لتوضيح ذلك. قبل حرب ١٩١٤-١٩١٨، كانت الحمضيّات التي تنمو في شرق البحر الأبيض المتوسّط تتركّز في طرابلس وصيدا ويافا. كان محصول فلسطين مساويًا تقريبًا لمحصول طرابلس وصيدا معًا. مع إدخال أساليب الإنتاج الحديثة، ومكافحة الآفات والتسويق العلمي، وصل محصول فلسطين في العام ١٩٣٩ إلى ٧٠٠ ألف طن ، وهي كمّية ضخمة. حاليًا، يُقدَّر إنتاج الحمضيّات في لبنان بنحو ٧٠ ألف طن. كان محصول فلسطين قبل الحرب أكبر بعشر مرّات من محصولنا، ولا يزال أكبر بخمس مرّات الآن، على الرغم من الإجراءات والقيود التي فرضتها الحرب. لا يمكن احتساب الخسارة التي تكبّدناها من هذا الركود. لم تكتفِ فلسطين بتحقيق ثروة وغذاء وعملات أجنبية تشتدّ الحاجة إليها فحسب، بل أطلقت أيضًا صناعات جديدة لعصير الحمضيّات والزيوت الأساسية، واكتسبت أسواقًا جديدة وشهرة تجاريّة مع كلّ ما تتضمّنه من أرباح.

في ما يتعلّق بأغذيته الرئيسية، ينتج لبنان الآن نحو ٣٠٪ من الحبوب اللازمة لتغذية سكانه. يبلغ متوسّط الواردات السنوية نحو ١٠٠ ألف طن من القمح والشعير بنحو ٣٥ مليون ليرة، دفعها لبنان نقدًا إلى المورّدين الخارجيين حتى العام ١٩٤٢. بالنسبة إلى الأشخاص الذين لا يفهمون كثيرًا بالإحصاءات، يجب أن أقول إنّ هذا المبلغ يتجاوز بكثير السعر الإجمالي لمحاصيلنا الرئيسية من زيت الزيتون والحمضيّات والحرير مجتمعة. لكن هذا ليس كلّ شيء. نحن لا نتغذّى من الحبوب فقط، بل نستورد كمّيات من الأرز والتمر والدهون ومنتجات الألبان تزيد قيمتها على ٦ ملايين ليرة. أخشى أنّه لا يوجد في دخلنا المرئي أو غير المرئي ما يمكن أن يوازن هذه النفقات لشراء السلع الغذائية الأساسية وتخصيص الموارد للحصول على سلع أخرى تتطلّبها الحياة العصريّة.

يذكّرني هذا الموقف المأساوي بقول جبران الشهير: «ويلٌ لأمّة تلبس ممّا لا تنسج، وتأكل ممّا لا تزرع». لا تزال مشكلة الغذاء بالنسبة إلى لبنان خطيرة كما كانت دائمًا.


توربين مياه في القرعون، آذار/مارس ١٩٦٤.

لا يقلّ خطورة التحذير الذي تطلقه الطبيعة عن تدمير عناصر الحياة في هذا البلد، وأعني الغابات والأتربة. لا شكّ أنّ الطلّاب، الذين يملكون بعض المعرفة عن تأثيرات تآكل التربة، انتابهم الشعور المؤلم الذي أشعر به بعد هطول الأمطار الغزيرة التي تُلطِّخ مصبّات الأنهر على طول أميال بلون بني داكن، هو نفسه لون التربة التي تغذّينا وتُجرَف بعيدًا إلى البحر. تنجرف التربة بسهولة بسبب الأمطار، لأنّ الغابات التي تشكل العائق الرئيسي أمام انجراف التربة قد دُمِّرت، ولا يزال تدميرها جاريًا. لا تقلّل خسارة التربة المحاصيل الزراعية المتوقعة فحسب، بل تقلِّل أيضًا إمدادات المياه التي تغذّي التربة والغابات. وإلى جانب قيمتها الاقتصادية، تشكّل الغابات الجسم الرئيسي للمشهد الطبيعي الذي يجعل لبنان بلدًا جميلاً.

خلال الحرب العالمية الأولى، تسبّب الجيش التركي، في سعيه للحصول على الوقود، بخسائر فادحة في غاباتنا المفتوحة. لحسن الحظ، كانت الطرق لا تزال نادرة ومرافق النقل أكثر ندرة، وإلّا لكان الدمار أكبر بكثير. لكن خلال هذه الحرب، سهّلت الطرق والمواصلات حصول المجزرة بحقّ آلاف الأفدنة من الغابات الجميلة، التي كان ينبغي إنقاذها بكلّ الوسائل، أو على الأقلّ استبدالها على الفور بمساحات مزروعة جديدة وتأمين حماية كافية لضمان نموّها الكامل.

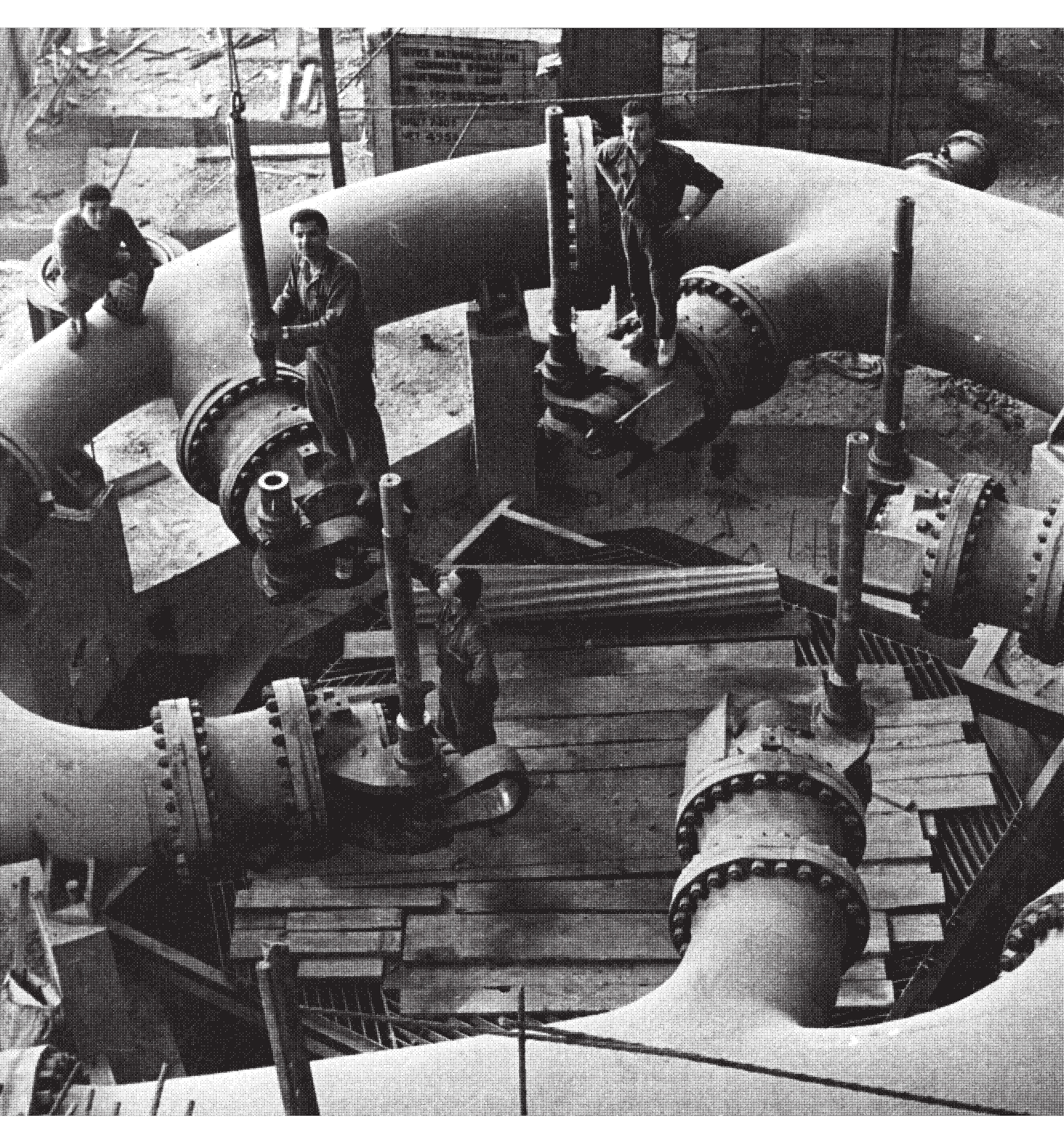
إنه تناقض مؤلم عندما نلاحظ أنّ الرغبة بالحصول على أرض تدفع الناس إلى تغطية الأسطح الصخريّة بالتربة، التي يتمّ الحصول عليها لقاء سعر باهظ من مناطق بعيدة، بينما ننظر ببعض اللامبالاة إلى أرضنا المجرّدة من كلّ ما يجعلها مكانًا مناسبًا للعيش.

قبل الحرب بوقت قصير، أنشأت حكومة الولايات المتحدة إدارات خاصّة لتجديد الغابات وصيانتها، على الرغم من أنّ الولايات المتحدة ليست في وضع يائس. يستدعي وضعنا المأساوي بذل أي تضحية من الشعب والدولة. ولحماية المناطق التي جُدِّدت حديثًا لا شيء أفضل من إنشاء محطّات جبليّة دائمة لوحدات الجيش اللبناني لأنّ ذلك لن يترتّب عليه أي نفقات إضافية.

لمكافحة تآكل التربة، أنشأت الدول الحديثة إدارات خاصّة تراكمت لديها المعرفة والخبرة في هذا المجال. وواجبنا في معالجة هذا الضرر غير المرئي والمُقلق لا يقل إلحاحًا عن واجب معالجة مشكلة الغذاء.

الصناعة

على اللبنانيين الذين يحبّون تسمية بلدهم «سويسرا الشرق» في إشارة إلى مناظرها الطبيعية، أن يتذكروا أنّ سويسرا



الحقيقية هي أولاً دولة عالية التصنيع، لا تأتي ثروتها الرئيسية من السياحة بل من الصناعة. تجدر الإشارة إلى أنّ عدم امتلاك سويسرا المعادن والوقود، دفعها إلى تكوين ثروة اقتصادية من الصناعات بشكل أساسي، والتي تجعل ميزانها التجاري أعلى بنحو ١٥ مرّة من لبنان وسورية معًا، وبنفس عدد السكان تقريبًا. أين نقف في الواقع في ما يتعلّق بالصناعة؟

على اللبنانيين الذين يحبّون تسمية بلدهم «سويسرا الشرق» أن يتذكروا أنّ ثروة سويسرا الرئيسية تأتي من الصناعة لا السياحة

قبل عشرين عامًا، كان من المعتاد وصف عجزنا الصناعي بادّعاء عدم قدرتنا على تصنيع مسمار. ثمّ بدأ بالعمل عدد قليل من الرجال الذين يؤمنون بالقوّة الصناعية. حاربوا سياسة الركود التي اتّبعها الانتداب وبنوا المصانع. لا يزالون يقاتلون ضدّ نزاعات ذات طبيعة مختلفة، واليوم يقدّر رأس المال المستثمر في مختلف المؤسسات الصناعية في لبنان بنحو ١٠٠ مليون ليرة لبنانية.

في العام الماضي، على الرغم من نقص المواد الخامّ والآفاق المستقبليّة غير المستقرّة، صنع لبنان أكثر من خمسين سلعة صناعية، كان يجري استيرادها من الخارج مقابل نقود ثمينة. غطّت الصناعات الغذائية بشكل رئيسي المعلّبات والمربّيات والبسكويت والمعكرونة والنشاء والغلوكوز والشوكولا والدهون والبيرة والكحول. في قطاع البناء، هناك الإسمنت، وألواح الخشب، والمسامير، والدهان، والبلاط، وأجهزة الصرف الصحّي والتدفئة. في المنسوجات، هناك الغَزْل والسلع القطنية، والملابس الداخلية، والجوارب، والحرير والصوف. وثمة منتجات أخرى مثل النعال الجلدية والمطاطية، والأحذية الجلديّة والمطاطيّة، وأعواد الكبريت، والصابون، والكرتون، والزجاج، والأجهزة الصناعية والمنزلية. لكن بينما كنّا نصنّع نحو ٥٠ عنصرًا بشقّ الأنفس، كانت فلسطين تتقدّم بقوّة وبسرعة مع أكثر من ٥٠٠ سلعة من بينها مواد كيميائية مهمّة وأدوات وآلات دقيقة. لذلك، إذا كنّا فخورين بالإنجازات الصناعية في لبنان، فلا يمكننا اعتبارها الهدف النهائي، لأنّها ليست أقصى ما يمكننا فعله أو ما يجب أن نفعله في المجال الصناعي. تذكّروا أننا نستورد نحو ألف سلعة، وإذا استطعنا التخلّي عن استخدام بعضها لتوفير المال، فلا يمكننا التخلّي عن معظمها لأنّ لا غنى عنها للحفاظ على المعايير الحديثة ومواكبة التقدّم.

من دون إنتاج صناعي ملائم، لا يمكننا حفظ استقرار اقتصادنا ورفع معاييرنا. أنا مضطر لإجراء بعض المقارنات مع فلسطين لأنّ الناس هناك أدركوا هذه الحقيقة الاقتصادية، وبنوا قوّة صناعية من الأرباح الهائلة التي جنوها من الإنتاج في زمن الحرب، بينما لا يزال شعبنا يتساءل عما إذا كان استثمار رأس مالهم في التجارة التقليدية أفضل وأسهل وأكثر أمانًا. لطالما رغبتُ بزرع الوعي بأهمّية الصناعة داخل كلّ رجل في هذه البلاد.

اعتاد الناس جني الأموال بسهولة من خلال المضاربة أو التجارة، ولذلك روّجوا لاعتقاد سائد بأنّ لبنان لا يمكن أن يصبح بلدًا صناعيًّا لأنّه يفتقر إلى المواد الخام. جعلت الإنجازات هؤلاء الاقتصاديين الزائفين يصدّقون هذه الكذبة. عناصر الصناعة ليست فقط المواد الخام، فهذه يمكن استيرادها. في الواقع، تتطلّب صناعاتنا المزدهرة استيراد بعض المواد: تستخدم مصانع النسيج القطن والصوف المستورد، وتستخدم المدابغ الجلود المستوردة.

في الواقع، لدينا مواد خام أكثر مما لدى فلسطين التي تُعتبر صناعاتها أقوى بعشر مرّات على الأقل من صناعاتنا، وكانت تتغذّى جزئيًّا من المواد الخام من لبنان: الفاكهة لمصانع التعليب، والأخشاب لمصانع الكبريت وألواح الخشب، والرمل للزجاج، والطين للطوب، والمُغْرَة للألوان، وغيرها.

الخيال والمهارة والشجاعة هي التي تخلق القوّة الصناعية. بإمكان سويسرا أن تكون مثالاً على ذلك، والعديد من البلدان الأخرى أيضًا. لكن لنتحدّث عن فلسطين مرّة أخرى، حيث نشأت صناعة قويّة مؤخّرًا، تقطيع الألماس، ووفّرت لها العمالة الماهرة. لا تنتج فلسطين الألماس الخام، ولا تشكّل سوقًا للألماس: فهذه المواد الخام تُستورد من جنوب أفريقيا، وتُصنع في فلسطين، وتُصدّر إلى العالم. من خلال المهارات الموجودة فيها، أصبحت فلسطين من مراكز قطع الألماس القليلة في العالم، ويقدّر أنّها تدرّ عليها نحو ٣٠ مليون دولار سنويًّا.

عناصر الصناعة

ما هي آفاق لبنان لتطوير الصناعات، وما هي العناصر التي يمكننا الاعتماد عليها؟

- **العمالة:** يتمتّع العمّال اللبنانيون بسمعة طيّبة، وقدّموا دليلاً على قدرتهم على التأقلم مع أساليب العمل الحديثة بسرعة، وبناء تقليد صناعي رفيع.

- **الطاقة:** احتياطياتنا المحتملة من الطاقة الكهرومائيّة كبيرة، وتمثّل أحد الآمال التي نعتمد عليها في الانتعاش الاقتصادي، لأنّه ليس لدينا احتياطيّات نفطيّة قيّمة، سائلة أو صلبة. بالفعل، أصبح إمداد الطاقة من المحطّات القائمة غير كافٍ. الضغط الحالي من المراكز السكنيّة والصناعيّة، وكذلك النموّ المستقبلي، يتطلّب مشاريع طاقة إضافية. في هذا الصدد، هناك واقع يجب أن نواجهه؛ لا يمكن توقّع تطوّرات مشرقة في الطاقة من دون رفع المعايير في الريف. على الرغم من أنّ المراكز المزدهرة نسبيًّا، مثل بيروت وطرابلس، يمكن أن تستخدِم المزيد من الكهرباء، إلّا أنّ المناطق الريفية الفقيرة غير قادرة على استقبال هذا العنصر الحضاري الذي لا غنى عنه. أظهر مسح حديث في شمال لبنان أنّ من بين ٥٥ ألف نسمة، هناك بضع عشرات من العائلات تستطيع دفع تكاليف الكهرباء.
- **الوقود:** يُعتبر الوقود السائل مادة أساسية في صناعاتنا ووسائل نقلنا، لكن تكلفته أعلى في لبنان من تكلفته في أي دولة أخرى في الشرق الأوسط. نظرًا إلى التكلفة المتراكمة التي ارتفعت بعد تزايد سحوبات الخزينة وبالتوازي مع ضعف أنظمة الإيرادات السابقة - أصبح سعر الوقود السائل مضرًّا للغاية. إليكم مقارنة أسعار بين لبنان ودول الشرق الأوسط الأخرى:
  - الكاز (لكل لتر): مصر: ٢,١٩ ليرة فلسطينية - فلسطين: ١,٩١ ليرة فلسطينية - لبنان: ١٦,١ ليرة لبنانية.
  - البنزين (لكل لتر). مصر: ١٥,٧٩ ليرة فلسطينية- فلسطين: ١٤,٨٠ ليرة فلسطينية - لبنان: ٢٩,٥٩ ليرة لبنانية.
  - الفيول أويل (للطن). ليرة لبنانيّة. مصر: ٥,٢٦ ليرات لبنانية - فلسطين: لا شيء - لبنان: ٣٤,٨٤ ليرة لبنانية.
  - إن صناعاتنا غير قادرة على مواجهة المنافسة بمثل تلك الإعاقة لإحدى المواد الرئيسيّة. ومن الواجب الوطني إيجاد مصدر آخر من الدخل من أجل تخفيف العبء عن وسائل الإنتاج.
- **النقل:** لم يشهد لبنان أو سورية إنشاء أي خط سكة حديديّة جديد لأغراض اقتصادية خلال الـ٣٦ سنة الماضية. بُنِيت تفرّعات صغيرة في سورية تحت ضغط عسكري (السويداء في العام ١٩٢٧، تل كوجك في العام ١٩٣٩) أما فرع الناقورة-طرابلس، فقد أنشئ العام ١٩٤٢ لأغراض عسكريّة هو أيضًا. وهذه علامة على الركود الاقتصادي.

على الرغم من توافرها في المراكز السياحية المفضّلة، إلّا أنّ الطرقات كانت رديئة وغير متوافرة في المناطق الزراعية الرئيسية.

ربما تكون رسوم المرافئ والتخزين في لبنان هي الأعلى في شرق البحر الأبيض المتوسّط، كما أنّ رسوم تفريغ البضائع المفروضة على وكلاء الشحن خياليّة، وهو ما يضرُّ كثيرًا بالتجارة والصناعة.

شهدت طرابلس إنفاق مليون ليرة لإنشاء كاسر أمواج بطول ثلاثة ارباع المِيل، من دون أن يكون له أي غرض واضح. وأصبحت السفن في طرابلس أكثر ندرة ممّا كانت عليه بعد بناء كاسر الأمواج.

الشحن: تقليديًّا، يُفترض أن تعجبنا هذه الصناعة التي تتراجع في لبنان. سوف يؤدّي تطويرها إلى امتصاص الكثير من فائض العمالة، وتقليل الكثير من كميات الشحن التي تنقلها السفن الأجنبية، وأيضًا تغطية جزء من العجز في الميزان التجاري. أليس مفيدًا للآفاق المستقبلية التأكيد على أنّ أحواضنا شيّدت بعضًا من أفضل البوارج لأساطيل الحلفاء خلال الحرب؟

بعد تعداد الموارد الاقتصادية، سأشرح الآن موقفنا المتعلّق بمصادر الدخل غير المنظور، التي تُناقش حاليًّا بشكل مكثّف، لكن مع فهم القليل عنها.

التجارة: كما ذكرت سابقًا، لا يزال الخلط قائمًا بين التجارة والاقتصاد بشكل خاطئ. التجارة هي وسيط للاقتصاد، وليست الاقتصاد نفسه. أدّى نجاح عدد من تجّارنا خلال عصر التجارة الحرّة إلى الترويج للاعتقاد السائد بأنّ التجارة تحقّق النجاح بمعزل عن الشكل الذي يتخذه الاقتصاد أو طبيعة الظروف. لذلك، يمنو عدد التجّار في لبنان، المحترفين منهم والهواة، بشكل هائل، لكن بدلاً من أن يكون ذلك النمو ميزة حسب الاعتقاد الشائع، أصبح التجار يشكّلون خطرًا على اقتصادنا. أظهرت التطوّرات الأخيرة المتعلّقة بالاستيراد العشوائي جهلاً تامًّا بالحسّ التجاري وانعدامًا في البصيرة، لا سيّما من الوافدين الجدد إلى التجارة، عدا أنّ غياب الضوابط الصارمة في حالة مماثلة هو أمر خطير على التجّار والتسليف الوطني الموضوع في تصرّفهم.

في رأيي، تقع على التجّار مسؤولية إيجاد المكان الأفضل لتوظيف طاقاتهم ومهاراتهم، وتنظيم أسواق جديدة لمنتجاتنا، بدلاً من استيراد وعرض البضائع غير الضرورية مقابل الحجم الضئيل من الائتمان المتبقي لدينا.

من العلامات المحبطة التي لوحِظت مؤخّرًا الاتجاهُ الذي أظهره كبار الملّاكين إلى سحب استثماراتهم الضخمة في الأرض وتحويلها إلى التجارة واستيراد سلع مثل الدرّاجات والنظّارات الواقية وأجهزة الراديو، بدلاً من إعادة استثمارها في الطاقة الإنتاجية أو استخدامها في تحسينها. من ناحية أخرى، أحد الجوانب المشجّعة هو ميل التجّار الناجحين إلى توظيف رؤوس أموالهم في التنمية الزراعية وفق أسس حديثة. الاتجاه الأخير هو بالطبع أصغر من السابق.

- **السياحة**: السياحة هي أحد مواردنا، ويجب تطويرها على نطاق واسع وفق الاتجاهات الحديثة. يوافق الجميع على هذه الحقيقة، وتكرّس الحكومة جهودًا كبيرة لتحقيق هذا الهدف. بما أنّ السياحة تغطّي البلاد، ويجب أن تترافق مع الكثير من الدعاية، فهي تخلق انطباعًا بأنّها تمثّل مواردنا الرئيسية. هذا بعيد عن الحقيقة، ويخفي بشكل خطير الأصول الحقيقية لاقتصادنا، وهي الزراعة والصناعة. السياحة غير آمنة ولطالما كانت كذلك، وهي لم تشكّل إلى الآن مصدرًا دائمًا وهامًّا للدخل في هذه البلاد. بالإضافة إلى ذلك، من خلال تركيز جميع الجهود في المجالات الزراعية والصناعية، يبرز الخطر الفعلي الناجم عن تحويل قسم كبير من السكان إلى فئة من المستخدمين، مع خفض المعايير العامّة، وتقليل الناتج الاقتصادي.

أُجرِيت مقارنة بين عائدات السائحين وبعض السلع المنتجة. مع مجيء نحو ٣ آلاف أجنبي لزيارة لبنان خلال الصيف الماضي، قُدِّرت التدفّقات الوافدة إلى البلاد بنحو ٤ ملايين ليرة لبنانية. درّت سلعتان صناعيتان، غزل القطن والمدابغ، نحو ١٥ مليون ليرة. وأنتجت صناعة ثانوية، أعواد الثقاب، نحو ٢,٥ مليون ليرة في العامين ١٩٤٤ و١٩٤٥. في الزراعة، درّ تصدير الفاكهة المزروعة في المرتفعات بمفرده نحو ٤ ملايين ليرة.

لا شكّ أنّ مستقبل اقتصادنا يعتمد على الرجال في الحقول والمصانع. السياحة ليست موردًا رئيسيًّا، أقلّه ليست موردًا دائمًا.

- **الترانزيت**: تعرّضت أهمّية هذا العنصر للتضخيم بشكل غير ملائم. صحيح أنّ لبنان هو أرض عبور، وقد استُخدِم على هذا النحو. لكن لا يوجد هنا أيضًا أي أثر لدخل أساسي، وهذا ما تُثبته الإحصاءات. أسوةً بالمداخيل غير المنظورة الأخرى، تُعدّ مداخيل الترانزيت إشكاليّة، ولا تسمح بتوجيه كلّ جهودنا نحوها حصريًّا، فقط لأنّها النشاط الأسهل.

يجب أن أعطي مثالاً عن بلدان لم تعتمد كثيرًا على موقعها كأراضٍ للترانزيت. بلجيكا هي المثال. وهي مثلنا بلد صغير وممرّ لنصف تجارة ألمانيا الغربيّة ولوكسمبورغ وشمال فرنسا. لكن بدلاً من الاعتماد على هذه الموارد الهامّة، طوّرت بلجيكا مواردها الصناعية والزراعية إلى حدّ لم يحقّقه سوى عدد قليل من البلدان في العالم، ونتج من ذلك ارتفاع في مستويات المعيشة. تُظهر لكم الكتب الدراسيّة مدى ضآلة مداخيل الترانزيت في بلجيكا بالمقارنة مع إنتاجها الصناعي والزراعي عالي التخصّص.

- **التسهيلات**: في سياق تعداد المصادر الإضافيّة للدخل، لا ينبغي إغفال التسهيلات المقدمة للمؤسسات الأجنبية التي نوقشت كثيرًا، مثل تأجير المطارات، ومناطق التجارة الحرّة، ومصافي خطوط الأنابيب. إذا لم نقدّر القيمة الحقيقية لمثل هذه المشاريع، وإذا حكمنا عليها بالاستناد إلى حجمها فقط، فسوف نصاب بخيبات أمل مريرة.

وطرابلس دليل حيّ على خيبات الأمل تلك. منذ العام ١٩٢٠، عاشت ثاني أكبر مدينة في لبنان، والتي كانت ذات يوم ميناءً تجاريًّا مزدهرًا، على أمل الحصول على نفط العراق. بعد أن عانت من ركود اقتصادي حادّ بسبب التعريفات التمييزيّة للسكك الحديدية وأسباب أخرى، رأت طرابلس أنّ حلم النفط يتحقّق، ويحمل معه آفاقًا لوظائف كثيرة وأرباحًا هائلة. أُنشِئ خطّ الأنابيب وبُنِيت مصفاة صغيرة بالقرب من مصب الأنبوب. حاليًّا، يتدفّق مليونا طن من النفط سنويًّا عبر طرابلس، لكن ما الذي تمثّله هذه البنى الضخمة في اقتصاد المدينة؟ ربّما يعرف قليلون أنّ معمل غزل ونسج القطن الوحيد في طرابلس يوظّف أربعة أضعاف العمالة التي توظّفها محطّة ومصفاة نفط العراق معًا. بالطبع، ليس خطأ الشركة الأجنبية أنّها لا تستخدم عمالة أكثر ممّا تتطلّبه مصانعها الحديثة، وليس خطأ الشعب اللبناني، بل مثال عن الأوهام التي يتغذّى عليها الناس، بدلاً من تكريس اهتمامهم للموارد الملموسة.

نعم، قد تكون التسهيلات جيّدة عندما تأتي على شكل شركات منتجة أو مصانع تجميع، وتوظّف عددًا من المواطنين في كلّ المراتب بما يضاهي حجم المؤسسة، وأيضًا عندما تمهّد الأرضيّة للتعليم الصناعي والإداري لعمّالنا، ولا شيء غير ذلك.

لقد سمعت العديد من التعليقات حول التجارة والترانزيت والسياحة من كلّ فئات السكان، وتركت لديّ انطباعًا بأنّ الرأي العام لا يعلم شيئًا عن هذه المواضيع. لذلك حاولت تبديد بعض الأوهام التي ابتُلينا بها نتيجة

الجهل بالحقائق، خصوصًا أنّ المبالغة في تقدير الموارد المساعدة أو شبه الدائمة أو المتخيلة تستدعي تحويل الجهود الوطنيّة عن تنظيم الموارد الرئيسية والأساسية.

ما هي احتياجاتنا الفوريّة؟

لقد حاولت إظهار هشاشة وضعنا الاقتصادي وأظنّ أنني قلت الحقيقة. قد لا يوافق آخرون. قد يقول المموّلون والاقتصاديون الجدد الذين ينظرون من زاويتهم الخاصّة إنّه لا يوجد سبب للقلق. آمل أن يكونوا على حقّ، لكنّني ما زلت أعتقد أنّ التعافي والتقدّم ليسا في متناولهم: إنّهما في أيدي المزارع العصري والمهندس والباحث.

إذا كنتم متفقين معي، فما الذي يجب فعله؟ قال مراقب أجنبي مرّة إنّ ما يميّز أهالي هذه البلاد هو عدم عجزهم أمام الأمور المجرّدة. إذا واجهنا هذا الصيت وأثبتناه بالحقائق، يمكننا إنقاذ أنفسنا. تدفع المشاكل المصيريّة الأمم إلى تحقيق إنجازات عظيمة. مشكلتنا مصيريّة، وأي إجراءات يتّخذها لبنان في هذه الوقت لإنقاذ اقتصاده من الانهيار سوف تقابل بالتقدير والإعجاب في كلّ مكان. لقد حذّرنا ممثّلو القوى الأجنبية مرارًا من أنّ التجارة ليست عملًا خيريًّا، وأيّدوا دائمًا استيرادنا للآلات والمعدّات الإنتاجيّة بدلاً من الكماليّات والسلع غير الضرورية، على الرغم من أنّ النتيجة هي نفسها بالنسبة لحجم تصديرهم.

ما هي إذن أكثر قضايانا إلحاحًا وخطورة؟ أولاً وقبل كلّ شيء الزراعة.

إذا كنا نستهلك الكثير من الخبز، فذلك لأنّ غالبية السكّان يفتقرون إلى السلع الغذائية الأخرى التي يمكنهم إنتاجها بسهولة أكبر من القمح

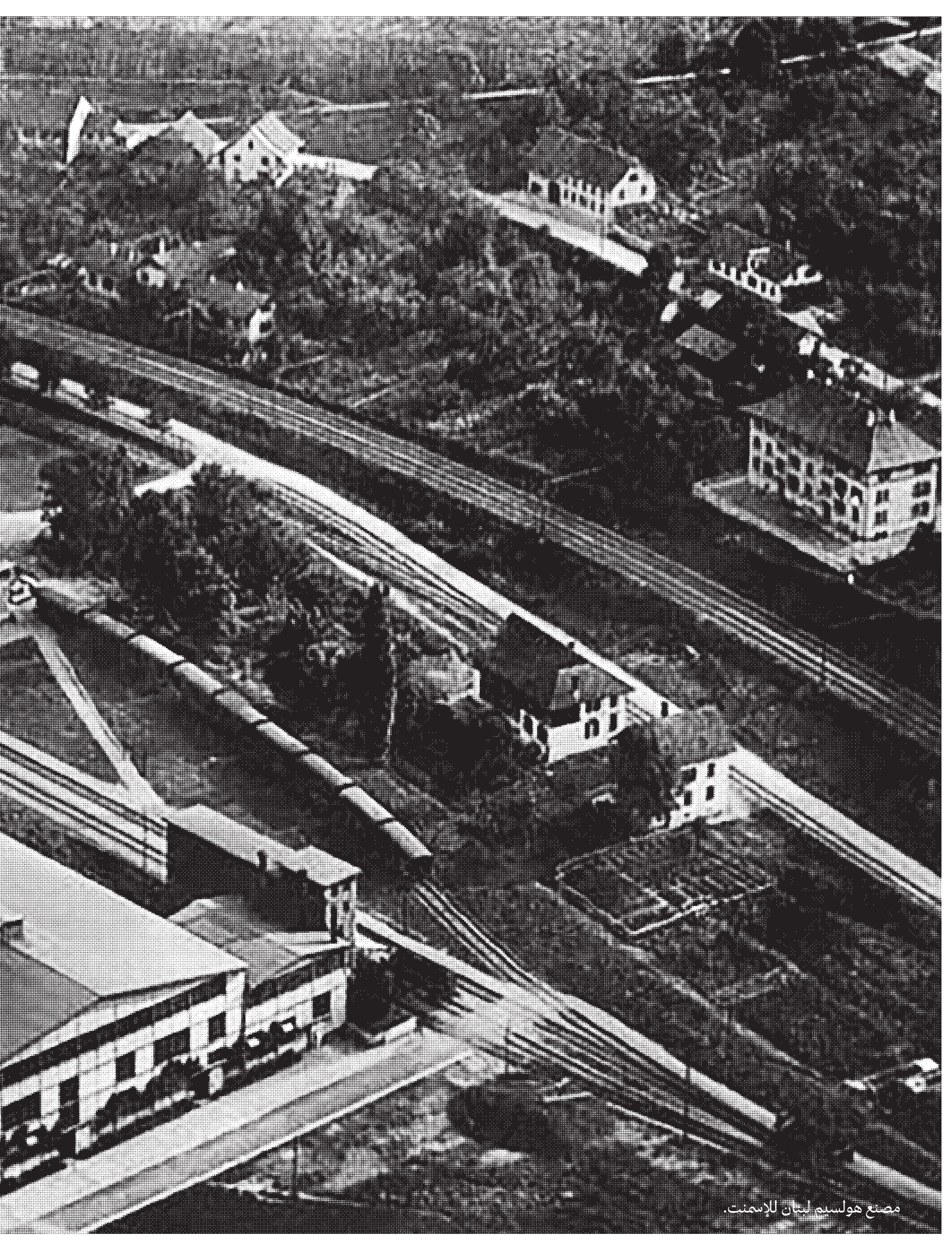
ماذا يجب أن نزرع، وكيف وأين؟ الجواب هو زراعة المزيد من القمح وأفضله، والذرة والحبوب الأساسية، في عكار والبقاع وجنوب لبنان، وفي كلّ بقعة من الأراضي المتاحة، وبطرق محسّنة وعبر استخدام الكثير من الأسمدة. يجب الحصول على الأسمدة من أي مكان وبأي وسيلة، ومساعدة المزارعين على إيقاف العملية الانتحارية المتمثّلة في حرق السماد الطبيعي. ففي حين تُعدّ زيادة خصوبة التربة عبر إضافة المواد الكيميائية أمرًا ضروريًّا، فإنّها تحرمها من مصدرها الوحيد المتبقي من الغذاء. إنهم يحضّرون لمجاعتهم ومجاعة الأمّة من خلال استنزاف الأرض.

أيضًا، يجب تنظيم توزيع الوقود على المراكز الريفيّة الفقيرة حتى يتمكّنوا من إنقاذ السماد الطبيعي من الحرق. لقد أصبح الشرق الأدنى أرضًا نفطيّة، وسوف يؤدّي توزيع النفط على الفلّاحين إلى إنقاذ مصدر آخر للحياة، وهو الغابات، التي دمّرها الفلّاحون أيضًا من أجل الحصول على الفحم والوقود.

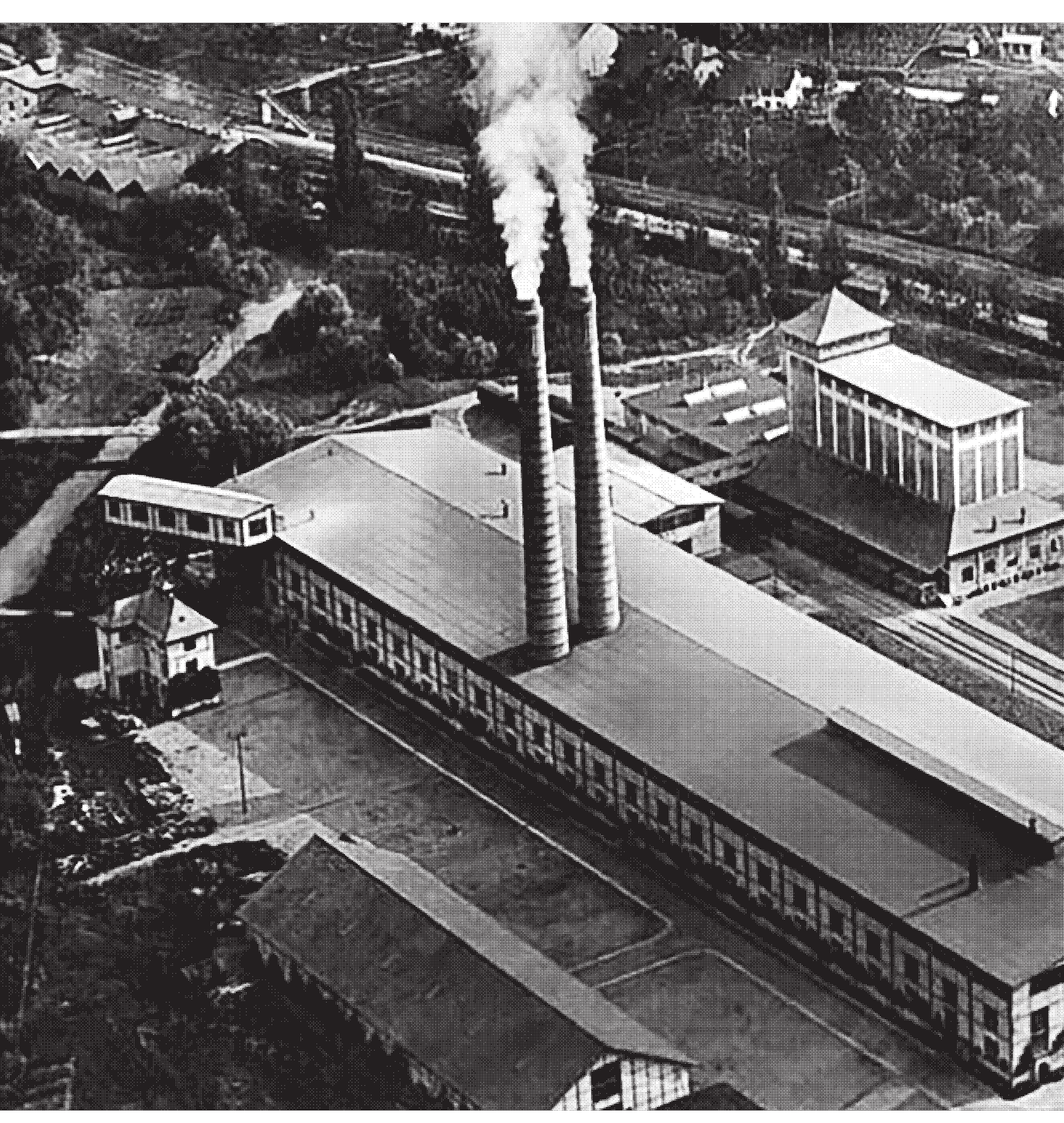
مع ذلك، قد لا يتمكّن لبنان، لبعض الوقت، حتى مع استخدام الوسائل الحديثة، من إنتاج كلّ القمح اللازم. فما هي الخطوة التالية في هذه الحالة؟ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، وإذا كنا نستهلك الكثير من الخبز، فذلك لأنّ غالبية السكّان يفتقرون إلى السلع الغذائية الأخرى التي يمكنهم إنتاجها بسهولة أكبر من القمح. واجهت دول أخرى المشكلة نفسها تقريبًا، وتعاملت معها بنجاح عبر استخدام الخيال والقرارات الجريئة. خلال الحرب، طوّرت بريطانيا زراعة البطاطا واستخدامها كطعام وحوّلتها الى ما يشبه العقيدة. قبل بريطانيا، طوّرت أوروبا الوسطى والشرقية البطاطا التي تنمو بمعدّل يزيد عن طن لكلّ فرد. أنتجت بولندا وألمانيا وروسيا مئات ملايين أطنان البطاطا. في الشرق الأدنى، لبنان هو أرض البطاطا بامتياز. لكن محصوله السنوي صغير للغاية، ويبلغ متوسّطه نحو ٣٠ ألف طن، مع ذلك، يعيش المزارعون في حالة قلق بشأن تصريفه. يمكن مضاعفة هذا المحصول بسهولة أو حتى زيادته إلى ثلاثة أضعاف. وسوف يؤدّي جزء منه إلى تحسين النظام الغذائي للسكان، الذين يجب تدريبهم وتثقيفهم لهذا الغرض، ويمكن أن تخصّص الكميات الباقية لإطعام الخنازير والماشية، التي سوف تتحوّل إلى اللحوم والأجبان والزبدة التي يزداد الطلب عليها. ويمكن مضاعفة محصول زيت الزيتون بأساليب وأسمدة أفضل، ومع زيادة صادرات الزيت سوف يتحسّن الميزان التجاري. كذلك يمكن زيادة إنتاج الحمضيّات ثلاث مرّات على الأقلّ، وإعادة تنظيم الصادرات، وتنويع الصناعات، وخلق فرص العمل. ويمكن تصنيع الأسمدة النيتروجينيّة في لبنان بفضل الطاقة الكهربائية الرخيصة.

يمكنني الحديث عن المشكلة الزراعية بشكل أوسع، لكن يجب أن أترك الأمر للخبراء الأكفّاء الذين لدينا الكثير منهم، صدّقوني. يمكنهم صنع المعجزات. إذا كانوا عاطلين من العمل الآن، فذلك لأنّهم عانوا من خيبات أمل متكرّرة، لكن الأمر متروك للدولة لتستدعيهم لتولّي وظيفة التعافي. عندما يحين الوقت يجب إعلان أسمائهم ونشر أعمالهم.

بالتوازي مع التطورات الزراعية، هناك التحسينات الريفيّة التي هي أساس المشروع. لقد أشرت للتو إلى أحد الجوانب العديدة للبؤس والجهل في الريف: تدمير الأسمدة الطبيعية. هناك جانب آخر يكمن بخسارة الفلاحين نحو ١٥٪ من محصول الذرة من خلال أسلوب الطحن البدائي بسبب



مصنع هولسيم لبنان للإسمنت.



عدم وجود مطاحن حديثة في مراكزهم. يمكن مضاعفة الأمثلة، وهي تؤثّر على الثروة العامّة للأمّة، ثروتكم وثروتي. التحسينات الريفية، المادية والاجتماعية، هي حاجة ملحّة. وضعت بعثتان اقتصاديتان أجنبيتان حديثتان أصابعهما على الجرح، وأوصتا باتخاذ إجراءات فوريّة كشرط أساسي للانتعاش الاقتصادي.

مشكلتنا العاجلة التالية هي الصناعة. لا حاجة لتأكيد أهمّية هذا القطاع الاقتصادي في توفير مستويات معيشة عالية للأمّة، ماديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا. لا حدود للإنجازات عندما توضع قوّة الشعب ومهاراته في خدمة التصنيع. لقد رأينا مؤخّرًا شعوبًا تنهض من الزراعة البدائيّة إلى النموّ الصناعي العالي. لدينا صناعات ناشئة تواجه الاختناق والموت. ولقد عدّدتها. من الضروري السماح لها بالاستمرار والتطوّر. يجب تحريرها من الضرائب التي تعيق نموّها وتزيد تكلفة إنتاجها، ويجب رفع الرسوم الجمركيّة عن المواد الخام والآلات والمعدّات اللازمة لها. لن يسمح لهم أي بديل آخر بالبقاء.

بدءًا من السلع الاستهلاكية، يجب أن يتطوّر الدافع إلى التصنيع ليصبح عقيدة وطنيّة، وأن يُعمَّم عبر المطبوعات والمحاضرات وجميع وسائل الدعاية المتاحة.

أحد العناصر المهمّة هو توصيل الكهرباء إلى كلّ منزل في لبنان، وإطلاق الصناعات الصغيرة: التطريز، والزخرفات، والألعاب والقطع المنزلية الصغيرة، من الخشب والحرير والعظام والزجاج وغيرها من المواد. لكن، هنا أيضًا يجب أن أترك الكلمة للمتخصّصين. إنّها إحدى وسائل وقف الهجرة من الريف إلى مدينة وتجديد حبّ العمل.

لكن من سوف يبدأ بذلك، وكيف؟ إذا فشلنا في الإجابة، أعتقد أننا لن نكون مخوّلين للعيش بكرامة. أنا واثق من أنّ الدولة، التي يتوقّع الجميع أن تقوم بدور نشط في تنظيم الاقتصاد، لن تفشل في ذلك. يجب أن نجد حلولاً جديدةً خاصّةً بنا لمواجهة الظروف الجديدة، لأنّه لم يعد بإمكاننا انتظار الآخرين لإيجاد حلول لنا.

سورية

لأسباب جغرافيّة وغيرها من الأسباب، تبدو سورية، التي نحن في اتحاد اقتصادي معها، أكثر اهتمامًا بالناحية الاقتصادية، وبأي حال لديها وعي صناعي أكثر منّا. سورية بصدد البدء في برنامج تصنيع واسع، ووضعت الخطط لإنشاء مصانع للمنسوجات، والمعلّبات الغذائيّة، والكيميائيات، والسكر، والورق والزجاج كبداية. ولم تضيّع أي وقت لجمع الأموال اللازمة لإنجاز هذا البرنامج.

تقوم سورية بهذه الخطوة على الرغم من أنّها، على عكسنا، مكتفية ذاتيًّا بسبب إنتاجها الجيّد، ولا تخاطر باستنزاف مواردها المالية وتعريض مستقبل سكانها للخطر.

ما تفعله سورية ليس منطقيًّا فحسب، بل ضروري للغاية. تُعتبر رغبة التصنيع عالميّة حاليًّا، لأنّها تعني القوّة والتقدّم والاستقرار.

أدرك العراق أيضًا أهمّية التصنيع، وأحرزت مصر تقدمًا كبيرًا في هذا المجال، لكن أود العودة إلى فلسطين مرّة أخرى. هناك تجربة تستحق دراسة دقيقة، لأنّها أُجرِيت في أرض مشابهة لأرضنا، وهي بمثابة خلاصة بحث اقتصادي مُتقن. على الرغم من أنّ الطبيعة لم تمنح فلسطين الموارد والظروف المناخية المميّزة التي يتمتّع بها لبنان، إلّا أنّ فلسطين أصبحت نموذجًا في الإنجازات الزراعية والصناعية. خلال الحرب، تمكّنت الصناعات الفلسطينية، بمساعدة مراكز الأبحاث والمختبرات المجهّزة جيّدًا، من تصنيع كلّ ما تمّ توفير المواد الخام له.

لا ينبغي أن يوقفنا شيء عن وضع خطط كبيرة وأكثر جرأة وتحويلها إلى حقائق.

يمكنني تلخيص هذه المداخلية بالعبارات الآتية:

إن الاقتصاد علم جديد بالنسبة لنا. وعلينا أن نسرع الخطى من أجل إتقانه بسرعة.

تركت العقود الثلاثة الماضية مواردنا في أزمة، لكن مسؤوليّتنا عن الوضع الحالي كبيرة.

لا يزال الكثير من الناس ينظرون إلى الازدهار من الزاوية الضيّقة للتجارة وحدها. يجب أن يدركوا أنّ الواردات العشوائية مضرّة. لا نمتلك القدرة لتحمّل المستوى السابق، ولا أحد مستعدٌّ لمساعدتنا على القيام بذلك.

تتضاءل مواردنا الزهيدة بالأساس، وتتناقص عوائد المهاجرين منطقيًّا، ويتبدّد إنفاق الجيش الأجنبي. يجب أن نعتمد على مواردنا الزراعية والصناعية، وأن نطوّرها إلى أقصى حدّ. إذا فعلنا ذلك، سوف نلقى المساعدة والتقدير من الخارج.

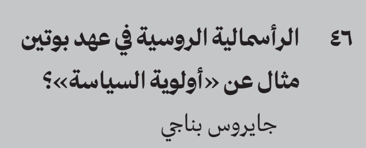
عمليًّا، الإصلاحات العاجلة مطلوبة في كلّ جانب من حياتنا، لكن الظروف الريفية هي الأكثر إلحاحًا.

لدينا أمثلة عن إنجازات واضحة حصلت على مقربة منا، في بلد أفقر من بلدنا في الموارد الطبيعيّة. ولدينا العديد من الأمثلة الأخرى في العالم.

لدى الدول العربية الأخرى قدرات هائلة على التنمية. إنهم بأمسّ الحاجة إلى إصلاحات مثلنا، ويجب أن نتعاون معهم.

هناك حاجة إلى الخيال والشجاعة والمغامرة لإنجاز هذه المهمّة. فهل نفتقر إليها؟





٤٦ الرأسمالية الروسية في عهد بوتين

مثال عن «أولوية السياسة»؟

جايروس بناجي



الرأسمالية الروسية في عهد بوتين مثال عن «أولوية السياسة»؟

جايروس بناجي

جامعي ومؤرخ ماركسي، الهند. يدرّس في «كلية الدراسات الآسيوية والأفريقية» بجامعة لندن. آخر أعماله «تاريخ موجز للرأسمالية التجارية» (٢٠٢٠)

الأوليغارشية

لا تضليل أكبر من إعادة التأكيد على رأسمالية الدولة، بمعناها الواسع، كتعريف للسنوات العشرين التي قضاها فلاديمير بوتين في السلطة. فهنا المكمن الذي يسمح بنقد النظرية. على سبيل المثال، يشير كريس ميلر في كتابه «بوتينوميكس» (٢٠١٨) إلى «الأوليغارشية التي تسيطر على الشركات المملوكة من الدولة في الطاقة وقطاعات رئيسية أخرى»، ما يدلّ على أن رأسمالية الدولة في حدّ ذاتها لا يمكن أن تكون وصفًا دقيقًا للطرق المعقّدة التي تمظهر فيها سلطة رأس المال الخاص في عهد بوتين.

لنأخذ الحالة الأبرز: يُنظَر إلى الشركات الحكومية التي أنشأها بوتين على أنها مؤسّسات فاسدة وسيّئة الإدارة، لا سيّما أنّ «المقرّبين منه يديرون أكبر الشركات الحكومية وهم مسؤولون أمامه فقط». يُعدّ كلّ من إيغور سيشين من شركة «روزنفت»، وفلاديمير ياكونين من شركة السكك الحديدية الروسية، مثالين معبّرَين عن الرؤساء التنفيذيين في القطاع العام الذين يتعاملون مع الشركات المملوكة من الدولة كما لو أنّها ملكٌ لهم. تبرز أيضًا دائرة لرجال أعمال مؤلّفة من أصدقاء بوتين الشخصيين في مرحلة طفولته وشبابه في سانت بطرسبرغ، والذين «أصبحوا مليارديرات بحصولهم على صفقات تفضيليّة مع الحكومة الروسية، لا سيّما عقود الشراء الضخمة المُبرمة من دون مناقصات مع شركة «غازبروم»، وعبر شراء أصولها بثمن بخس». هنا يبرز أيضًا الأخوان أركادي وبوريس روتنبرغ اللذان بنيا خطوط أنابيب الغاز لشركة «غازبروم»، وهما صديقان مقرّبان من بوتين ومن زملائه في رياضة الجودو وهما عضوان في «دائرته المقرّبة»، فضلاً عن جينادي تيمشينكو الذي تقدّر ثروته الصافية بنحو ٢٢ مليار دولار، ما يجعله سادس أغنى ملياردير روسي على قائمة مجلة «فوربس» لعام ٢٠٢١.

حقّقت شركة تابعة لروتنبرغ مليارات الدولارات من خلال العقود التي أبرمتها مع «غازبروم» ولم تخضع لأي مناقصة تنافسية، ويُقال إن هذه الأخيرة تُفرِط في الاستثمار في بناء خطوط أنابيب غير «مُجدِية تجاريًّا». أيضًا، أضيفت دورة الألعاب الأولمبية الشتوية في سوتشي إلى لائحة المشاريع التي مُنحت لأعضاء حاشية بوتين بعد أن وثّقت مؤسّسة نافالني [لمكافحة الفساد (أف بي كاي)] العديد من حالات الفساد المُتعلقة بمشاريع البناء، فضلاً عن فوز أركادي روتنبرغ في العام ٢٠١٥ بعقد إنشاء جسر «كيرتش» الضخم الذي يربط شبه جزيرة القرم بروسيا.

تواطؤ الغرب

على الطرف الآخر من التدفّقات المالية التي تنطلق من الإدارة الفاسدة في المؤسّسات الحكومية والخاصة، يوجد المصرفيون وسلطات الملاذات الخارجية في الغرب الذين يتواطؤون في غسل الأموال لصالح بوتين وأقرب أصدقائه. إن الحجم الهائل لرأس المال الروسي المهرَّب، والمقدّر بأكثر من تريليون دولار، يجعل من «حكم السرّاق» (الكليبتوقراطية) بُعدًا أساسيًّا للرأسمالية الروسية. وكما هو الحال في دول مثل الهند، من المستحيل دراسة الطرق التي تُنظَّم بها الشركات الكبرى، وتلك التي تعمل بموجبها، من دون اعتبار هذا البعد بعدًا محوريًّا في طبيعة هذه الأنظمة الاقتصادية. بالتعريف، وبطبيعة الحال، يقلّل رأس المال المهرَّب من كتلة فائض القيمة المتاحة للتراكم محلّيًّا، فيغذّي تاليًا الركود الاقتصادي. وإن ملاحقة الحسابات الخارجية للأوليغارشية الروسية تعني فتح ملفّات كاملة عن تهريب رؤوس الأموال وتداولها، وهو ما يورّط البلدان ذات معدّلات هروب رأس المال المُرتفعة كما يورّط الأنظمة المصرفية في الغرب. لذلك لن تكون هذه الحسابات محور الهجوم المُضاد الذي قد يفكّر فيه الرئيس الأميركي جو بايدن، أو غيره، عبر استهدافها بالعقوبات. يمتلك بوتين نفسه أصولاً بعشرات مليارات الدولارات في الخارج، ولقد انزعج من نشر «وثائق بنما». يقدّر الاقتصادي السويدي أندرس أسلوند بأنّ بوتين حوّل ما بين ١٠٠ و١٦٠ مليار دولار إلى حسابات خارجية منذ العام ٢٠٠٦، وهو ما يقلّ عن تقديرات بيل براودر،

* نشر النص لأول مرة في نيسان/أبريل ٢٠٢٢



مصفاة نفط تديرها «روزنفت» في نوفوكويبيشيفسك، روسيا.



رجل الأعمال الأميركي الذي ينشط في كشف الأوليغارش الروس وفضائح عهد بوتين، والذي يشير إلى تحويله ٢٠٠ مليار دولار.

صفقة بوتين مع الأوليغارشية

طالما أن أوليغارشيي بوتين حقّقوا ثرواتهم من الدولة، فإن ذلك يشير إلى وجود تكافل بين قطاعين رئيسيين من رأس المال الروسي هما الأوليغارشية الجديدة من جهة، والشركات الحكومية المختلفة التي أنشأها بوتين في مجالات الطاقة والنقل والمصارف وإنتاج الأسلحة من جهة أخرى. لكنّه تكافل بعيد جدًّا من نموذج التنافس بين رأس المال الحكومي والخاص الذي سيطر على التوسّع الصناعي في الهند خلال الخمسينيات. تجادِل كارين دويشا في كتابها «كليبتوقراطية بوتين» بأن الرئيس الروسي بوصوله إلى السلطة أراد أن يُفهِم الأوليغارشية أنهم سيحصلون على ريوع من هذه الشركات (خصوصًا شركات الصناعات الاستخراجية التي تتصدّر مراتب قيادية في الاقتصاد) كمكافأة على موالاتهم للدولة وخدمتها. بالنسبة إلى الأوليغارشية الموالية لبوتين لن تكون هناك قيود على الأرباح التي يمكن تحقيقها. وهذا ما يجسّد الصفقة ويشرح سبب تكوين هذه الثروات الهائلة واختلاسها في فترة زمنية قصيرة. أمّا ثمن هذا الولاء فقد تجسّد بابتعاد الأوليغارشية عن المعارضة، وهو ما يستحضر صورة تروتسكي عن الطابع الميت للّيبرالية الروسية والطبيعة البائدة للبرجوازية الروسية.

بين الاقتصاد والسياسة

يُعبّر عن الصراع بين الاقتصاد والسياسة، الذي يقع في قلب الاقتصاد الروسي، على أنه صدام بين المنطق التكاملي لرأس المال و«أولوية السياسة» المُتجسّدة في دولة بوتين. ويُمثّل عليه في السعي إلى تدمير سيطرة ميخائيل خودوركوفسكي على شركة «يوكوس» واستيعاب أصولها المجدية اقتصاديًّا ضمن شركة «روزنفت» العملاقة المملوكة من الدولة، والتي كانت، مثل «غازبروم»، مجرّد بقرة نقدية حلوب لطموحات بوتين الجيوسياسية.

كانت «يوكوس» أكبر شركة نفطية خاصّة في روسيا وأكثرها توحشًّا، وكان مالكها مدافعًا شرسًا عن الرأسمالية الحديثة المتكاملة عالميًّا، ويُنظر إليها في الغرب على أنها نموذج يُحتذى به في حوكمة الشركات. تقول الصحافية كاثرين بيلتون، مؤلفة كتاب «رجالات بوتين»: «من بين كلّ أوليغارشيي موسكو، كان ميخائيل خودوركوفسكي أكثر من سعوا إلى دمج شركته بالغرب، وأكثرهم محاباةً للمستثمرين والقادة الغربيين قصد الحصول على الدعم الغربي لأعماله. كان يقود مسيرة استيعاب قواعد الشفافية وأساليب حوكمة الشركات الغربية في شركته، بعد سنوات من لعبه دور الولد الشقي في مشهد الأعمال الدارويني الروسي.

أمّا الصراع الذي اندلع حين حاربت «مجموعة سيلوفيكي» [النخبة الأمنية المحيطة ببوتين والتي خدم العديد من أعضائها في جهاز الاستخبارات السوفيتية «كي جي بي»] لانتزاع سيطرة خودوركوفسكي على حقول نفط «يوكوس» في غرب سيبيريا، فقد كان صراعًا على الرؤى المتعلقة بمستقبل روسيا، وصراعًا من أجل الإمبراطورية في الوقت نفسه، يهدف إلى تحديد شكل النهوض الإمبريالي لروسيا وإظهار جهود بوتين في استعادة دور بلاده كقوّة مستقلّة ضدّ الغرب. لكن الصراع كان أيضًا صدامًا شخصيًّا للغاية. فمن الواضح أن بوتين وخودوركوفسكي كان يكره واحدهما الآخر، ليس بالمعنى الشخصي، إنّما لما يمثّله كلّ منهما للآخر. كان خودوركوفسكي صريحًا إلى حدّ الغطرسة، وغالبًا ما يهاجم مسؤولي الدولة في وسائل الإعلام، ويندّد بالفساد علنًا، ولم يكن من السهل ضربه حتى عندما جاءت المحاولة من بوتين. أفادت بيلتون بأنّ خودوركوفسكي «كان يضخّ عشرات الملايين من الدولارات لتمويل الشيوعيين»، وأنّ اثنين من كبار المديرين التنفيذيين في «يوكوس» «ترأّسا قائمة مرشّحي الحزب الشيوعي».

ومن الواضح أن تمويله أحزاب المعارضة في مجلس الدوما أثار حفيظة بوتين. يُذكر أنه دعي في أيار/ مايو ٢٠٠٣ هو و[رومان] أبراموفيتش إلى مأدبة عشاء خاصّة أمره بوتين خلالها بـ«التوقّف عن تمويل الشيوعيين». ويقال إن خودوركوفسكي رفض الأمر بشكل قاطع مشيرًا إلى أن «دعم الديموقراطية في روسيا لا يقلّ أهمية عن دعم الأعمال». وفي وقت لاحق، في تموز/ يوليو من ذاك العام، أخبر بوتين رئيس الوزراء ميخائيل كاسيانوف أن «خودورسكوفسكي تجاوز الحدود بتمويل الشيوعيين من دون إذنه». في كتابه اللامع عن عجلة الثروة في صناعة النفط الروسية، قدّم ثاين غوستافسون وصفًا مسهبًا وواضحًا لقضايا الخلاف، التي تعارضت فيها مواقف بوتين والمدير التنفيذي لقطاع النفط، واشتبكا عليها علنًا، بما فيها خطّ الأنابيب الذي يصل إلى الصين وكانت شركة «يوكوس» تؤيّده بشدّة، في مواجهة فكرة بوتين عن بناء خطّ يمتدّ لآلاف الأميال ويصل إلى ساحل المحيط الهادئ، والتي سخر منها خودوركوفسكي علنًا. ثم كانت هناك خطّة لدمج «يوكوس» مع «شيفرون» الأميركية لإنشاء أكبر شركة نفط في العالم.

تكمن المشكلة الأوسع في وجود نسقين في التطوّر الرأسمالي. فمن جهة، ثمة التطور عبر خدمة الدولة لتراكم رأس المال- وهو النموذج المرتبط بالديموقراطيات الليبرالية التي تهيمن عليها مصالح كبريات الشركات - وثمة مراكمة رأس المال لخدمة الدولة، من جهة أخرى - وهو النسق الاستبدادي الحكومي غير النموذجي الذي يذكّر بما سمّاه تيم ماسون «أولوية السياسة»، ويمثّله السعوديون في عهد محمد بن سلمان بقدر ما تمثّله روسيا في عهد بوتين.



فيما نظر

أحلام وكوابيس الطبقات الوسطى العالمية ٢/١

غوران ثيربورن

أستاذ علم اجتماع سويدي، يدرّس في جامعة كمبردج، إنكلترا. له عدة مؤلفات عن البنية الطبقية للمجتمع ووظائف أجهزة الدولة والأيديولوجيا وبعد الماركسية. حائز على «جائزة لينين» للعام ٢٠١٩

يتلقى العالم رسائل متناقضة حول تركيبه الطبقي، فهو، حسب رواية مرجعية، قد بلغ «نقطة الفصل الكونية»، ذلك أنّ «نصف سكان المعمورة هم من أبناء الطبقات الوسطى أو الثرية». والرواية مبنيّة على بيانات جمعها هومي خاراس، من كبار اقتصاديي البنك الدولي سابقًا، والذي يعمل حاليًا في مؤسسة «بروكينغز». والأكثر إثارةً أنّ مجلة «إيكونومست» قد حيّت «الصعود اللاهوادة فيه» لـ«برجوازية نامية» واحتفلت بمجيء عالم من الطبقات الوسطى. غير أنّ المنهجية الأكاديمية الجادّة تؤكد العكس أيضًا: فبحسب بيتر تيمين، البروفسور الممتاز للاقتصاد في جامعة «أم آي تي»، ينبغي أن ينشغل بالنا بصدد «اختفاء الطبقة الوسطى»[١]. ويمكن المغفرة للقرّاء لشعورهم بالذهول، فما الذي يجري في عالم الاقتصاد وفي السوسيولوجيا الاقتصادية للعالم الحقيقي؟ ستتفحّص هذه المساهمةُ التعريفات المتنوعة لـ«الطبقة الوسطى» الواقعية وللمسارات المتباينة التي حلّلها اقتصاديو التنمية وعلماء الاجتماع والصحافيون الماليون عبر القطاعات المختلفة للاقتصاد العالمي. ثم ننتقل إلى رسم مستقبل للطبقات الوسطى في العالم يختلف بعض الشيء عن النقيضين المستشَهد بهما أعلاه. ولكن يتطلّب الأمر أولاً معالجة بعض الاعتبارات التاريخية والمفهومية، ذلك أنّ مفهوم «الطبقة الوسطى» مثار نقاش منذ زمن طويل.

دخل مصطلح «الطبقة الوسطى» اللغة الإنكليزية منذ قرنين من الزمن - «ما بين ١٧٩٠ و١٨٣٠ تقريبًا» - حسب إريك هوبزباوم، فيما المجتمع الصناعي الصاعد يتجاوز التراتب «العسكري» للمَلَكية والأرستقراطية[٢]. وقد شهد القرن التاسع عشر نقاشًا حاميًا حول الوجهة التي يتّجه إليها ذاك المجتمع الجديد وحول موقع الطبقة الوسطى داخله. كانت المحاجّة الليبرالية تقول إنه يجب أن تقع مهمة الحكم على عاتق الطبقة الوسطى، وإنّ ذلك سوف يتحقق حكمًا، لأنها «الجزء الأوفر حكمةً والأرقى فضيلةً في الجماعة» كما قال جيمس ميل[٣]. ولكن هل تحقق ذلك؟ يقول [ألكسيس دو] توكفيل، في نص مكتوب العام ١٨٥٥، إنّ حكم الطبقة الوسطى قد تحقق ليس فقط في الولايات المتحدة الأميركية وإنما في فرنسا أيضًا، حيث مثّلت ثورة تموز/ يوليو ١٨٣٠ انتصارها «الحاسم» و«الكامل»[٤]. وهل مجتمع الطبقة الوسطى الصاعدة هذا يؤدي إلى نظام سياسي جديد ومستقر؟ دار التساؤل على نحو متزايد في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. نشأت مذاهب فكرية جديدة، حَشدت الأفكار، وأوّلها وأبرزها الاشتراكية، التي نظّرت أنّ «مجتمع الطبقة الوسطى» إنما هو الرأسمالية، المحكومة بأن يُقضى عليها مع توسّع صفوف الطبقة العاملة الصناعية.

الطبقة الوسطى والبرجوازية

الأكثر إثارةً للاهتمام هو أنّ نقاشات القرن التاسع عشر كان لها التنوّع المفهومي الغائب كليًا عن المعالجات الحالية لـ«الطبقة الوسطى». وقد نتج ذلك من ازدهار عدد من اللغات القومية، لكلّ منها تاريخه المميز للتكوّن الطبقي والصراع الطبقي. ففي أوروبا الغربية كانت ثلاثة مفاهيم رئيسة تدور مدار ظاهرة اجتماعية مشابهة، كلٌّ منها ترى إليه من زاوية مختلفة تمامًا عن الآخرَين: في مقابل Middle class البريطاني كان تعبير Burgertum الألماني و«البرجوازية» Bourgeoisie الفرنسي[٥]. ويعود أصل الأخيرين إلى القانون المديني القراوسطي، للدلالة على فئة من سكّان المدن تتمتّع بحقوق مدنية وسياسية مميّزة. بعد الثورة الفرنسية، تطوّر مصطلح «برجوازية» ليصير مطابقًا إلى حدّ كبير لمصطلح «الطبقة الوسطى» البريطاني و les classes moyennes الفرنسي. لكنه اتخذ دلالتين متمايزتين. كانت الواحدة ذات دلالة تجريحية من الناحية الثقافية كما في عبارة [غوستاف] فلوبير «إن الحقد على البرجوازية هو بداية كل فضيلة»[٦].

* نشر النص لأول مرة في العام ٢٠٢٠

ابتداءً من سبعينيات القرن التاسع عشر، برز تمايز واضح بين البرجوازية والشريحة الاجتماعية «الوسطى» أو «الجديدة». باتت البرجوازية تشير إلى كبار مالكي رأس المال من مصرفيين وصناعيين يتربّعون على قمة الهرم المجتمعي - أي أنها تشير بعبارةٍ أخرى إلى الطبقة العليا[٧]. أما الطبقة الوسطى - Mittlestand الألمانية، أو Petite bourgeosie أو Couches moyennes البرجوازية الصغيرة أو الفئات المتوسطة، الفرنسية، فأمر آخر. في «البيان الشيوعي»، مدح ماركس وإنغلز أيّما مديح الدور التاريخي «الثوري» الذي لعبته البرجوازية، وقد ظهرت بما هي تجسيد لرأس المال والعدوّ اللدود للطبقة العاملة.

وثمّة فرق لافت آخر: العمل بما هو صفة وقيمة حاسمتان للطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر، وهذا ما ميّزها عن النبالة المتعيّشة على الريع. «العمل زينة البرجر/ ابن المدن»، كتب فريدريش شيللر في أغنية شهيرة. «بوركَ من وجد عمله/ ولا حاجة له لأن يسعى إلى أي نعمة أخرى»، يكمل طوماس كارلايل في «ماضٍ وحاضر»[٨] تُعرَّف الطبقة الوسطى، غالبًا في النقاشات المعاصرة، بناءً على معيار الاستهلاك، والأحرى بناءً على طاقتها على الاستهلاك، وتقاس هذه الطاقة بالدولارات (مع تعديلها حسب معايير القدرة الشرائية الدولية)؛ وأحيانًا يجري تمييز الطبقة الوسطى عن طريق موقعها الوسيط في الهرم الوطني لتوزيع الدخل - ولكنها لا تعرّف أبدًا بعلاقاتها بالعمل. وهذا نافر بنوع خاص ما دام الاستخدام الأميركي المعاصر للمفهوم يقدّم المصطلح بما هو كنية للطبقة العاملة.

ما الذي يترتب على هذا التحوير في خطاب الطبقة الوسطى من العمل إلى الاستهلاك؟ ها هي مجلة «إيكونومست» تعطينا الدليل وهي تحيّي بحماسة ارتقاء «مليارَي برجوازي» جديد[٩]. وهي تحية انتصار وقوة، مثلها مثل دخول «الرأسمالية» إلى قاموس كبار المدراء التنفيذيين. فما دامت الاشتراكية لم تعد خطرًا، يمكن ركن مصطلحات مثل «رأسمالية» و«برجوازية» في الهامش والاستعاضة عنهما بـ«اقتصاد السوق» و«البزنس/ الأعمال». وكما سوف يتبيّن لنا، يشكّل التغيّر في الخطاب نقلةً هامةً في الهيمنة الاجتماعية. ولكن علينا قبل ذلك أن نتفحّص الظروف التي أدّت إلى نشوء التفكير الجديد عن الطبقة الوسطى في القرن الواحد والعشرين.

على عكس ما توقع مِيلّ وتوكفيل، لم يَفتتح القرن التاسع عشر نشوء عالم الطبقة الوسطى، ذلك أنّ القرن العشرين كان يُعرَّف قبل أي شيء آخر بأنه عصر الطبقة العاملة. وعلى الرغم من أنّ الديموقراطية الاشتراكية والشيوعية وُلدتا في أوروبا، إلا أنّ اشتراكية الطبقة العاملة تحوّلت إلى نموذج عالمي، نشاهده في الثورتين الصينية والفيتنامية، وفي ارتداداتهما عبر آسيا الشرقية والجنوبية الشرقية؛ وفي ثورات المكسيك وكوبا الكاستروية، كما في الحركة التقدمية الواسعة في أميركا اللاتينية - وفي الأرجنتين خلال عهد پيرون، والبرازيل في عهد ڤارغاس، من دون أن ننسى «حزب العمّال» البرازيلي الأحدث عهدًا - وفي النضالات المعادية للاستعمار، من «حزب المؤتمر» بقيادة نهرو إلى «المؤتمر الوطني الأفريقي» في جنوب أفريقيا مرورًا بالاشتراكية العربية. كانت الطبقة العاملة القوة الرئيسة في إنجاز الاقتراع العام ودولة الرعاية إلى كونها الحليف الرئيس للحركات النسوية والمعادية للاستعمار- مع أنها نادرًا ما كانت حليفًا نموذجيًّا. وكانت الطبقات الوسطى في حالة سبات خلال فترات الثورة والإصلاح تلك في القرن العشرين، لكنها اكتسبت أهمية مع صعود الفاشية والسلطات الاستبدادية. على أنّ القوة الدافعة للإصلاح بقيادة الطبقة العاملة بلغت ذروتها في ثمانينيات القرن الماضي قبل أن تتقهقر سريعًا.

وكان لنهاية قرن الطبقة العاملة أساس اقتصادي تجلّى في التراجع عن التصنيع والأمْوَلة المتسارعين في بلدان المركز الرأسمالي؛ وثمة عامل سوسيولوجي إضافي، وإن يكن مواربًا، هو التفكك الاجتماعي الذي نجم عن ثورات ١٩٦٨ الثقافية. على أنّ هذه كلها لم تؤذن بسرعة بفجر وليد للطبقة الوسطى. لمّا كانت النيوليبرالية الغربية حساسة ضد أي نوع من أنواع الخطاب الطبقي، آثر المعادون للشيوعية في أوروبا الشرقية أن يسمّوا أنفسهم «مجتمع مدني» مع أنهم كانوا ينسبون لأنفسهم خصائص الطبقة الوسطى عندما يكونون في السلط[١٠]. ومع أنّ فكرة الطبقة الوسطى وُلدت في الغرب، كما يلاحظ هوبزباوم، إلا أنها بُعثت حيّة في الشرق والجنوب[١١] خلال ثمانينيات القرن الماضي، فقد «اكتِشِفتْ» الطبقة الوسطى في شرق آسيا المحافظة بما هي نتاج النموّ الاقتصادي المتسارع في «النمور الأربعة الصغار»: تايوان وكوريا الجنوبية وسنغافورة وهونغ كونغ[١٢]. كانت الطبقات الوسطى تبرز بما هي قوة سياسية لا يستهان بها في المنطقة، تلعب أدوارًا مركزيةً في الحركات الشعبية العريضة التي قضت على الدكتاتوريات العسكرية في سيئول وتايپاي.

في الصين، مضى المصطلح في مسيرة عسيرة قبل أن يلقى القبول. في الثمانينيات، كان الاهتمام الأكاديمي بالطبقة الوسطى مستوحًى إلى حد ما من الماركسية الأميركية الجديدة التي مثّلها أريك أولين رايت وزملاؤه. على أنّ العقيدة الرسمية ما لبثت أن نظّمت هجومها المضاد بعد أحداث ساحة

تيانانمين، العام ١٩٨٩. وكما يقول عالِم اجتماع مشهور باتّباعه الخط الرسمي: لم يكن بإمكان الصين الاشتراكية أن تسمح لـ«الطبقة الوسطى» بالظهور، لأنّ ذلك سـ«يقلب نظامنا الاشتراكي رأسًا على عقب». فبينما نظرية الطبقة الوسطى في الغرب «قد وُجدت للتغطية على قضية الصراع الطبقي»، إلا أنها في الدول الاشتراكية «تَقسم صفوف البروليتاريا وتفصل رجال الأعمال والمثقفين عن البروليتاريا وتشكّل قوة تخريبية». على أنه، بعد فترة من الصمت، أعيد فتح النقاش عن الطبقة الوسطى. وفي العام ٢٠٠١ كانت المحاجّة التي تقول «إن الطبقة الوسطى هي، في جميع البلدان، أهم قوة للحفاظ على الاستقرار الاجتماعي» قد حققت انتصارًا حاسمًا. فهذه الطبقة حاجز بين الطبقات العليا والفقيرة، وهي حاملة الأيديولوجيات المعتدلة والمحافظة، وهي القاعدة لسوق استهلاكي عريض ومستقر[١٣]. وقد رأى العديد من الأكاديميين الصينيين في القرن الواحد والعشرين أنّ الطبقة الوسطى هي أيضًا مثال لنزعة المساواة، ومفتاح لبنية اجتماعية «لها شكل الزيتونة»[١٤]. أما التغيّر المفهومي الفييتنامي لمرحلة بعد الشيوعية فقد اختزله نائب رئيس الوزراء هوانغ ترونغ هاي، بقوله «إن أبناء الطبقة الوسطى الشباب سوف يشكلون القوة الدافعة في آسيا»، مشيرًا إلى «وصول مليار مستهلك إضافي من أبناء الطبقة الوسطى» [إلى الأسواق]. قبل ثلاثين عامًا، كان سلفه سوف يشير إلى الطبقة العاملة على أنها هي تلك القوة الدافعة[١٥].

لمّا كانت النيوليبرالية الغربية حساسة ضد الخطاب الطبقي، آثر المعادون للشيوعية في أوروبا الشرقية أن يسمّوا أنفسهم «مجتمع مدني»

أحلام جنوبية

كان للحلم بطبقة وسطى جديدة في الجنوب الكوني إطار آسيوي أولاً بأول. صاغته وروّجت له شخصيات في مدار البنك الدولي، مدعومة بهيئات استشارية لرجال أعمال ومديري مصارف استثمارية. وظهرت الطبقة الوسطى مطلع الألفية، خلال «العصر الذهبي»، عصر الرأسمالية المعولمة وتعهيد الأعمال لمصادر خارجية. وكما أشرت أعلاه، أعيدَ اكتشاف الطبقة الوسطى في الشرق خلال ثمانينيات القرن الماضي على أيدي علماء اجتماع مشغولين بتغيّر البنى المهنية والتشكيلات الطبقية ومهتمين بآثارها الاجتماعية والسياسية. بالمقارنة، كانت نزعة الانتصار الجديدة تكاد تنحصر بالاستهلاك. كانت «الطبقة الوسطى» تعني كل من يملك بعض المال لينفقه. ثم صار المعنى ينطبق بعد قليل على الذين تجاوزوا خط الفقر، حسب تعريف خطوط الفقر الوطنية الرسمية[١٦]. الفكرة التي تقول إن الطبقة الوسطى تبدأ فيما يتجاوز العشرين بالمائة الأفقر من السكان – ويكون هؤلاء من فئة مدقعي الفقر في البلدان الفقيرة – تلقّت الدعم عام ٢٠٠٠ في دراسة نافذة لوليام إيسترلي، وهو من أنصار فريدريش فون هايك المتعصبين يعمل في البنك الدولي. في دراسة «توافُق الطبقة الوسطى والتنمية الاقتصادية»، حاجج إيسترلي أنّ اللامساواة المتمثلة في حصة ثلاثة أخماس السكان الأدنى دخلاً – التي سمّاها «الطبقة الوسطى»، من دون أن يقدّم حججًا لدعم ذلك – تشكل عائقًا أمام التنمية[١٧]. لذا فإن توسّع الطبقة الوسطى بات موازيًا لتقلّص الفقر – وهو رابط مفهومي يربط مشاغل اقتصاديي التنمية عن خفض عدد الفقراء مع مصالح مستشاري رجال الأعمال الباحثين عن أسواق جديدة.

آسيا الصاعدة

بالتأكيد، كان مستشارو رجال الأعمال والمصرفيين أول من روّج لحلم الطبقة الوسطى. في العام ٢٠٠٧، توقع ماكنزي أنّ المستهلكين من أبناء الطبقة الوسطى سوف يزيد عددهم عن خمسين مليونًا إلى ٥٨٣ ملايين بحلول العام ٢٠٢٥. في العام التالي، توقع غولدمان ساشس تقلص اللامساواة على الصعيد الكوني بفضل «انفجار الطبقة الوسطى العالمية»[١٨] وأثنت «إيكونومست» على هذا التبجح بادعائها وجود «ملياري برجوازي إضافي».

ظهرت أول نظرة عددية شاملة للطبقة الوسطى «المنتفخة» في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩، بقلم الخبير الاقتصادي في البنك الدولي مارتن رافاليون الذي دافع عن تعريف لـ«الطبقة الوسطى» على أنها تضم الذين يعيش الواحد منهم على مبلغ يراوح بين دولارين و١٣ دولارًا في اليوم، وقد اختير الخط الأعلى على أنه يوازي تقريبًا خط الفقر الأميركي لعام ٢٠٠٥ بناءً على معدلات القدرة الشرائية – بعبارة أخرى، كانت «البرجوازية» الصاعدة تعادل المستوى الاقتصادي للفقراء الأميركيين. بناءً على تقديرات رافاليون، انتفخت الطبقة الوسطى الكونية بما يزيد على ٨٠٠ مليون نسمة بين ١٩٩٠ و٢٠٠٥.

عند إلقاء نظرة أدقّ، يتبيّن أنّ ٦٢٢ مليونًا من أبناء تلك الطبقة الوسطى كانوا في «شرق آسيا النامية»، أي أنهم في الصين. ولكن إذا كانت الطبقة الوسطى الصينية التي ينفق الفرد منها بين دولارين و١٣ دولارًا في اليوم قد «انفجرت» من ١٥ ٪ إلى ٦٢ ٪ من السكان، فإن التغيّرات المشهودة في مناطق أخرى من العالم كانت متواضعة بالمقارنة.

في جنوب آسيا، ارتفع عدد الذين ينفقون بين دولارين و١٣ دولارًا في اليوم من ١٧٪ إلى ٣٦٪ من عدد السكان؛ وفي أفريقيا، من ٢٣٪ إلى ٢٦٪ مع أنه في كل حالة من الحالات، كان «الانتفاخ» مركّزًا بالدرجة الأولى لدى ما يزيد قليلاً على الذين ينفقون دولارين في اليوم. في تلك الأثناء، كانت الطبقات الوسطى في أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى قد تراجعت من ٧٦ إلى ٧٣٪ من السكان[١٩].

لم ينتج من الافتتان بالطبقة الوسطى الآسيوية أي اتفاق على حجمها الفعلي، فالطبقة الوسطى في الصين الشعبية تتراوح بين ٤ و٣٣٪

إذا نظرنا من خلال عدسة ٢ - ١٣ دولارًا الضيقة، يبدو نموّ «الطبقة الوسطى» الآسيوية في تسعينيات القرن العشرين وفي القرن الحادي والعشرين مؤثّرًا بالتأكيد، ما استدعى طوفانًا من الكتابات الاحتفالية. وأبرز مساهمة في ذاك الاتجاه تقرير أصدره «بنك آسيا للتنمية» العام ٢٠١٠ بعنوان «صعود الطبقة الوسطى الآسيوي» وهو هيئة إقليمية مركزها مانيلا. صدر التقرير خلال ذروة الركود الذي سبّبه الانهيار المالي في بلدان الشمال الأطلسي العام ٢٠٠٨، وتنبأ البيان الصحافي الذي أصدره المصرف بأن «الطبقة الوسطى الآسيوية سريعة التوسع ويقدّر لها أن تضطلع بالدور التقليدي الذي لعبته الولايات المتحدة وأوروبا بما هي المستهلك الكوني الأول فتساعد على إعادة التوازن للاقتصاد الكوني». وادّعى التقرير أن المستهلكين الآسيويين سوف ينفقون ٤٣٪ من الاستهلاك العالمي بمجيء العام ٢٠٣٠[٢٠] ويمكن أن يُقرأ بين السطور أنّ الطبقة الوسطى الآسيوية قابلة لأن تنقذ العالم، أو أن تنقذ الاقتصاد الرأسمالي العالمي، على الأقل. فبناءً على تقرير «مصرف التنمية الآسيوي»، زاد عدد أفراد الطبقة الوسطى في «آسيا النامية» - أي باستثناء اليابان - من ٥٦٩ مليونًا إلى ١،٩ مليار بين ١٩٩٠ و٢٠٠٨، أو من ٢١٪ إلى ٥٦٪ من السكان. وكان تعريف الطبقة حينها بأنها الطبقة التي ينفق الفرد منها بين دولارين و٢٠ دولارًا في اليوم، وقد وضع الخط الأعلى بما يقارب خط الفقر في إيطاليا. أما الفقراء، أي الذين ينفق واحدهم أقل من دولارين في اليوم، فقد تقلّصوا بالتوازي من ٧٩٪ إلى ٤٣٪ من السكان. تركّز معظم ذاك التحوّل، ولكن ليس كله، في الصين، ذلك أنّ الطبقة الوسطى قد توسّعت من ٢٩٪ إلى ٣٨ ٪ من السكان بين ١٩٩٣ و٢٠٠٥. كانت هذه الأرقام مبنيّة على مسوح ولكنها لم تكن متينة تمامًا. فالحسابات المبنية على الأرصدة الوطنية تعطي صورة مختلفة نوعًا ما ولكنها لا تعدّل في الاتجاه اللافت، فقد تقلّصت نسبة الفقراء من ٦٩٪ إلى ١٧٪ على امتداد آسيا النامية وازدادت نسبة أفراد «الطبقة الوسطى» من ٣١٪ إلى ٨٢٪ من السكان[٢١].

على أنّ الافتتان بالطبقة الوسطى الآسيوية لم ينتج منه أي اتفاق على حجمها الفعلي. توصلت شركة تداول أسهم صينية منذ بضع سنوات إلى تقديرات أكاديمية عن الطبقة الوسطى في جمهورية الصين الشعبية تتراوح بين ٤٪ و٣٣٪ من السكان، وهو أقل بكثير من التقدير المتبجّح لـ«مصرف التنمية الآسيوي» الذي يتحدث عن ٨٩٪[٢٢]. أما «الطبقة الوسطى» الهندية، فقد تتضمن أي نسبة تتراوح بين ١٠ و٦٤ ٪ من السكان. وقد وَجدت دراسة أخيرة أنّ ٥٠٪ من السكان ينتمون إلى فئة الذين ينفقون بين اثنين وعشرة دولارات يوميًّا. وما يثير الاهتمام أنها تضع موعد «صعود» الطبقة الوسطى بعد عقد من الزمن من الموعد الذي يحدده «مصرف التنمية الآسيوي»، ليس في تسعينيات القرن الماضي وإنما في الفترة الممتدة بين ٢٠٠٤ و٢٠١٢. أما حصة الأسد من ذلك الصعود فقد نُسبت إلى السكان الذين انتقل الفرد فيهم من إنفاق دولارَين إلى ما بين دولارين وستة دولارات يوميًّا[٢٣]. والواقع أن النقاش الأكثر إثارةً في آسيا عن الطبقة الوسطى الجديدة هو الذي يجري في الهند، حيث يناقش جمهورٌ متفاوت من المثقفين لا حجمَ الطبقة الوسطى ونموّها وحسب، إنما أيضًا دلالتها الاجتماعية والسياسية، بالقياس إلى المشروع الوطني السياسي لـ«تغيير الهند». ترى ليلا فيرناندز أن الطبقة الوسطى تمثل «البناء السياسي لفئة اجتماعية تعمل بما هي داعية اللبرلة الاقتصادية». أما بالنسبة إلى ديبانكار غوبتا، في المقابل، فيبدو مصطلح «طبقة وسطى» على أنه مصطلح «هزيل» في الهند تحديدًا لأنه يفتقر إلى أي مشروع يرتبط به: والتعويض «ترمى علينا بيانات عن الاستهلاك»[٢٤].



أما السؤال الذي طرحه «مصرف التنمية الآسيوي» لعام ٢٠١٠ عن مدى قدرة المستهلكين الآسيويين من أبناء الطبقة الوسطى الجديدة على تعويض قصور النموّ في قدرة الطبقة الوسطى الأميركية على الإنفاق—فقد أثاره الخبير الاقتصادي هومي خاراس العامل في البنك الدولي ومؤسسة «بروكينغز». استخدم خاراس تعريفًا لاستهلاك الطبقة الوسطى أشمل عبورًا للقارات على أنه بين ١٠ و١٠٠ دولار في اليوم، إذ تخلّى فيه عن التوصيفات الطبقية المتعلقة بالديموقراطية وريادة الأعمال أو تلك التي «تسهم في تنمية رأس المال البشري»—أي أنه تخلّى عن كامل سلسلة المميزات التقليدية للطبقة الوسطى—ليؤكد بديلاً منها على «ما يجعل الطبقة الوسطى تركّز على الاستهلاك بنوع خاص». فتوقّع ارتقاء الطبقة الوسطى الكونية من ١،٨ مليار عام ٢٠٠٩ إلى ٣،٩ مليارات بحلول العام ٢٠٣٠ فيما الاقتصاد العالمي يبدأ بالتمحور حول آسيا، التي قُدّر أنها مسؤولة عن ٨٥٪ من الزيادة، مدفوعة بنوع خاص بالطبقات الوسطى الهندية (المقدّر لها أن تسبق الصين بحلول العام ٢٠٢٠) والصينية[٢٥]. وإن صعود السوق الاستهلاكي الآسيوي الضخم هو بالتأكيد جزء من تحوّر جارٍ في الاقتصاد الكوني. على أنّ «طبقة وسطى» و«فقر» ليسا دالّين بلا مرجعية يمكن تسخيرهما عشوائيًّا لخدمة أي غرض، فقد لفت جون ويست، الخبير الاقتصادي الذي يتخذ طوكيو مركزًا له، إلى التشوهات الناجمة عن النقل الواعي أو غير الواعي للدلالات الغربية التاريخية لما يشكّل موقع «الطبقة الوسطى» إلى الأمم الشرقية المعاصرة، ما يؤدي إلى ما يسمّيه «مجتمع الطبقة الوسطى الآسيوية خرافية»[٣٦].

[redacted]

الهوامش

١ Homi Kharas and Kristofer Hamel, *'A Global Tipping Point: Half the World is Now Middle Class or Wealthier'*, Brookings Future Development Blog, 27 September 2018; 'Burgeoning Bourgeoisie', Economist, 14 February 2009; Peter Temin, The Vanishing Middle Class, Cambridge ma, 2017.

٢ Eric Hobsbawm, 'Die Englische Middle Class, 1780–1830', in Jürgen Kocka, ed., *Bürgertum im 19. Jahrhundert*, vol. 1, Munich 1988, p. 79.

٣ James Mill, 'Essay on Government' [1829], quoted from Hobsbawm, 'Die Englische Middle Class', p. 81.
إن آراء ميل عن حكمة وفضيلة الطبقة الوسطى لا تزال تلقى صدى لدى اقتصاديي التنمية وعلماء السياسة في أيامنا هذه، فكأن تلك الطبقات لم تدعم الفاشية والدكتاتوريات العسكرية في تلك الأثناء.

٤ Alexis de Tocqueville, Souvenirs [1855], cited from Peter Gay, *Schnitzler's Century*, New York 2002, p. 14.
اتجه المؤرخون المتأخرون إلى الموافقة على أن السلطة والامتيازات التي تمتعت بها أرستقراطية الأرض استمرت في معظم أنحاء أوروبا إلى العام ١٩١٤. راجع:
Arno Meyer, *The Persistence of the Old Regime*, New York 1981.

٥ لمزيد من التفاصيل، راجع المشروع البحثي الهام الذي يديره
Jürgen Kocka, *Bürgertum im 19. Jahrhundert*, 3 vols, Munich 1988.

٦ Letter to George Sand, here quoted from Gay, *Schnitzler's Century*, p. 29.

٧ Adeline Daumard, *Les bourgeois et la bourgeoisie en France*, Paris 1987.

٨ 8 Gay, *Schnitzler's Century*, p. 192.

٩ 'Two Billion More Bourgeois', *Economist*, 14 February 2009.

١٠ Nikolai Tilkidjiev, ed., *The Middle Class as a Precondition of a Sustainable Society*, Sofia 1998.

١١ Cf. Marcus Gräser, "The Great Middle Class" in the Nineteenth-Century United States', in Christof Dejung, David Motadel and Jürgen Osterhammel, eds, *The Global Bourgeoisie*, Princeton 2019.

١٢ See Hsin-Huang Michael Hsiao, ed., *Discovery of the Middle Classes in East Asia*, Taipei 1993.

١٣ Li Chunling 'Changes in Theoretical Directions and Interests of Research on China's Middle Class', in Li, ed., *The Rising Middle Classes and China*, Beijing 2012, pp. 6–8.

١٤ Jean-Louis Rocca, 'Political Crossroad, Social Transformation and Academic Intervention: The Formation of the Middle Class in China', in Li, *The Rising Middle Classes and China*, p. 36. Cf. Li, 'Changes in Theoretical Directions', p. 8.

١٥ كان هاي يتكلم في «المنتدى الاقتصادي العالمي في شرق آسيا».

١٦ في العام ١٩٩٠، رسم البنك الدولي «خط فقر» عند مبلغ ٣٧٥$ سنويًّا بناءً على أسعار العام ١٩٨٥ الثابتة، وما لبث أن شاع تحت عنوان «دولار واحد في اليوم». يبدأ الفقر المدقع تحت ٢٧٥$ في السنة، وهو يعادل سقف الفقر الهندي الرسمي.
World Bank, *World Development Report 1990*, Oxford 1990, p. 27.

١٧ William Easterly, 'The Middle-Class Consensus and Economic Development', World Bank Working Paper no. 2346, May 2000.

١٨ Eric Beinhocker et al., 'Tracking the Growing of India's Middle Class', *McKinsey Quarterly*, no. 3, January 2007; Dominic Wilson and Raluca Dragusanu, 'The Expanding Middle: The Exploding World Middle Class and Falling Global Inequality', Goldman Sachs Global Economic Paper, no. 170, 2008.

١٩ Martin Ravallion, 'The Developing World's Bulging (but Vulnerable) "Middle Class"', World Bank Working Paper no. 4816, 2009, Table 3 and p. 17.

٢٠ Asian Development Bank, 'The Rise of Asia's Middle Class', in *Key Indicators for Asia and the Pacific 2010, Aug*ust 2010, part 1.

٢١ Asian Development Bank, *Key Indicators for Asia and the Pacific 2010*, Tables 2.1, 2.6 and 2.2.

٢٢ Li, *The Rising Middle Classes and China*, Table 1.

٢٣ Sandhya Krishnan and Neeraj Hatekar, 'Rise of the New Middle Class in India and Its Changing Structure', *Economic and Political Weekly*, 2 June 2017, esp. Figure 1a, Table 2. The low ('scheduled') castes experienced an uplift, while the relative advantage of Hindus over Muslims remained about the same (Table 3).

٢٤ Leela Fernandes, *India's New Middle Class*, Minneapolis 2006, p. xviii; Dipankar Gupta, *The Caged Phoenix: Can India Fly?*, New Delhi 2009, p. 83

٢٥ Homi Kharas, 'The Emerging Middle Classes in Developing Countries', oecd Development Centre Working Paper 285, 2010, pp. 10–11, 38.

٢٦ John West, *Asian Century on a Knife-edge*, London 2018.

إعجاز أحمد
ماركسيّ من عصرنا

ثائر ديب
مترجم وكاتب سوري

رحيل ماركسيّ من الأطراف في المركز

في يوم الأربعاء، التاسع من آذار/ مارس ٢٠٢٢، تُوفي عن واحد وثمانين عامًا المفكّر والمنظّر الأدبي الماركسي الهندي إعجاز أحمد في منزله في إيرفين، كاليفورنيا، الولايات المتحدة، حيث كان أستاذًا للأدب المقارن خلال السنوات الأخيرة من حياته. وكانت أهميته كواحد من أبرز المفكّرين الماركسيين في عصرنا قد برزت على نحوٍ خاص في أعقاب تقهقر الاشتراكية وتفكك المعسكر الاشتراكي في أواخر ثمانينيات القرن العشرين وأوائل تسعينياته، حين راح كثير من الماركسيين السابقين يبحثون عن أدوات أخرى لفهم المجتمع بعد زوال المدّ والصعود اللذين شهدتهما الماركسية حتى النصف الثاني من القرن العشرين.

لا يستمدّ إعجاز أحمد ماركسيته من الفكر الماركسي الصادر عن المراكز المتروبولية في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته فحسب، بل أيضًا من تقاليد الحركات المناهضة للاستعمار والإمبريالية من أجل التحرر الوطني. وهذا ما بوّأه موقعًا فريدًا في الدفاع عن النظرية الماركسية ورعايتها ونقد سلسلة «الما بعدات» (ما بعد الماركسية، ما بعد الحداثة، ما بعد الاستعمار، إلخ) عندما تخلّى كثير من المفكّرين الغربيين وسواهم عن الماركسية في حقبة ما بعد الاتحاد السوفييتي. ولذلك كان طبيعيًّا أيضًا أن ينكبّ على تحليل الإمبريالية في حقبة ما بعد الحرب الباردة، وعلى الحروب العدوانية التي شنّتها الولايات المتحدة وقوات «الناتو» في العراق وسواه، مُظهرًا أنها جزء من مشروع إمبريالي للهيمنة على العالم. وهنا، مرة أخرى، فنّد آراء عديد من الباحثين الماركسيين الغربيين الذين رأوا أنّ الإمبريالية لم تعُد مقولة ذات صلة في العالم الرأسمالي المعولم.

قدّم إعجاز على مدى عقود مساهمات ثاقبة في فهم الأدب والأدب المقارن والنقد الأدبي، والثقافة ودراساتها، ودراسات الترجمة، كما في فهم الإمبريالية والقومية ومناهضة الاستعمار، والطائفية والفاشية، والفلسفة والنظرية الاجتماعية، فضلاً عن الماركسية والسياسات الشيوعية. وذلك على نحوٍ ترك أثره في العديد من فروع الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، ولا بدّ أنّ رحيله سيترك فراغًا يصعب سدّه في عصر الحروب والأزمات الساحقة والجوع والعنصرية هذا.

الأكاديمي المناضل

ولد إعجاز عام ١٩٤١ لأسرة ميسورة في مظفرنجار، ولاية أوتَر براديش، في الهند البريطانية. بعد تقسيم الهند في ١٩٤٧-١٩٤٨، هاجر مع والديه إلى لاهور، في باكستان، حيث حصل على درجة الماجستير في الأدب الإنكليزي ثم غادر إلى الولايات المتحدة من أجل الدكتوراه. لكنّ توجهه الاشتراكي والأممي الماركسي سبق ذلك، في مدارس لاهور وجامعتها، كما في مقاهيها وخلايا تنظيماتها السياسية الماركسية.

درّس إعجاز لسنوات في جامعات مختلفة في الولايات المتحدة وكندا، قبل أن يعود إلى الهند التي غدت موطنه لأكثر من عقدين، حيث أصبح أستاذًا زميلاً في متحف نهرو ومكتبته التذكاريين، وأستاذًا زائرًا في مركز الدراسات السياسية، في جامعة «جواهر لال نهرو»، وشغل كرسي الخان عبد الغفار خان في الجامعة الملّية الإسلامية. وعلاوةً على مناصبه الأكاديمية في الهند، شغل إعجاز مناصب أكاديمية على المستوى الدولي قبل قبوله في منصبه الدائم في «جامعة كاليفورنيا» (إيرفين) في عام ٢٠١٦، فقد سبق أن درّس في «جامعة يورك» (تورنتو)، و«كلية الدراسات الأفريقية والشرقية» (لندن)، و«جامعة ساو باولو» (البرازيل)، وألقى سلسلة محاضرات مميزة في «أكسفورد» و«كامبردج» وجامعات في جنوب آسيا وأوروبا بالإضافة إلى محاضرات ويليك المميّزة في النظرية النقدية في «جامعة كاليفورنيا» بإيرفين.

لعلّ الأهم من ذلك، أنّ إعجاز كان أيضًا مثقفًا عموميًّا بارزًا شديد الحضور، بظهوراته التلفزيونية المنتظمة في الهند، وكتاباته في البوابة الإخبارية *Newsclick* على شبكة الإنترنت، ومساهمته المنتظمة في مجلة *Frontline* الهندية كلّ أسبوعين، وفي مجلات يسارية مثل الـ*Monthly Review*، والـ*Social Scientist*، و*The Marxist*. كما ارتبط بمشروع النشر Leftword Books منذ بدايته، وهو المشروع الذي نشر عددًا من كتبه اللاحقة. ولم يكن دوره كمثقف عموميّ وباحث يساري مناضل ليقلّ أهمية بالنسبة إليه عن مهنته الأكاديمية.

ألهم إعجاز، كمعلم مميّز ذي شخصية كاريزمية، كثيرًا من الطلاب بصرامته الفكرية وشغفه، الأمر الذي دفعهم إلى التميّز في عملهم. وكان اهتمامه الأول هو تعليمهم التفكير والقراءة النقديين. وامتدّ دوره كمدرّس أبعد بكثير من الفصل الدراسي، إلى جماهير كبيرة ومتنوعة وصل إليها كمثقف عمومي وكاتب.

بدأ أحمد مشاركته في الحركات اليسارية منذ أيام دراسته الجامعية في لاهور. كما ارتبط بالحركات النقابية، وشارك في التعبئة ضد الإمبريالية

بدأ إعجاز مشاركته في الحركات اليسارية منذ أيام دراسته الجامعية في لاهور. كما ارتبط بالحركات النقابية هناك، وشارك بانتظام في التعبئة ضد الإمبريالية. وبعد انتقاله إلى الولايات المتحدة في أوائل سبعينيات القرن العشرين، نشط في «التحالف من أجل السلام والعدالة» المناهض لحرب فيتنام. وكان إعجاز يتدخل بانتظام في المناقشات العامة حول قضايا مثل الحروب الإمبريالية في غرب آسيا وأفغانستان، والصعود العالمي لليمين والتدخلات الإمبريالية. وكان انخراطه مع حركات اشتراكية في أنحاء العالم جزءًا لا يتجزأ من عمله الأكاديمي. وبعد عودته إلى الهند في عام ١٩٨٥، ارتبط إعجاز ارتباطًا وثيقًا بالحزب الشيوعي الهندي (الماركسي) وعدد من الحركات الأخرى. لكنه اضطر إلى مغادرة البلاد من جديد وسط تشديد القيود على التأشيرات ووصول حزب «بهاراتيا جاناتا» اليميني إلى السلطة في عام ٢٠١٤، إذ كان إعجاز من أشد المنتقدين لهذا الحزب والقوى اليمينية الأخرى، لا سيما دورهما في أعمال الشغب الدينية بولاية غوجارات عام ٢٠٠٢.

كان وجود إعجاز في الهند مصدر تحفيز استثنائي لحياة اليسار الفكرية والسياسية في ذلك البلد. ألقى هناك كثيرًا من المحاضرات العامة، ولم يرفض أيّ دعوة لمجموعات الطلاب اليساريين والأوساط الأدبية اليسارية، ولم يتجنّب قط اتخاذ مواقف قوية في شأن القضايا السياسية الراهنة. لكنّ آراء إعجاز الماركسية الصريحة، ومواقفه العامة، وحقيقة أنّه كان مواطنًا باكستانيًّا لفترة من الزمن لطالما اعترضت طريقه إلى جعل الهند وطنه الدائم كما كان يحبّ. وكان ذلك مصدر توتر وألم دائمَين بالنسبة إليه، وجعلَه في النهاية يقبل عرض كرسي الأدب المقارن في جامعة كاليفورنيا، إيرفين، وهو الكرسي الذي سبق أن شغله الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا، بعدما رفضت حكومة نارينـدرا مودي تمديد تأشيرته مرّة أخرى.

أعماله

أوّل كتاب منشور لإعجاز أحمد هو تحقيقه «غزليات غالب» (١٩٧١)، مع ترجمات لهذه الغزليات من الأوردية إلى الإنكليزية أنجزها إعجاز بالتعاون مع سبعة من الشعراء الأميركيين البارزين. تلى ذلك كتابُه الأبرز «في النظرية: طبقات، أمم، آداب» (١٩٩٢)، ثمّ «أنساب الحاضر: الأيديولوجيا والسياسة في جنوب آسيا المعاصر» (١٩٩٦)، و«الطائفية والعولمة: هجمات أقصى اليمين» (٢٠٠٢)، و«العراق وأفغانستان وإمبرياليةُ زمننا» (٢٠٠٤)، و«في زمننا: الإمبراطورية والسياسة والثقافة» (٢٠٠٧)، وسواها. كما حقق كتابَ «صوتٌ منفرد: كتابات مايكل سبرينكر» (٢٠٠٣). ونَشرت له LeftWord Books مجموعةً من المقابلات حول حياته وأعماله بعنوان «لا شيء إنسانيًا غريب عليّ» (٢٠٢٠). وكان من المقرر أن يتبع ذلك نشر مشروع إعجاز الأخير، وهو مقدمات لكتابات ماركس السياسية، لكنّ وفاته قطعت ذلك للأسف. تُضاف إلى هذه الكتب مئات المقالات الأكاديمية والقطع الصحافية. وله كذلك دواوين شعر ورواية بالأوردية. وظهرت له ترجمات لقصائد أوردية، مع تقديم مهمّ، في الـ*The Hudson Review* وفي الـ*Poetry*.

إذا ما كان ثمّة كلمة تشير إلى المحور الذي ينتظم كتاب «في النظريّة: طبقات، أُمَم، آداب» حوله، فإنّ هذه الكلمة هي «النَّقد»: النقد الماركسي للعالم في بنيته الراهنة وفي تاريخه القريب الذي أوصل إليها؛ وللنظرية الثقافية والأدبية كما تطورت في الأكاديمية الغربية والثقافة الغربية خلال العقود الأخيرة مع ما بعد البنيوية والنظرية ما بعد


إعجاز أحمد



الاستعمارية؛ وللفكر القومي؛ ولمقولتَي «العالم الثالث» و«أدب العالم الثالث» ونظرية «العوالم الثلاثة» في طبعاتها المختلفة؛ ولإدوارد سعيد في تجاذباته الوجدانية كما تجلّت في كتابه «الاستشراق» ثمّ في سواه؛ ولما أشاعه سعيد ومدرسة دراسات التابع وحالات كتّاب مثل سلمان رشدي من إعلاءٍ لشأن المثقف والكاتب المنفيّ والمهاجِر والهجين على حساب الثقافة الوطنية وأبنائها الذين يعيشون ويقاومون فيها؛ وللطريقة التي تُبنى بها المُعْتَمَدات الأدبيّة المكرَّسة الغربية والعالمثالثية والهندية؛ وللنقّاد الذين اتهموا ماركس بالمركزية الأوروبية والاستشراق بناءً على كتاباته الصحافية عن الهند، إلخ. وهذا ما دفع تيري إيغلتون، الناقد والمفكّر الماركسي البريطاني الشهير، إلى القول معلّقًا على الكتاب: «إنْ كان بعض النقّاد الجذريين قد نسوا أمر الماركسية، فإنّ الماركسية، كما تتجلّى في نقد إعجاز أحمد المُفْحِم والشجاع وغير الدارج، لم تَنْسَ أمرهم». غير أنّ ما يطلع به إعجاز من كتابه هذا لا يقلّ عن إعادة صوغ كاملة للحوار الفكري في النظرية النقدية والدراسات ما بعد الاستعمارية. وسوف يُشرك في السنوات اللاحقة أصواتًا بارزة أخرى في النظرية النقدية، بما في ذلك جاك ديريدا وسلافوي جيجيك وآلان باديو وغاياتري سبيفاك، ويعيد النظر في جدالات حول النظرية والسياسة من منظور التحول النيوليبرالي الذي ظهر بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة.

جاء كتاب «في النظرية» ليدافع عن الماركسية في لحظة ضعفها، إذ كانت تُدَكّ في الأكاديميات كمنهج وكمنظور، وكانت سياساتها تُشيطَن

جاء كتاب «في النظرية» ليدافع عن الماركسية في لحظة ضعفها الأكبر، إذ كانت تُدَكّ في الأكاديميات كمنهج وكمنظور، وكانت سياساتها تُشيطَن باعتبارها شمولية. من اليسار، كانت انتقادات ما بعد البنيوية للماركسية تتهمها بأنّها قاصر وحتمية في أحسن الأحوال، وجزء من نظرة الرجل الأبيض في أسوئها. ومن اليمين الليبرالي والمحافظ، كانت تُهاجَم لافتقارها إلى الحرية والتطور، وبأنّها عقيمة فكريًا. ولا يزال الكتاب محتفظًا بأهميته بعد كلّ هذه السنوات، سواء في إظهاره أخطاء النظرية ما بعد الاستعمارية والتقليد الإنسانوي الليبرالي وعيوبهما (كما تجلّت لدى إدوارد سعيد) أو في تبيانه أنّ الطرائق الماركسية الكلاسيكية وأفكارها التأسيسية (التي يتخلّى فريدريك جايمسون عن كثير منها) لا تزال تتيح لنا أن ننظر نظرة خلّاقة وثاقبة إلى الإمبريالية والاستعمار والظواهر المرتبطة بهما، مثل الهجرة ومقولات «العالم الثالث» و«أدب العالم الثالث» و«كتّاب العالم الثالث» و«العوالم الثلاثة». وفي هذا المجال الأخير، بيّن إعجاز أنّ ما من «وحدة» تجمع أدب العالم الثالث الذي يعتبره باحثون غربيون، من بينهم جايمسون، كتلة متراصّة؛ وأنّ ثمّة تمايزًا شديدًا طبقيًا وثقافيًا في ما يُدعى «أدب العالم الثالث»؛ وخصوصيات متباينة يتجاهلها الغرب في ما يُدعى «العالم الثالث»؛ وأنّ هذا الأخير رأسماليّ مثل العالمين الأول والثاني لكنّ رأسماليته متخلّفة وتابعة. أمّا في شأن «الهجرة» و«المنفى»، هذان الحدثين المؤلمين الحقيقيين في حياة المحرومين، فقد بيّن سعيد أنهما لا يكادان يشتركا في شيء مع «التهميش» و«دراسات الشتات» و«الهجنة» و«البرمائية الثقافية» التي راح يتغنّى بها كتّاب النظرية ما بعد الاستعمارية وباتت تدَرَّس في الجامعات اليوم.

لذلك كلّه، يمكن أن نصف «في النظرية» بأنّه كتاب ماركسي كلاسيكي يقاوم بشدة استيراد ما اعتبره مفاهيم غريبة وغير متوافقة مع الماركسية، بحجة جعلها أكثر واقعية، الأمر الذي يخلق خلائط انتقائية متنافرة. غير أنّ ما يجعل «في النظرية» كتابًا فريدًا هو جمعه السجال الناري إلى الإبداع الفكري والتبحّر اللافت في فروع وتخصصات عديدة، وكذلك تبيانه أنّ كثيرًا ممّا تنتقده ما بعد البنيوية والنظرية ما بعد الاستعمارية لدى الماركسية إنْ هو إلّا خيال مآتة من قشّ وليس الشيء الفعلي، في الوقت الذي يسعى إلى إعلاء كعب التقليد الماركسي الكلاسيكي وتكريس تفوّقه. كان يحلو لإعجاز القول إنّ «ما بعد الماركسية ليست سوى ما قبل الماركسية، عودة إلى المثالية التي تجاوزها ماركس». وعندما تعرّضت الماركسية للهجوم، كان إعجاز أحد المفكرين القلائل الذين قدموا سردًا متطورًا ليس لأهميتها فحسب، بل لضرورتها أيضًا: «ما بعد الاستعمار هو أيضًا، مثل معظم الأشياء، مسألة طبقية».

يُعَدّ كتاب «في زمننا: الإمبراطورية والسياسة والثقافة» (٢٠٠٧) نوعًا من المتابعة لكتاب «في النظرية»، إذ ينطوي على تحليل مدقّق لوجه الإمبريالية المتغير،

ومجموعة من التدخلات المتشابكة في أكثر الجدالات المعاصرة إلحاحًا في النظرية السياسية والثقافية، وتحليل جديد مميز للإمبريالية في عصر العولمة، حيث تنزلق إلى النيوليبرالية والحرب الكوكبية، وتظهر أشكال مقاومة جديدة تاريخيًّا في جميع أنحاء العالم. أمّا كتاب «أنساب الحاضر: الأيديولوجيا والسياسة في جنوب آسيا المعاصر» (١٩٩٦، مع طبعة منقحة ومزيدة في عام ٢٠٠٠) فيكرّس صاحبَه لا كواحد من أبرز المنظّرين النقديين لجنوب آسيا فحسب، بل أيضًا كواحد من أقوى الأصوات في الجدالات النظرية حول السياسات النووية العالمية. ويحلل كتاب «الطائفية والعولمة: هجمات أقصى اليمين» (٢٠٠٢) الإمبريالية الجديدة والتأثير المتزايد للفاشية في مجتمعات العالم الثالث، ويجعل من إعجاز أحمد أحد الأصوات الأشد إثارةً للاهتمام في الجدالات حول ما يسمّيه التحول العالمي الإمبريالي الجديد. ولعلّ فرادة صوته بصدد تناول الطائفية والفاشية كظاهرتين محددتين في جنوب آسيا نبعت من اطّلاعه على تجربتَي الطائفية الهندوسية في الهند والطائفية الإسلامية في باكستان، ومعرفته بسياسات الأصولية الإسلامية، إنّما مع أمميةٍ ومنهجيةٍ لا تخفيان، تستخلصان من المقارنات والأمثلة المستمدة من جميع أنحاء العالم وتطلق تلك الاستخلاصات كي تعمل عملها في سياق الاقتصاد السياسي لدولة الهند المختلّة.

فرادته بصدد تناول الطائفية والفاشية في جنوب آسيا نبعت من اطّلاعه على الطائفية الهندوسية في الهند والطائفية الإسلامية في باكستان

يجمع كتاب «العراق وأفغانستان وإمبرياليةُ زمننا» (٢٠٠٤) مقالات طويلة بدأت بعد كارثة ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ مباشرةً وامتدّت على مدى عامين تاليين، تناول فيها إعجاز التخطيط الإمبراطوري العالمي وحربَي الاحتلال اللتين شنّتهما الولايات المتحدة ضد أفغانستان والعراق. وتنطوي هذه المقالات على ثروة من التفاصيل والتحليلات التي تكشف خلفيات السياسة الأميركية، والتحضير للحربين وتنفيذهما، وبروز المقاومة في البلدين. أمّا مقدمة الكتاب الطويلة والملاحظة المقتضبة عن أسر القوات الأميركية صدام حسين فتأتيان بالقصة إلى أواسط كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣. وتلي ذلك مقالة بعنوان «إمبريالية زمننا»، وهي مداخلة نظرية كبرى من مداخلات أحمد يرى فيها أنّ الولايات المتحدة اتبعت سياسة ثابتة منذ الحرب العالمية الأولى والثورة البلشفية تهدف إلى تدمير الشيوعية، وهزيمة قومية العالم الثالث؛ وإقامة تفوّق واضح ودائم على المنافسين في العالم الرأسمالي. وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي، شنّت الولايات المتحدة هجومًا عالميًّا للتراجع عن المكاسب التي حققتها القوى الاشتراكية والمناهضة للإمبريالية خلال معظم القرن العشرين، وفرض أنظمة عميلة في آسيا وأفريقيا، واحتكار موارد العالم الاستراتيجية. ويتتبّع أحمد حربَي الاحتلال في أفغانستان والعراق على نحو ما تتكشّفان في هذا الإطار النظري الأكبر. ويتناول، من بين أمور أخرى، عددًا من الموضوعات ذات الصلة: نظام العقوبات الإبادي وعمليات القصف الشرسة التي نفّذها التحالف الأميركي البريطاني على مدار ما يقرب من اثني عشر عامًا؛ الدور الغادر للأمم المتحدة؛ والدور المبهم للاتحاد الأوروبي وحرب العملة بين الدولار واليورو؛ والسياسات النفطية في العراق والشرق الأوسط وحوض بحر قزوين؛ وعديد القضايا الأخرى ذات الأهمية الأساسية في فهم الإمبريالية في زمننا.

على غرار كتب إعجاز، حفّز كثير من مقالاته فكرًا جديدًا في مختلف المجالات، وتُرجم إلى عديد من اللغات، وأعيد طبعه في طبعات وسياقات جديدة. ففي مقالته «نظرية ما بعد الاستعمار وظروف ما بعد الاستعمار»، يحلّل على نحو نقدي الاتجاهات الفلسفية والسياسية والمعرفية الرئيسة في الثقافات العالمية المتنوعة اليوم. أمّا مقالته «الإسلام والإسلامويات والغرب» ففتحت أفقًا جديدًا لتناول الترابط والتشابك بين أزمة الرأسمالية العالمية والأزمة في العالم الإسلامي اليوم. وتُعَدّ مقالاته عن تاريخ الأوردية كلغة أدبية وكذلك عن الطابع متعدد اللغات ومتعدد الأصوات للأدب الهندي دليلًا على التزامه إعطاء حقّ التعبير للأعمال الأدبية بما يتجاوز الهيمنة الأحادية للّغة الإنكليزية. وهو يبدي في مقالاته هذه قدرةً لا مثيل لها في النظرية النقدية والدراسات الأدبية على تغطية ثقافاتٍ مختلفة وعهودٍ تاريخية شتّى. ويصحّ الشيء ذاته على قدرته على جعل عمله يتحدث عبر حدود الأقسام والمدارس، وفي تخطٍّ لمجالات النظرية النقدية وتحليل الخطاب والدراسات الأدبية صوب الفلسفة وعلم الاجتماع والتنظير السياسي والنضال. وفي عام

١٩٩٧، عندما نشرت أرونداتي روي روايتها «إله الأشياء الصغيرة»، قرأها إعجاز بعناية وحماس كبيرين، وكتب عنها في *Frontline* مقالةً بعنوان «قراءة أرونداتي روي سياسيًّا» هي من درر النقد الأدبي وكانت فاتحة علاقته مع هذه المجلة، ومن الغريب أنّها لم تعاود الظهور في أيّ من أعمال إعجاز أو في أيّ من الكتب عن أعمال أرونداتي روي. وبعد ما يقارب العقد من الزمان على انهيار الاتحاد السوفييتي وتفكك الكتلة الاشتراكية، كتب إعجاز مقالةً بعنوان «البيان الشيوعي: في زمانه وفي زمننا»، هي عبارة عن قراءة ممتعة في بيان ماركس وإنغلز تعتبره «نصًّا في مرحلة انتقالية» يجمع معًا العناصر الرئيسة لما سينطوي عليه لاحقًا مجموع أعمال ماركس. وبالطبع فقد كتب إعجاز مقالات وأجرى مقابلات عمّا دُعي بـ«الربيع العربي» تغنّى فيها بثورتي تونس ومصر، بخلاف تشكّكه في ثورتَي ليبيا وسورية، الأمر الجدير بالتمحيص والمراجعة.

فتحت مقالته «الإسلام والإسلامويات والغرب» أفقًا جديدًا لتناول الترابط والتشابك بين أزمة الرأسمالية العالمية والأزمة في العالم الإسلامي اليوم

ماركس، آفاقه وحدوده

على الرغم من دفاع إعجاز، طوال حياته، عن ماركس وفكره، ما كان ليُعجَب بقراءةٍ لأعماله مستسهلة وتبسيطية ومنبتّة الصلة بالممارسة. وحتى إزاء نصوص ماركس، كان يرى أنّه «لا وجود لفهم نهائي... ولا بدّ من العودة على الدوام لإلقاء نظرة أخرى، والتفكير من جديد، والتوصّل إلى فهم أعمق». ولطالما أدرك حدود ماركس وما يفتقر إليه. على سبيل المثال، إنّ ماركس، على الرغم من انتقاده استنفاد الزراعة الرأسمالية للتربة، لم يشدد على الطرائق التي لا حصر لها التي يفسد بها رأس المال الأرض. وكان يعتقد أنّ الاشتراكية ستفيد من «تقدم» الرأسمالية، بخلاف ما أثبتته الكوارث البيئية في عصرنا. ولم ينتقد ماركس الاستعمار بما يكفي. وكان وعيه بآثار العنصرية ضئيلاً، على الرغم من إدانته الشديدة لها. وهو لم يكَد يكتب شيئًا عن النسوية، وكان يعتبر أعمال المرأة المنزلية أمرًا مفروغًا منه. وقد بذل إعجاز قصارى جهده لإصلاح هذه العيوب، مدافعًا طوال الوقت عن حركة تقدمية جديدة، وشكل من الاشتراكية منفتح وتشاركي.

في أواسط تسعينيات القرن العشرين، بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، بات من الواضح أنّ الماركسية كانت تعاني في معركة الأفكار، إذ دخلت الليبرالية الجديدة لا معجم مفردات الثقافة الشعبية فحسب (وعلى رأسها الفردية والجشع) بل العالم الفكري أيضًا من خلال ما بعد الحداثة. وكانت مقالته الرائعة عن البيان الشيوعي، كما الكتاب الجماعي الذي نُشرت فيه وحرره براكاش كارات، «عالَمٌ للفوز به»، والدار التي نشرته (LeftWord Books) في دلهي، نوعًا من التفاعل مع هذا السياق ومجابهته. وكذلك كانت مقابلاته التي ضمّها كتاب «لا شيء إنسانيًا غريب عليّ». خلال العامين الماضيين، خطط إعجاز أحمد لإنجاز سلسلة من المقدمات أو المداخل لكتابات ماركس السياسية. وكان يرى أنّ «الاكتفاء بالنظر إلى ماركس من خلال عمله الاقتصادي هو نظر ضيّق للغاية، على الرغم من أهمية هذا العمل، لأنّ كتاباته السياسية هي المفتاح لفهم رؤيته الثورية». وقد أجرى سلسلة من المقابلات حول بعض هذه النصوص (مثل البيان الشيوعي، القسم الأول من الأيديولوجيا الألمانية، والثامن عشر من برومير بونابرت، وكتابات ماركس عن كومونة باريس)، لتحويلها إلى مداخل لهذه النصوص فضلًا عن جمع كتاباته عن ماركس في كتاب، لكن رحيله حال دون ذلك.

نعي

عبّرت حركات كثيرة وبشر كثيرون، على وسائل التواصل الاجتماعي، عن حزنهم لرحيل إعجاز أحمد وما يمثّله من خسارة فادحة. وتذكروا كيف أعانتهم مداخلاته على فهم قضايا حاسمة تؤثّر في العالم، لا سيما أنّ عباراته الخالية من الرطانة كانت بالنسبة إلى كثيرين طريقة محببة وأثيرة لتعليم النظرية والفلسفة الماركسيتين. على «فايسبوك»، كتب فيجاي براشاد الذي شارك في تأليف كتاب «لا شيء إنسانيا غريب عليّ»: «غادرنا صديقي وأستاذي، ومعلمي الروحي الماركسي». ثم كتب في نعيٍ له: «حين يرحل عنّا شخص مثل إعجاز، يبقى صوته في مسامعنا. سوف يبقى لزمن طويل قادم». ووصفه سودانفا ديشباندي، الناشط الثقافي الذي يعمل مع LeftWord Books، بأنّه «أذكى عقل ماركسي وقعت عليه عيني». أمّا غابرييل شواب، أستاذة الأدب المقارن والأنثروبولوجيا المميزة، فكتبت: «لقد أغنى حياتنا الفكرية بطرائق لا تعدّ ولا تحصى. وبينما نحزن عليه، فإنّ غيابه سوف يملأ عالمنا».


ذاكرة

الإبادة الأرمنيّة
والصراع الطبقي في الأمبراطورية العثمانية

يغيا طاشجيان

باحث في السياسات العامّة والشؤون الدوليّة، لبنان. المسؤول الإقليمي لمؤسّسة «النساء في الحرب» النسويّة. Women in War

ترجمة فيفيان عقيقي

منذ بداية القرن التاسع عشر، مرّت الإمبراطورية العثمانية بمرحلة انتقالية اقتصاديًا ترافقت مع تدخّل القوى الأوروبية في نظامها الاقتصادي، ما أدّى إلى ظهور طبقة وسطى مسيحية على حساب الطبقة الوسطى الإسلامية التقليدية. لمواجهة هذا الوضع، اعتمد السلطان عبد الحميد الثاني، ولاحقًا حركة «تركيا الفتاة»، نظامًا مركزيًا للدولة، فأعيد تنظيم الطبقة الوسطى التركية ومُهّدت الطريق لإبادة اليونانيين والأرمن وتوطين مسلمي القوقاز والبلقان على عقاراتهم المصادَرة في الأناضول والمرتفعات الأرمنية.

ساهم عاملان في صعود الطبقة الوسطى الأرمنية في الإمبراطورية العثمانية: الأول بدء عهد الإصلاحات أو «التنظيمات» (١٨٣٩- ١٨٧٦)، الذي شجّع غير المسلمين على الانفتاح على التجارة الأوروبية. والعامل الثاني هو تصفية الإنكشاريّة (النخبة العسكرية الخاصة بالسلطان) التي أفاد منها المرابون الأرمن.

مع بداية فترة التنظيمات (الإصلاحات)، تغيّرت الديناميكيات الاجتماعية داخل المجتمع العثماني، حيث خَشي المسلمون، على الرغم من تفوّقهم العددي، من فقدان سلطتهم أمام غير المسلمين الذين أصبحوا أقوياء اقتصاديًا، واعتبروا النظام الجديد الذي حلّ محلّ النظام الديني المتشدّد مجرّد ذريعة تستخدمها القوى الأوروبية للتدخّل في الشؤون الداخلية للإمبراطورية وتقوية المسيحيين على حسابهم، ما أدّى إلى اشتداد الهجمات على المسيحيين. مع ذلك، زادت شكوك التجّار المسلمين بعد تولّي «تركيا الفتاة» السلطة عام ١٩٠٨، إذ وجدوا أن السياسات الانتخابية تنذِر بمستقبل غير مضمون لهم وأنّ النظام البرلماني سوف يقوّض التفوق الإسلامي. بالنتيجة، تجمّع العديد من مسلمي الطبقة الوسطى حول علماء الدين السنّة وشنّوا هجومًا مضادًّا في العام ١٩٠٩ مطالبين بتطبيق الشريعة في جميع أنحاء الامبراطورية ومنع ترسّخ الإجراءات العلمانية في النظام القانوني العثماني.

إلى ذلك، تُجادل المؤرخة الأميركية المختصة بالشرق الأوسط وأفريقيا هيذر شاركي بأنّ قضاء السلطان محمود الثاني على الإنكشاريّة في العام ١٨٢٦ أفاد المصرفيين والمُرابين الأرمن الذين حلّوا محلّ المصرفيين اليهود في خدمة الدولة العثمانية، وكذلك العمّال الأرمن كونه ضرب في الوقت نفسه الحرفيين وأعضاء النقابات الحرفية من المسلمين، وطرد آلاف العمّال المسلمين من القسطنطينية إلى المرتفعات الأرمنية وأحلّ الأرمن مكانهم في تبادل سكّاني ولّد استياءً بين الطبقة العاملة التركية والكردية من ناحية، والأرمن من ناحية أخرى. أدّت تصفية الإنكشاريين إلى إضعاف موقع علماء الدين وتحويل السلطة في الدولة العثمانية، إذ خاضت النخب غير المسلمة تحدّيًا اقتصاديًا ضدّ مصالح المسلمين وشبكة الأمان الاجتماعي التي تحمي النقابات الحرفية. في النهاية، انقرض فقراء المدن بعد تصفية الجيش الإنكشاري واتّباع سياسة مركزية.

تصدّت الطبقة الوسطى المسلمة لهذه التغيّرات بهدف إعادة «النظام القديم» الذي يصبّ في مصلحتها، فاتخذ الصدام بين النظامين شكل صراع عرقي - ديني وزاد من تطرّف العثمانيين المسلمين.

تدمير «النظام القديم» وصراع مصالح

أدّت الاتفاقيات التجارية الموقّعة مع القوى الأوروبية بعد العام ١٨٣٨، والاندماج الرأسمالي للإمبراطورية العثمانية إلى استبعاد التجّار العثمانيين المسلمين عن ممارسة أي نشاط تجاري في أوروبا بسبب هويتهم الدينية، وتهميش الطبقات الريفية والتجارية والحرفية المسلمة نتيجة استيراد العثمانيين المسيحيين واليهود العثمانيين سلعًا أوروبيّة رخيصة. وقد تزعزع استقرار المجتمع الإسلامي على امتداد الإمبراطورية

العثمانية مع فقدان عشرات الآلاف وظائفهم التقليدية ومواقعهم الاجتماعية، وبات المسلمون عاطلين من العمل أو يعملون في أدنى الرتب والرواتب. يتحمّل الأوروبيون مسؤولية ذلك لأنهم هندسوا هذه الهيكلية الاجتماعية والاقتصادية عبر إطلاق مشاريع داخل الامبراطورية، وتوظيف العمالة المسلمة الرخيصة تحت إشراف مديرين غير مسلمين يتقاضون رواتب عالية، ما عمّق الفجوة الدينية الاجتماعية - الاقتصادية في الإمبراطورية.

انطلقت المرحلة الأولى من الصراع الطبقي في المناطق النائية، في أوائل القرن التاسع عشر، عندما اشتبك الفاعلون الاقتصاديون والنخبة المرتبطة بهم سياسيًّا على الأراضي وعلى الزراعة السوقية كنتيجة لجهود تعزيز مركزية الإمبراطورية العثمانية. واشتعل أيضًا صراع في الأناضول بين الفلاحين (معظمهم من الأرمن)، وملّاك الأراضي المسلمين (معظمهم من الأكراد)، والتجّار غير المسلمين (معظمهم من اليونانيين والأرمن).

أدّى استبدال النظام الإقطاعي اللامركزي بنظام مركزي إلى استعداء زعماء القبائل البدوية الكرديّة الذين كانوا يستفيدون من ناتج الأرض، فاستبدلوا «نموذج أعمالهم» بفرض ضرائب إضافية على الفلاحين الأرمن. أُجبِر الأرمن على دفع الضرائب «حماية» أو «خوات» لقاء دفاع القبائل الكردية عنهم أو عدم مهاجمتهم، فضلاً عن توفير الأرمن الطعام والمأوى للرعاة الأكراد. وبما أنّ الدولة العثمانية تفرض الضرائب على الفلاحين الأرمن أيضًا، وجدوا أنفسهم يدفعون الضرائب مرّتين. ساء الوضع أكثر بعد العام ١٨٩٠، عندما أنشأ السلطان عبد الحميد الثاني فوج الخيّالة الحميدية، بحيث لجأ المزيد من الأكراد إلى انتزاع ضرائب إضافية من الأرمن من دون أن تتمّ معاقبتهم.

لم يعُد الوضع محتمَلاً بالنسبة إلى الفلاحين الأرمن في شرق الأناضول (المعروف أيضًا بالمرتفعات الأرمنية)، فاشتكوا من زعماء القبائل الكرديّة الذين استولوا على أراضيهم بشكل غير قانوني، وفرضوا عليهم السخرة والضرائب التعسّفية، فيما كانت القبائل الكرديّة تنهب ممتلكاتهم. إلى ذلك، تُعتبر الإجراءات الكرديّة ردًّا انتقاميًّا على قانون إصلاح الأراضي الصادر عام ١٨٥٨، والذي أتاح للأرمن في شرق الأناضول إعادة شراء أراضيهم المسلوبة، ومعها عقارات إضافية، غالبًا من الأتراك والأكراد الرازحين تحت الديون. هكذا أصبح العديد من الأرمن دائنين ومُرابين، فيما فقد العديد من المسلمين الذين لم يتمكّنوا من سداد ديونهم ممتلكاتهم. أفاد القنصل البريطاني في ميناء طرابزون على البحر الأسود في العام ١٨٧١ بأنّ الأناضول كانت ترزح تحت الديون، ما يعني الوقوع في أيدي الدائنين الأرمن. وفقًا للتقرير، كان الفلاحون المسلمون في الأناضول يعيشون تحت ضغط الفوائد التي فرضها المرابون الأرمن وتراوحت بين ٢٤ و٦٠ ٪، الأمر الذي أفقدهم في حالات كثيرة حيازاتهم الزراعية.

دفعت كلّ هذه العوامل مسلمي الإمبراطورية إلى التشكيك في الإصلاحات والنفور من الرعايا المسيحيين الذين اعتُبِروا «أدوات أوروبية للسيطرة على الإمبراطورية»، وبالتالي أصبحت القضية قضية طبقيّة متداخلة مع الدين والعرق. حمّل المسلمون العثمانيون العثمانيين المسيحيين مسؤولية انهيار النظام القديم وانتزاع امتيازاتهم بموجب القوانين المستحدثة. من منظور اقتصادي، تعارضت مصالح المسلمين مع دخول رأس المال الأوروبي وصعود الطبقات غير المسلمة.

لم يكن صدفة بدءُ تأكيد الهوية الإسلامية للدولة خلال تلك الحقبة من قِبل النخب المسلمة العثمانية الحاكمة، بل كان ردّ فعل مباشرًا على تنامي البرجوازية المسيحية. برزت دعوات شعبية للعودة إلى التشدد في تطبيق الشريعة الإسلامية كونها تصبّ في مصلحة التجار والحرفيين المسلمين، ولاح في الأفق صراع ديني بجذور اجتماعية واقتصادية. أدركت السلطات العثمانية وجود احتقان لدى الطبقة العاملة المسلمة من انعدام المساواة الاقتصادية، وتمّ التعبير عنها بمصطلحات ثقافية ودينية مثل: المجتمعات ذات الامتيازات الاقتصادية لديها نظرة ثقافية «غربية». وقد استُخدمت هذه الحجّة من طرف القوى المحافظة والرجعيّة لعرقلة أي إصلاح تفرضه السلطات المركزية.

من هنا، أيّدت السلطات العثمانية - القلقة بسبب التأثير الاقتصادي المتزايد للبرجوازيين غير المسلمين - ظهورَ طبقة وسطى مسلمة قوية لـ«تحرير» الإمبراطورية من العناصر غير المسلمة التي تراكم الأموال «بهدف» الوصول إلى السلطة عبر إنفاذ «الإصلاحات». فتحوّلت حركة «تركيا الفتاة» عن سياستها التصحيحية الرسمية بعد العام ١٩٠٩، لكنها أبقت على سياسة عبد الحميد الثاني في البحث عن حلفاء سياسيين بين الطبقة الوسطى المسلمة بالتوازي مع اعتماد المقاطعة الاقتصادية للتجّار اليونانيين بشكل أساسي لمقاومة هيمنتهم في المدن الكوزموبوليتية مثل سميرنا (إزمير) والقسطنطينية. بعد حروب البلقان، اتهمت السلطات العثمانية اليونان بالخيانة وعطّلت مصالحَ غير المسلمين التجارية تشجيعًا لظهور التجّار المسلمين في المدن الساحلية.

مع ذلك، لم يكن من السهل إسكات الطبقة الوسطى الأرمنية المسيَّسة. على عكس الطبقة الوسطى اليونانية التي


كنيسة أرمنيّة في طرابزون تعود لعام ١٩١٨ كانت تستخدم مركزاً للمزادات العلنيّة وتوزيع البضائع والممتلكات الأرمنيّة بعد الإبادة.

تركّزت بشكل رئيسي في القسطنطينية وشميرنا وطرابزون، انتشرت البرجوازية الأرمنية في جميع أنحاء الإمبراطورية، من العاصمة إلى كيليكيا، ومن سورية إلى الحدود الشرقية. فضلاً عن ذلك، لعبت الإرساليات دورًا حاسمًا في تشكيل طبقة وسطى أرمنيّة متعلّمة عبر تعريفها إلى الأفكار الحديثة والابتكارات وأنظمة الرعاية الصحية الفعّالة، وهو ما افتقر إليه العثمانيون المسلمون.

برزت دعوات شعبية للعودة إلى التشدد في تطبيق الشريعة الإسلامية كونها تصبّ في مصلحة التجار والحرفيين المسلمين

دور الإرساليّات والردّ الصوفي

تغيّر التاريخ الاجتماعي للإمبراطورية العثمانية نتيجة أنشطة الإرساليّات المسيحية التي برزت في القرن السادس عشر، وتكثّفت في القرن الثامن عشر مع انفتاح الإمبراطورية على أوروبا. أنشأت هذه الإرساليّات مدارس ومطابع ومستشفيات وغيرها من المؤسسات التي ساعدت على تكوين طبقة وسطى مسيحية متعلّمة في الإمبراطورية (معظمها من الأرمن)، وأقامت برامج أثّرت بشكل واضح في المسيحيين الذين أصبحوا أوفر صحّةً وثراءً وتعليمًا من بعض المسلمين. لهذه الأسباب باتت أنشطتهم موضع شكّ دائم من السلطات والشخصيات الدينية الإسلامية.

في المرتفعات الأرمنيّة، ساهمت مدارس الإرساليّات في تقدّم المسيحيين على المسلمين في محو الأمّية بين الذكور والإناث، أمّا معرفتهم بأصول النظافة الشخصية والوصول إلى الرعاية الطبيّة فقد مكّنت أطفالهم من تجنّب الأمراض بمعدلات أعلى بكثير من المعدلات السائدة بين الأكراد. وفقًا للقنصل الروسي، قبل الحرب العالمية الأولى، كان نصف الأطفال الأكراد في القرى يموتون عند الولادة بسبب نقص المساعدة الطبية، و٣٠٪ يموتون قبل سنّ الثالثة بسبب الأمراض الوبائيّة مثل الجدري والحمى القرمزيّة والتيفوئيد أو لدغات الثعابين والحشرات. أمّا الأرمن فينجون من أمراض سنّ الطفولة. وربما ساهم وعي هذه الفوارق في بروز ضغينة وحقد تُجاه الأرمن.

فضلاً عن ذلك، تعرّف الأرمن إلى أفكار سياسية جديدة تتناول الحريات والاشتراكية والتحرّر الوطني التي صارت



تُقلِق السلطات. لمواجهة هذه الظاهرة، أعطى السلطان عبد الحميد الثاني الأولوية لإنشاء مدارس عامّة في ولايات الأناضول. ارتأى إنشاء طبقة وسطى مسلمة تحلّ محل المسيحيين المتعلّمين، وتُزوّد الدولة العثمانية بقاعدة اجتماعية عرقية - دينية موثوقة. للمفارقة، أطاحت حركة «تركيا الفتاة» بالسلطان عبد الحميد الثاني في العام ١٩٠٩ على الرغم من كونها حركة قومية علمانية من الطبقة الوسطى يدين أعضاؤها بصعودهم الاجتماعي وتعليمهم إلى السلطان المخلوع. مع ذلك، تحقّق هدف السلطان في تعزيز طبقة وسطى مسلمة. مدفوعًا بأيديولوجيّته القومية الإسلامية، أيّد عبد الحميد الثاني الطائفة النقشبندية الصوفية واسعة الانتشار، التي عززت وحدة المسلمين، خصوصًا بين الأكراد، لما لها من إمكانات تعبئة قوية، ونهج مؤيّد للدولة، وموقف مناهض للمسيحيين. بدعم شعبي، شجّعت المدارس النقشبندية في المناطق القبليّة الأطفال المسلمين على الذهاب إلى المساجد وخلقت جيلاً مسلمًا مثقفًا مواليًا للدولة.

أيّد عبد الحميد الثاني الطائفة النقشبندية الصوفية لما لها من إمكانات تعبئة قوية ونهج مؤيّد للدولة وموقف مناهض للمسيحيين

كان هدف الدولة الأساسي من تعليم المسلمين في المناطق الحدودية ضمان ولائهم. والمثير للاهتمام افتتاح الدولة العثمانية مدارس قبليّة في مقاطعات حدودية حساسة، بدءًا من العام ١٨٨٩، لشراء ولاء نخب الجيل الجديد عبر تحويلهم إلى بيروقراطيين من الرتب المتوسّطة. ولضمان ولاء القبائل الحدودية وتشجيع زعمائها على إرسال أطفالهم إلى هذه المدارس، منحهم عبد الحميد الثاني ميداليات إمبراطورية وأوشحة الشرف.

عندما أطيح بعبد الحميد الثاني في العام ١٩٠٩، كانت الطبقة الوسطى المسلمة منظّمة بالفعل: طبقة وسطى تركيّة قوميّة علمانيّة مؤلّفة من ضباط وبيروقراطيين، وطبقة وسطى ذات توجّه ديني في المناطق الحدودية. لاحقًا، شكّلت هاتان الطبقتان، بالإضافة إلى اللاجئين المسلمين من البلقان، العمود الفقري للطبقة الوسطى التركيّة الحديثة التي تأسّست على أنقاض البرجوازية الأرمنية ورأس مالها.

الطريق إلى الإبادة الجماعيّة

يُعدّ انقلاب «تركيا الفتاة» في العام ١٩٠٨ ثورة برجوازيّة ضد دولة رجعيّة. على الرغم من انقسام الطبقة الوسطى التركيّة بين المعسكر «القومي العلماني» (المدعوم من الجيش) والمحافظين (المدعومين من علماء الدين)، فإنّ عداوتهما للطبقة الوسطى غير المسلمة وتصميمهما على تدميرها كانا من العوامل الموحّدة التي لعبت دورًا حاسمًا خلال الإبادة الجماعيّة. بالنسبة إلى المسلمين المحافظين، هدّدت حقبة النظام الدستوري بعد العام ١٩٠٨ علاقتهم التقليدية مع الأرمن، ولعبت التكنولوجيا دورًا أيضًا بعدما أدخل الأرمن ابتكارات في الزراعة، مثل المحاريث والمضارب البخارية وآلات الحصاد، أدّت إلى تفاقم بؤس المزارعين المسلمين الذين دعموا حركة مضادة للثورة في العام ١٩٠٩، خوفًا على مستقبلهم الاقتصادي وتشكيكًا في ثورة ١٩٠٨، وذلك من خلال مهاجمة الأرمن واتهامهم بدعم ثورة ١٩٠٨. وقعت إحدى أكبر المذابح في أضنة، المركز الاقتصادي لمنطقة كيليكيا. بالعودة إلى ذلك الوقت، نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» في ٢٥ نيسان/أبريل ١٩٠٩ مقالاً بعنوان «الثروة الأرمنيّة تسبّبت في مذابح»، وحاججت بأنّ نحو ٦٠ ألف فلّاح مسلم، ممن جاؤوا ليعتاشوا من العمل الموسمي بالقرب من أضنة، شاركوا في التحريض على المذبحة. على الرغم من أنّ حكومة تركيا الفتاة قمعت الحركة المضادّة للثورة، إلّا أنها تقصدت عدم التدخّل لمنع المجزرة، وشاهدت حرق مركز الطبقة الوسطى الأرمنيّة في كيليكيا.

شكّل تدمير أضنة الإنذار الأخير للطبقة الوسطى الأرمنية. لكن فشِل الأرمن في توقّع الخطر المحدق بهم مع تدفّق اللاجئين المسلمين إلى أراضيهم. في العام ١٨٥٩، أنشأت الدولة العثمانية «لجنة إداريّة عامّة للمهاجرين» لإعادة توطين اللاجئين المسلمين في الإمبراطورية وفقًا لسياسة مركزيّة مخططة. أصبح لاجئو القوقاز ولاحقًا البلقان (بعد حروب البلقان ١٩١٢ - ١٩١٣) مشاركين في الجهود العثمانية لفرض سيطرة أكبر على أصعب منطقة سياسية في الإمبراطورية. أظهر هؤلاء اللاجئون (٢٠٠,٠٠٠ من شمال القوقاز و٤٠٠,٠٠٠ من البلقان) ولاءً تامًّا للدولة العثمانية وأعيد توطينهم في مناطق مسيحية، وقد سيّرتهم غالبًا مشاعر الكراهية التي لعبت دورًا رئيسيًّا في المذابح التي ارتكبت بحقّ العثمانيين المسيحيين ونهب عقاراتهم في تسعينيات القرن التاسع عشر. يقول المفكّر القومي التركي خالد أديب «إنّ العدد الهائل من أتراك البلقان واللاجئين الذين تدفّقوا إلى القسطنطينيّة والأناضول، حاملين رواياتهم المروّعة عن الاستشهاد والمعاناة على أيدي مسيحيي البلقان، أثار تعاطفًا استثنائيًّا مع كلّ ما كان تركيًّا في تلك الأيام».

ما لم يذكره كثرٌ من المؤرّخين الذين تناولوا قضية لاجئي البلقان هو أنّ الوضع في البلقان مختلف تمامًا عن وضع الأناضول. كانت غالبيّة الأراضي مملوكة من المسلمين يزرعها فلّاحون مسيحيون، قبل أن يدركوا فجأةً أنّ الفلّاحين أطاحوا بهم. عندما أعيد توطينهم في الأناضول، اعتبروا أنّ الفلاحين الأرمن المسيحيين مصدر تهديد لهم، وعليهم بالتالي الانتقام من معاناتهم في البلقان. حمل اللاجئون المسلمون الذين تدفّقوا من البلقان معهم إلى الأناضول توتّرات عرقيّة ودينيّة وأعادوا إحياء توتّرات قديمة. والجدير ذكره أنّ فلّاحي البلقان شكلوا قاعدة قويّة للقومية السلافية، لذلك اعتُبِر الفلاحون الأرمن استمرارًا أو امتدادًا «للمسيحيين الأشرار» و«الفلّاحين العصاة».

يقول المؤلف والكاتب التركي خليل كارافيلي إن الأتراك خشوا من «الانقراض الجسدي» بعد حروب البلقان، فالعديد من قادة «جمعيّة الاتحاد والترقّي» هم من أصل بلقاني، ومن ضمنهم مصطفى كمال أتاتورك. وقد خلصوا، بعد نزوحهم من قراهم الأصليّة، إلى أنّ لا مستقبل لهم في دولة عثمانية متعددة الأعراق، فعليهم بالتالي إنشاء كيان تركي متجانس. مع تقدم القوات الروسية، شعرت حكومة «الاتحاد والترقّي» بالقلق من انتفاضة أرمنيّة تقتطع الأرض الخصبة المهمّة اقتصاديًا في شرق الأناضول وتضمّها إلى الإمبراطورية الروسية. فانخرطت «الجمعية» في ما اعتبرته صراعًا من أجل بقاء العرق التركي، واستعدّت لإنشاء ملاذ آمن عبر تدمير العنصر المسيحي غير التركي في الإمبراطورية. المثير للاهتمام، أنّ كارل ماركس وفريدريك إنغلز تحدّثا عن هذا السيناريو، توقّعا انحصار الوجود العثماني التركي في آخر معاقله بآسيا الوسطى وأرمينيا، بعدما فشلوا في الصمود في البلقان.

توقع ماركس وإنغلز انحصار الوجود العثماني في آخر معاقله بآسيا الوسطى وأرمينيا، بعد الفشل بالصمود في البلقان

مع تدفّق اللاجئين المسلمين إلى الأناضول، اكتسب مفهوم إجلاء جماعات معيّنة لضمان هوية عرقية أقرب إلى المرغوب لدى حكومة «الاتحاد والترقّي» تبريرًا آخر: يمكن إعادة توزيع ممتلكات المرحَّلين على اللاجئين المسلمين المعوزين الوافدين، فكان هذا أحد أبرز التبريريات لعمليّات ترحيل الأرمن الأولى التي بدأت في العام ١٩١٥. أصدر وزير الداخلية في الدولة العثمانية، طلعت باشا، مرسومًا في ٦ كانون الثاني/ يناير ١٩١٦ ينصّ على أنه «يجب حفظ الممتلكات المنقولة التي تركها الأرمن للمدى البعيد، ومن أجل توسيع أعمال المسلمين في بلدنا، يجب التشدّد في ضرورة تأسيس شركات يملكها المسلمون حصرًا». بعد صدور المرسوم، تحوّلت المدارس الأرمنية الخاصة إلى مدارس تركية عثمانية، ووُزّعت اللوازم المدرسية على السكان المسلمين الأتراك. يشير أبراهام هاروتيونيان في مذكّراته، وهو قسّ يعيش في بلدة زيتون، إلى أنّ الحكومة صادرت مدرسة زيتون، بحيث «حُرم الأرمن من الحقّ في التعليم، وباتت المدارس مليئة بمئات الأطفال الأتراك».

أمّنت المصادرات التي أكملت الإبادة الجماعية «مُهر» القاعدة الرأسمالية لدولة تركيا الجديدة. في نهاية الحرب العالمية، لم تعد البرجوازية المسيحية تسيطر على الاقتصاد العثماني. صودرت ٨٠ ٪ من المصانع التي كانت مملوكة من غير المسلمين في العام ١٩١٣، وسُلِّمت إلى المسلمين (تحديدًا العائلات التركية النافذة). كانت «تركيا الفتاة» مصمّمة على الاستمرار في مشروع عبد الحميد لخلق طبقة وسطى. رأوا إلى أنّ الرأسمالية وإنشاء طبقة وسطى يتلازمان مع مصير الدولة المتجانسة الناشئة. وهكذا، كان حزبهم الداعي إلى فكرة بقاء الدولة التركيّة على «رأسمالية الوطنية». فنجحوا في إطلاق برنامج لهندسة اجتماعية وسياسية من أجل خلق برجوازية قابلة للبقاء حتى بعد حلّ حزبهم. بناءً عليه، كانت الطبقة البرجوازيّة التركية القوية الناشئة ضمانة لاستمرارية الأيديولوجيا القوميّة لـ«تركيا الفتاة». بين عامَي ١٩١٣ و١٩١٤ دعت «تركيا الفتاة» المسلمين إلى مقاطعة المتاجر الأرمنية واليونانية. وعندما بدأت الحرب، عرضت عليهم فرصة لطرد البرجوازية المسيحية وإعادة توزيع ثروتها على برجوازية تركية مسلمة. لقد كانت حربًا طبقيّة ناجحة مهّدت الطريق لظهور تركيا الحديثة. دولة ذات «اقتصاد وطني» تسيطر عليها «برجوازيّة وطنيّة».

خلاصة

لا شك في أنّ الاقتصاد الرأسمالي للدولة التركيّة الجديدة تأسّس على نهب العثمانيين الأرمن. تُعتبر الحالة التركيّة التجسيد الأفضل لما قاله ماركس من أنّ «رأس المال يولد مُغطّى بالدماء والأوساخ». استملكت الدولة مدّخرات العثمانيين المسيحيين وشركاتهم التجارية ومحلّاتهم

الحرفيّة وأراضيهم الزراعيّة ومصانعهم، وسلّمتها إلى مسلمين من الطبقة الوسطى، شكّلوا في ما بعد الجزء الأكبر من البرجوازية التركية في العصر الجمهوري.

تقدّر قيمة الملكيّات العقاريّة الأرمنيّة المسلوبة بالمليارات. هناك أمثلة واضحة عن هذا الواقع؛ فعلى سبيل المثال، تُعدّ تركيا حاليًّا أكبر منتج للبندق في العالم وتسيطر على ٧٥٪ من الإنتاج العالمي. لكن قبل الإبادة الجماعيّة، كان إنتاج البندق ممسوكًا من الأرمن، إذ كان أكثر من نصف منتجي البندق في الإمبراطورية الذين يربو عددهم على مائة منتج من الأرمن، وفقًا للإحصاءات العثمانية. ينطبق الأمر نفسه على صناعة القطن. تركيا الحالية هي سابع منتِج للقطن في العالم. قبل الإبادة الجماعيّة، كانت كيليكيا مركز صناعة القطن في الإمبراطورية.

قاتل الجمهوريون بشدّة لاستعادة كيليكيا من الفرنسيين إدراكًا منهم لأهمّيتها الاقتصاديّة لمستقبل الجمهورية. في العام ١٩٢٣، عندما زار مصطفى كمال أضنة، ألقى خطابًا قال فيه: «ليس للأرمن أدنى حقّ في هذه الأرض الخصبة. هذه الأرض ملك الأتراك وسوف تبقى كذلك إلى الأبد. هذه الأراضي هي الجوهر العميق والأساسي لتركيا».

عام ٢٠٠١، أصدرت تركيا قرارًا بنقل ملكيّة جميع الأملاك «المهجورة» المتبقية إلى الحكومة، وحظر الكشف عن أي معلومات تتعلّق بسندات ملكيّتها

في ١١ حزيران/ يونيو ١٩٨٦، أُلغِيت القوانين المتعلّقة بالممتلكات «المهجورة» خلال الإبادة الجماعيّة للأرمن بعد ٧٣ عامًا على صدورها. استمرّت هذه الأنظمة طوال الفترة الجمهورية في تقديم الأساس القانوني للممتلكات الأرمنية المصادرة التي لم تكن قد وزِّعت بعد على الأتراك. وعلى الرغم من إلغاء القوانين في ١٩٨٦، أصدرت «المديرية العامّة للتسجيل والمسح العقاريين» التركيّة قرارًا في ٢٩ حزيران/ يونيو ٢٠٠١ يقضي بنقل ملكيّة جميع الأملاك «المهجورة» المتبقية إلى الحكومة، ويحظر الكشف عن أي معلومات تتعلّق بسندات ملكيّتها أو أي وثائق مرتبطة بها. نتيجة ذلك، لم يتمكّن أصحاب الأملاك الأرمن واليونانيون، أو ورثتهم، من رفع دعاوى مرتبطة بهذه الممتلكات التي أصبحت ملكًا للجمهورية التركية.

المراجع:

- Bedross Der Matossian, “The Taboo within the Taboo: The Fate of ‘Armenian Capital’ at the End of the Ottoman Empire”, *European Journal of Turkish Studies, Social Sciences on Contemporary Turkey*, 2011, pp. 1-23.
- Cem Emrence, *Remapping the Ottoman Middle East; Modernity, Imperial Bureaucracy and Islam*, London: I.B. Tauris, 2016.
- Halil Karaveli, *Why Turkey is Authoritarian, From Ataturk to Erdogan*, London: Pluto Press, 2018.
- Heather J. Sharkey, *A History of Muslims, Christians and Jews in the Middle East*, UK: Cambridge University Press, 2017.
- Heather J. Sharkey, “American Missionaries in Ottoman Lands: Foundational Encounters”, *Department of Near Eastern Languages and Civilizations*, University of Pennsylvania, 2010, pp. 1-16.
- Kevork K. Baghdjian, *The Confiscation of Armenian properties by the Turkish Government Said to be Abandoned*, Antelias: Printing House of the Armenian Catholicosate of Cilicia, 2010.
- Laura Robsen, *States of Separation: Transfer, Partition, and the Making of the Modern Middle East*, California: University of California Press, 2017.
- *Prof. Ugur Ungor on Property Confiscation during Armenian Genocide* (April 30, 2012), YouTube, published on May 12, 2012
- Taha Parla and Andrew Davison, *Corporatist Ideology in Kemalist Turkey: Progress Or Order?* New York: Syracuse University Press, 2004.
- Ugur Ungor and Mehmet Polatel, *Confiscation and Destruction: The Young Turk Seizure of Armenian Property*, UK; Bloomsbury Academic, 2013.
- Ussama Makdisi, *Artillery of Heaven; American Missionaries and the Failed Conversation of the Middle East*, USA: Cornell University Press, 2008.

الهجرة المشرقية العربية في أميركا اللاتينية ٢/٢
أثرياء، حكّام، سياسيون، فنّانون

بول الأشقر

صحافي، لبنان

سياسيون نخبويون وشعبويون

يمثّل تفاعل الجالية العربية مع مجتمعها دليلاً حسّيًا على فاعلية المختبرات الأميركية اللاتينية كأرضية صالحة للاندماج. إلى ذلك، شكّل عددٌ من ميزات الاجتماع العربي دفعًا لهذه الآلية الاندماجية. من بين تلك الميزات الانتشارُ الأفقي للجالية حيث باتت موجودة في كلّ البلدان من دون أن تضغط ديموغرافيًّا، ما قد يولّد ردة فعل عليها. ومن بين تلك العوامل أيضًا، سرعة الصعود الاقتصادي أو المجتمعي أو الثقافي الذي بدا واضحًا منذ الجيل الثاني. يفسّر تمازجُ هاتين الميزتين الصعودَ السياسي داخل الجالية والذي يترافق مع انتقال النخب تدريجيًا نحو العواصم والمدن الكبيرة كتتويج لمسار مركّب من الصعود الاجتماعي القائم على الاستقرار الاقتصادي والتخصص الدراسي والتزاوج من خارج الجالية.

بعيدًا من «ثقافوية» مفتعلة، يحلو للباحث خوليو بيتانكور أن ينسب هذا الصعود- الذي لا ينحصر في المراكز الوطنية، بل يشمل المواقع المحلية والمهنية والرياضية- إلى «نزعة نحو الريادة باتّجاه الوسط القابل لبلورتها». إن هاتين الميزتين مجتمعتين جعلتا وظيفة التمثيل السياسي مستقلة عن قاعدتها الإثنية، بمعنى أنه لو طُبّق على الأخيرة ما نسمّيه في القاموس اللبناني الطائفي «التمثيل»- والمقصود ما تمثله الحصة نسبةً إلى العدد- لتبيّن بوضوح أن الجاليات عربية الأصل ممثَّلةٌ بما يفوق وزنها العددي بين السكان، (ولا تسبقها، على الأقل في البرازيل- بحسب البروفيسور سيرجيو لامارون- سوى الجالية الإيطالية).

في عدد كبير من دول أميركا اللاتينية، انقسمت المجتمعات حول ثنائية حزبية محافظة/ ليبرالية، وهو ما يشبه القسمة بين الحزبَين «الجمهوري» و«الديموقراطي» في الولايات المتحدة. كان أسهل على السياسيين من أصل عربي الانتساب إلى «الحزب الليبرالي» لأن «الحزب المحافظ» كان عادةً حزب ملّاك الأراضي والبرجوازيات القديمة. تمثل عائلة طربيه في كولومبيا حالة نموذجية عن هذا المنحى. عام ١٩٤٦، ترشح الطبيب غبريال طربيه عن «الحزب الليبرالي» ولم ينجح بسبب تفتّت أصوات الليبراليين بين مرشحَين، بعكس خوليو سيزار طربيه الذي ترشح وفاز عن الحزب نفسه بعد ثلاثين عامًا.

أبعد من الانتساب الحزبي التقليدي الذي تراجع مع مرور السنين أمام أشكال جديدة، يمينًا ويسارًا، يمكن تمييز طريقين للاختراق السياسي. الأول، قريب من الفكر المحافظ ومن الطبقات الحاكمة، وهو، بحسب لامارون، يمرّ عادةً من رئاسة الطامح إلى المنصب مؤسساتٍ اقتصاديةً كجمعية التجار أو الصناعيين، أو من خلال خبرة اكتسبها قبل أن يضع نفسه بخدمة أقارب هم من أغنياء البلد أو أقويائها. والثاني، ناتجٌ ممّا يسمّيه بيتانكور «قدرة الاقتراب من الشعب»، ويمكن وصف تلك القدرة بأنها «شعبية» أو «شعبوية» بالمعنى الأصلي للكلمة، برغم اختلاف نماذجها اليمينية واليسارية.

في الرئاسة والنضال الشيوعي

نستعرض في ما يلي بعض الأمثلة لإلقاء الضوء على هذه الثنائية، وكان يمكن استعراض عشراتٍ غيرها من تلك الدول أو من دول أخرى. نبدأ من الأرجنتين، ومن الرئيس كارلوس منعم، الذي قد يكون أشهر سياسي من أصل عربي في القارة الجنوبية. منعم من أصل سوري، احتلّ سدّة الرئاسة لولايتين خلال أكثر من عقد، وهو رقم قياسي في تاريخ البلد. انتُخب ممثلاً عن «الحزب البيروني» عام ١٩٨٩ للمرة الأولى، و١٩٩٥ للثانية. لكنه سرعان ما صار يمثّل «المِنعمية»، أي صار يخدم مصلحته الشخصية، إلى درجة أنّ عدد خصومه داخل «الحزب البيروني» فاق عدد حلفائه، ما يفسّر نجاحهم في منعه من العودة إلى السلطة لاحقًا. ويمثّل منعم، الذي خصخص

الاقتصاد، نموذجًا للشعبوية «اليمينية» القادرة على التواصل والتحالف في الاتجاهات كافة.

من بين الوجوه السياسية الأخرى المرموقة من أصل عربي التي سبقت منعم، نذكر فيسينتي سعدي، وهو زعيم مناطقي وأحد أركان «الحزب البيروني» خلال الأربعينيات. أما فرناندو ندرا فمثّل نموذجًا آخر، إذ كان محاميًا وصحافيًا لامعًا، وكان سبّاقًا في كل مواقفه داخل «الحزب الشيوعي»؛ من محاربة الفاشية في الأربعينيات، إلى فتح الحوار مع الكاثوليك في الخمسينيات، وصولاً إلى دعم الثورة الكوبية خلال الستينيات. وكان ندرا من أبرز المدافعين عن حقوق الإنسان خلال فترة الدكتاتوريّتين العسكريتين ومن أهم مهندسي الجبهات الحزبية لاستعادة الديموقراطية. في أواخر حياته، استقال من «الحزب الشيوعي» بعد اعترافه بفشله في «تغيير منحاه الستاليني»، لكنه رفض الترشح على لوائح أخرى بالرغم من الدعوات التي وجهتها له أكبر الأحزاب.

على العكس من ندرا، فضّل فكتور مسّوح أحد ألمع الفلاسفة الأرجنتينيين، قبول المراكز التي عرضتها عليه الدكتاتورية العسكرية الثانية (١٩٧٦-١٩٨٣) والدفاع عنها في المحافل الدولية مثل «الأونيسكو».

خوليو سيزار طربيه





عبدالله بو كرم



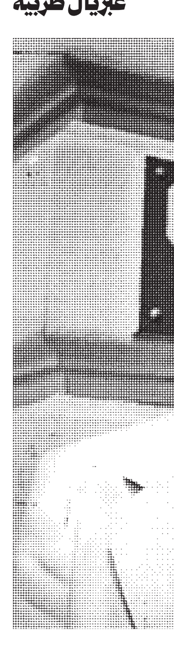


بين آل بو كرم وآل معوّض

أمّا في الإكوادور فأشهر شخصية سياسية من أصل لبناني هي أسعد بو كرم، رئيس اللجنة الأولمبية وعمدة مرفأ «غوياكيل»، المدينة الأولى في البلاد. حاربته الدكتاتوريات العسكرية فأجبر على مغادرة البلد أكثر من مرة، ومنعته من الترشح لرئاسة الجمهورية عام ١٩٧٨ لكنه نال أكبر عدد من الأصوات في انتخابات مجلس النواب ونجح في إيصال مرشحه خايمي رولدوس، المتأهل من ابنة أخيه، لرئاسة الجمهورية.

ترأس بو كرم مجلس النواب بعد وفاة الرئيس رولدوس وزوجته في حادث طائرة تحوم حول المخابرات الأميركية شكوك كبيرة بتدبيره. بعد وفاة رولدوس، أسس شقيق زوجته، عبدالله بو كرم، مديرُ الشرطة في غوياكيل، حزبًا سياسيًّا باسم «الحزب الرولدوسي» وسرعان ما سار على خطى عمّه أسعد. شغل بو كرم منصب عمدة غوياكيل عام ١٩٨٤ قبل أن يغادر البلد بسبب انتقاداته للقوات المسلّحة. ووصل إلى

غبريال طربيه



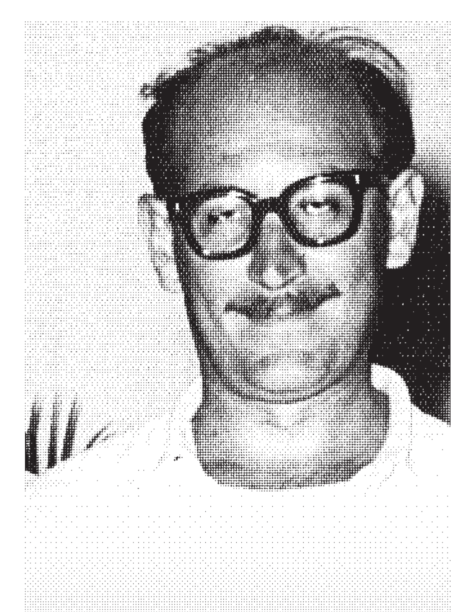
لولا وفرناندو حدّاد



خوان ليشين أوكيندو



فرناندو ندرا



جميل معوّض



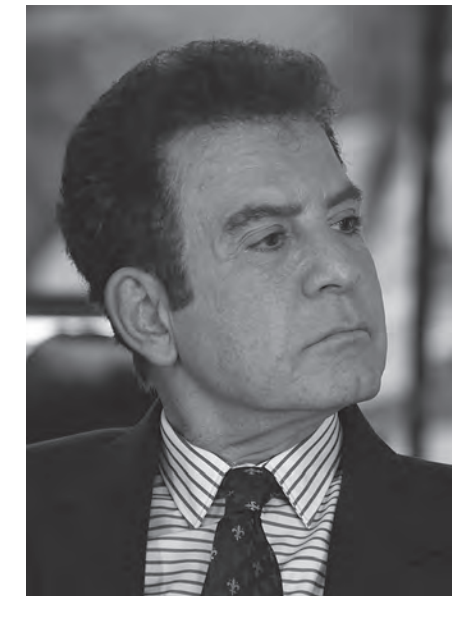
شفيق حنظل



كارلوس سْليم



سالفادور نصرالله



سدة الرئاسة بعد محاولته الثالثة عام ١٩٩٦. لم تكن له سمات السياسي «الشعبوي» المتكامل- حافظ على الشكليات التي يسير عليها أبناء النخبة خلال اجتماعات مجلس الوزراء، مع أنه شارك في برامج فكاهية ووضع اسمه على قناني الحليب التي كانت توزّع على الفقراء. لم تدُم رئاسة بو كرم أكثر من خمسة أشهر ونصف، إذ أقاله مجلس النواب بعد «التشكيك بقدراته الذهنية» وبعدما قررت النخب الإيكوادورية إطاحته بالتوافق بين كل الرؤساء السابقين وعمدة العاصمة كيتو جميل معوّض ونزولاً عند ضغط التظاهرات الشعبية.

عام ١٩٩٨ انقلبت الآية: انتُخب جميل معوّض بعد محاولته الثانية اعتلاء المنصب بفارق بسيط ضد مرشح «الحزب الرولدوسي». وجميل ابن مهاجر لبناني وأم ألمانية، ويمثل نموذجًا «نخبويًا»، بعكس نموذج بو كرم «الشعبوي». متخصص في الإدارة العامّة، أثبت جدارته في العاصمة كيتو التي هي المنافسة الدائمة لغوياكيل. بدأ ولايته بالتوصل إلى حلّ نهائي للخلاف الحدودي التاريخي مع بيرو، لكن سرعان ما نالت من معوض ذيول الأزمة الاقتصادية الناجمة عن إفلاس النظام المصرفي. حاول بدايةً إنقاذ المصارف بتوفير الموارد من احتياط المصرف المركزي، ثم أُجبر على حجز ودائع الناس قبل اللجوء إلى دولرة الاقتصاد، فحلّت العملة الخضراء محل العملة الوطنية، ما زاد التضخم بشكل جنوني. كلّفت السياساتُ المتتالية الإيكوادورَ ستة مليارات دولار، ما سمح لنخب غوياكيل بأن تعود وتنتقم هذه المرة من كيتو ومن ممثلها في السلطة. كما دخلت الشعوب الهندية لاعبًا جديدًا، ما جعل القوات المسلّحة ترفع غطاءها عن معوّض الذي أُقيل بدوره بعد سنة ونصف السنة من تولّيه الرئاسة.

نالت من معوّض الأزمة الاقتصادية الناجمة عن إفلاس النظام المصرفي. حاول إنقاذ المصارف من احتياط «المركزي» قبل اللجوء إلى دولرة الاقتصاد

السياسيون الفلسطينيون في أميركا الوسطى

ننتقل إلى أميركا الوسطى حيث السياسيون من أصل عربي فلسطينيون. عام ١٩٩٨، انتُخب مرشح الحزب الليبرالي كارلوس روبيرتو فقّوسة رئيسًا لدولة هوندوراس- وأصل عائلته من بيت لحم. عُرف عن عمّه ميغيل أنه ظل أغنى رجل في هوندوراس خلال عقود، واشتهر بقمعه احتجاجات العمّال الزراعيين على أراضيه. لم يتلطخ كارلوس بهذه القربى وتميّز بإدارة حكيمة للبلد تحت إشراف صندوق النقد الدولي عندما ضربه إعصار «هيتش» الذي خلّف ستة آلاف قتيل واثني عشر ألف مفقود ودمّر ثلث طرق المواصلات. عام ٢٠١٤، انتُخب خوان أورلاندو هرنانديز رئيسًا للجمهورية وتميّزت ولايته بتفشّي الفساد. عام ٢٠١٨، أراد تجديد الولاية مخالفًا الدستور، فترشح ضده سالفادور نصرالله، وهو صحافي رياضي ومذيع تلفزيوني كان قد أسّس عام ٢٠١١ «حزب محاربة الفساد». ويُجمع المراقبون المحليون والدوليون على أن نصرالله هو الذي فاز في الانتخابات عام ٢٠١٨ وأن النتائج التي أعلنت فوز هرنانديز مزوّرة. وفي انتخابات العام ٢٠٢١، انتُخب نصرالله نائبًا للرئيسة شيومارا كاسترو، زوجة الرئيس مانويل زيلايا الذي أقاله انقلاب عسكري مدعوم من الولايات المتحدة في ٢٠٠٩ عندما اقترب من الرئيس الفنزويلي الراحل هوغو شافيز.

بموازاة الحرب الدائرة في نيكاراغوا، عرفت السلفادور، أصغر دولة في أميركا الوسطى، حربًا دامت من عام ١٩٨٠ إلى ١٩٩٢، وكلّفت آلاف القتلى والمفقودين. وقد تحوّلت الأطراف العسكرية بعد انتهائها إلى أحزاب سياسية متنافسة على السلطة. عام ٢٠٠٤، كان أبرز المرشحين إلى الرئاسة أنطونيو سقّا (٣٩ عامًا) عن الحزب اليميني «أرينا»، وشفيق حنظل (٧٤ عامًا) وهو قائد «جبهة فرابندو مارتي» اليسارية. الطريف في الموضوع، أن أصل العائلتين من بيت لحم، وقد وصلتا إلى السلفادور بين عامَي ١٩٠٤ و١٩٠٨. بعد حقبة في التجارة المتجوّلة، صارت عائلة حنظل من العائلات الكبرى وعملت في قطاع مواد البناء وتملّكت ملّاحة. أما عائلة سقّا فكانت تعمل في تجارة النسيج ثم دخلت قطاع زراعة القطن. وبين العائلتين زيجات وصداقات، فأهل شفيق كانا شاهدَي زواج أهل أنطونيو. وبحسب بعض الأقوال، شفيق اليساري هو مَن حمَل الرضيع أنطونيو، اليميني اليوم، بين ذراعيه عند عمادته. وشفيق هو أمين عام «الحزب الشيوعي» منذ عام ١٩٧٤. أما أنطونيو، فبدأ حياته مذيعًا رياضيًا وقد كسب شعبية مميزة قبل أن يتقرّب من الحزب الحاكم ومن المليشيات اليمينية ليصبح مرشح ذاك وتلك على الرئاسة. فاز سقّا بنسبة ٥٧٪ من الأصوات فيما لم ينَل حنظل إلا ٣٨٪.

بعد أربع ولايات يمينية متتالية، نجح اليسار في الوصول إلى السلطة لمرّتين متتاليتين في السلفادور. تناوب الحزبان على السلطة من دون أن يحلّ أيّهما مشاكل الناس في اقتصادٍ يتحكم به سعر طنّ القهوة فيما تتضخم مشاكل الأمن أمام انسداد الفرص. سمح هذا الواقع لشابّ فلسطيني الأصل يدعى نجيب بوكيلة بأن يشقّ طريقه نحو الرئاسة عام ٢٠١٩ على حساب

الحزبَين. ونجيب ابن أرماندو بوكيلة رجل أعمال. وأرماندو ابن مهاجر مقدسي وسيدة من بيت لحم. اعتنق أرماندو الإسلام في السبعينيات وصار إمام الجالية المسلمة في السلفادور إلى جانب أعماله التجارية. وكانت شركة «ألرماندو» تشرف على دعاية جبهة «فرابندو مارتي»، ما ساهم في أن يصبح ابنه نجيب عمدةَ العاصمة باسم الحزب اليساري حيث كان أداؤه مميزًا. لكنّ نجيب ترك الجبهة اليسارية لاحقًا ليؤسس حزبًا جديدًا، وقد تمّ انتخابه رئيسًا للجمهورية من الجولة الأولى، فكان أول رئيس لا ينتمي إلى أيّ من الحزبين.

استثمر نجيب بوكيلة رفضَ الناس للأحزاب ومارس سياسةً متشددةً في محاربة الجريمة تسمح له ببناء نوع من «الشعبوية» الجديدة. فور وصوله إلى السلطة، حلّ بوكيلة الهيئة الموكلة بمحاربة الفساد ودخل في صراع مفتوح مع القضاة. حوّل السلفادور إلى أول بلدٍ في العالم يتبنّى عملة «البيتكوين»، في خطوةٍ يخشى بعضُ الاقتصاديين أن تؤدي إلى كارثة. وقد وضع أشقاءه في مراكز حساسة في الدولة، ويعتقد الكثير من المراقبين أنه سيحاول تجديد الولاية، الأمر الذي يمنعه الدستور. وبالرغم من شعبيته الكبيرة، انقسمت الجالية الفلسطينية حول أداء بوكيلة لأنه زار فلسطين المحتلة كرئيس للسلفادور.

كان خوان ليشين على رأس عمّال المناجم الذين احتلوا قيادة أركان الجيش واقتحموا القصر الجمهوري، كما أسّس «الاتحاد العمّالي البوليفي»

في بوليفيا، لا يمكن تجاهل شخصية سياسية مثل خوان ليشين أوكيندو. والأخير ابن مهاجر لبناني وأم بوليفية، وهو بلا منازع أهمّ شخصية نقابية في القرن العشرين عرفها البلد الذي يشكّل الهنودُ أكثر من ثلثَي سكّانه. في شبابه، كان خوان ليشين لاعب كرة قدم ماهرًا وصار «كابتن» المنتخب الوطني. عُيّن محافظًا في منطقة المناجم، الأمر الذي قرّبه من العمّال. وقف إلى جانبهم في نزاعاتهم مع الشركات فدعوه عام ١٩٤٤ إلى أول مؤتمر لعمّال المناجم، ثم انتخبوه في العام التالي أمينًا تنفيذيًّا للنقابة، وبقي في هذا المركز حتى ١٩٨٧. قاد ثورة عام ١٩٥٢ التي أوصلت «الحركة الوطنية الثورية» إلى السلطة. وكانت الحركة ائتلافًا بين السياسيين والنقابيين، وبين الليبراليين والشيوعيين. خلالها، كان خوان ليشين على رأس عمّال المناجم الذين احتلوا قيادة أركان الجيش واقتحموا القصر الجمهوري. أسس «الاتحاد العمّالي البوليفي» عام ١٩٥٢ وقاده حتى ١٩٨٧. انتُخب نائبًا للرئيس من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٤، ثم اختلف مع سياسيّي الحزب وأسس حزبًا يساريًّا جديدًا. كان خوان ليشين دائمًا في طليعة مقاومي الانقلابات العسكرية المتتالية، وقد عُرف بصانع الرؤساء.

من سيخلف لولّا؟

أخيرًا وليس آخرًا، تأتي البرازيل. يرى لامارون، الذي درس «تأثير أبناء السوريين واللبنانيين في البرلمان البرازيلي بين ١٩٤٥ و١٩٨٨»، أن صعود هؤلاء بدأ خلال الثلاثينيات لكنّه تسارع بعد سقوط نظام «الدولة الجديدة» في نهاية الحرب العالمية الثانية. على الصعيد الشعبي، راوحوا مكانهم خلال النظام العسكري (١٩٦٤- ١٩٨٤) الذي علّق الانتخابات مع أنّ العسكر عيّنوا سعيد فرحات وزيرًا للإعلام في نهاية السبعينيات (قبل أن يقيلوه)، وإبراهيم أبي عقل وزيرًا للعدل. في ظلّ النظام العسكري، كان باولو معلوف أبرز شخصية سياسية عربية. ترأّس جمعية تجّار سان باولو وهي أغنى ولاية برازيلية، قبل أن يعيّن عمدة المدينة نهاية الستينيات وحاكم الولاية نهاية السبعينيات. وكان أول رئيس جمهورية مدني في نهاية الحكم العسكري إلا أنّ شخصيته الحادّة شقّت حزب العسكر ما سمح بانتخاب مرشح المعارضة. وكان يقال عنه إنه «يسرق لكنه يعمل».

ومن الشخصيات التقليدية التي عارضت النظام العسكري تاسو جريصاتي في شمال شرق البرازيل، الذي انتُخب حاكمًا لولاية «سيارا»، وجوزي ريشا في الجنوب، الذي انتُخب حاكمًا لولاية «بارانا». ولا بدّ من ذِكر ميشيل تامر، نائب الرئيسة ديلما روسيف والذي تواطأ مع أعدائها لإقالتها عام ٢٠١٦. على الضفة الأخرى، ساهم جاكو بيطار، ممثّل نقابات عمّال النفط، في تأسيس «حزب الشغّيلة» إلى جانب إيناسيو لولّا دا سيلفا عام ١٩٨٠. ويُعتبر الأستاذ الجامعي فرناندو حدّاد (مواليد ١٩٦٣) من أبرز الشخصيات المقرّبة من لولّا. وقد ترشّح حدّاد إلى رئاسة الجمهورية بعد اعتقال الزعيم العمّالي بهدف منعه من الوصول للرئاسة عام ٢٠١٨، لكن اليميني جايير بولسونارو فاز بالرئاسة في الدورة الثانية. قبل ذلك، شغل حدّاد منصب وزير التعليم من ٢٠٠٥ حتى ٢٠١٢، وهو مصمّم برنامج «الجامعة للجميع» الذي يوزّع منحًا جامعيةً على الطلاب الفقراء. وقد انتُخب عام ٢٠١٣ عمدةً لمدينة سان باولو.

إلى ذلك، يُعتبر الطبيب النفساني غيليرمي بولس شخصيةً مقربةً من لولّا مع أنه لا ينتمي إلى «حزب الشغّيلة» بل إلى

حزب يساري آخر هو «اشتراكية وحرية» منشقٌّ عنه. وبولس هو المنسّق الوطني لـ«حركة الشغّيلة من دون سقف» في الوصول إلى الدورة الثانية في انتخابات عمدة مدينة سان باولو عام ٢٠٢٠. وفيما يمثّل حدّاد، وهو من أقرب المعاونين للولّا، اتجاهًا معتدلاً في «حزب الشغّيلة»، يذكّر غيليرمي بشخصية لولّا في الثمانينيات وقد أضاف إليها النضالات الجديدة مثل البيئة وحقوق الأقليات الجنسية والحق بالسكن وغيرها. ويبقى السؤال الذي ينقسم حوله المراقبون والمناضلون: مَن سيخلف لولّا عندما يحين الوقت؟ فرناندو أم غيليرمي؟

إغبرتو جيسمونتي





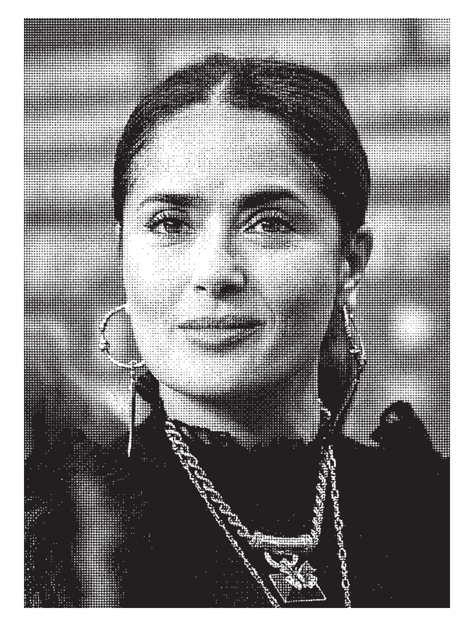
فرنـــــاندو حدّاد من أبرز الشخصيات المقربـــــة من لولّا، وقد ترشح إلى الرئاســـــة بعد اعتقال الزعيم العمّـــــالي

في الأدب والصحافة واللغة والاندماج

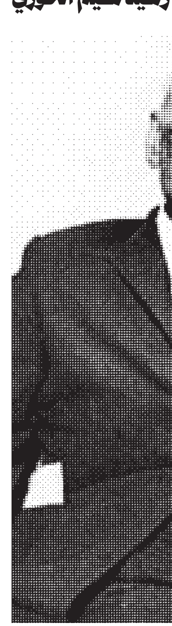
تأسست «الرابطة القلمية» في نيويورك داخل منزل جبران خليل جبران عام ١٩٢٠ وتفككت عام ١٩٣٢ بعد وفاته، وقد أرادت «أن تكون لأدباء المهجر رابطةً تضمّ قواهم وتوحّد مسعاهم في سبيل اللغة العربية وآدابها»، بحسب رواية ميخائيل نعيمة الذي كان أحد مؤسسيها. وكأنّ «العصبة الأندلسية» انتظرت أفول شقيقتها الكبرى في الولايات المتحدة لتنطلق في مطلع كانون الثاني/ يناير ١٩٣٣ في سان باولو بالبرازيل. وفي الحقيقة، قبل «العصبة»، كانت هناك جمعيات أدبية في أميركا الجنوبية، ومنها «رواق المعرّي» التي أسّسها نعوم لبكي عام ١٩٠٠ واستمرت حتى ١٩١٤.

بينما زاد عمر «الرابطة» على العقد بقليل، استمرّت «العصبة» لعقدين من الزمن وكانت اهتماماتها أوسع. أسّسها ميشيل معلوف، وترأسها بعد وفاته الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) ثم الشاعر شفيق المعلوف، وأضاف كلٌّ من هؤلاء إلى ميزاتها ميزات. وبينما تميّزت «الرابطة» بالتجديد، عُرفت «العصبة» بالأصالة الأدبية. كانت تغطي دولاً عدّة، وتطرح نفسها مكمّلةً لعلاقة أدبية بدأت في الأندلس بين الحضارة العربية والحضارات اللاتينية. كما ربطتها بدول المشرق علاقة وثيقة، ولم يتردّد أعضاؤها ومن لفّ لفّهم في التنديد بالعثمانيين ولكن أيضًا بالفرنسيين والإنكليز، والدفاع عن فلسطين، وصولاً إلى تأييد حركة الضبّاط الأحرار في مصر. ومع أن «العصبة»- كما تقول الباحثة كلود حجار-

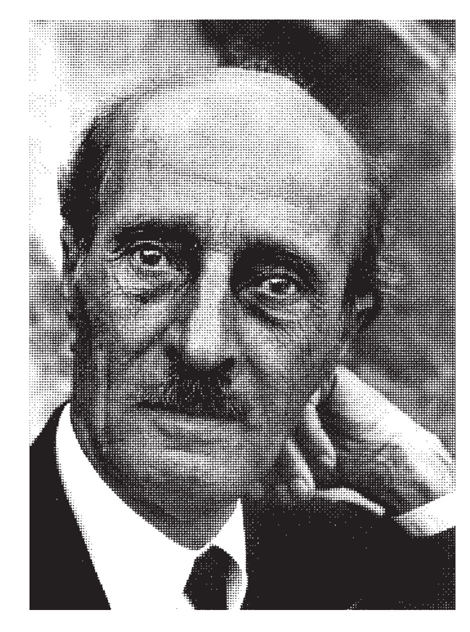
سلمى حايك



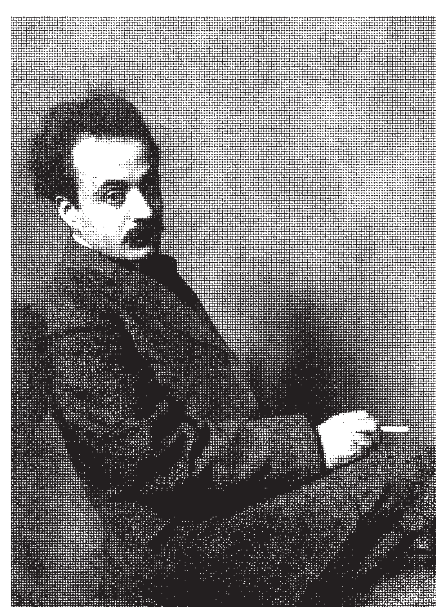
رشيد سليم الخوري



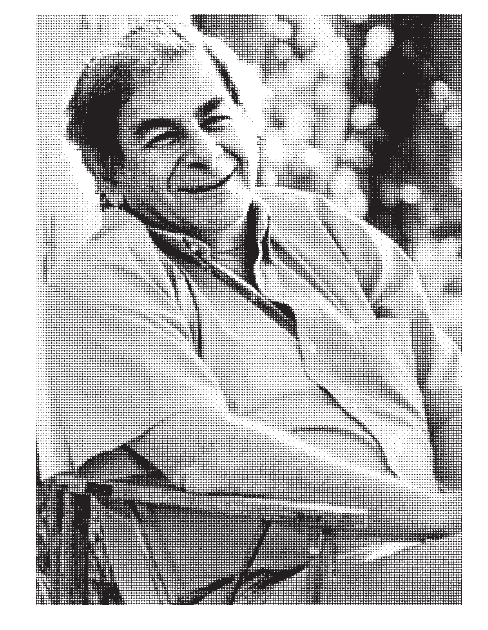
ميخائيل نعيمة



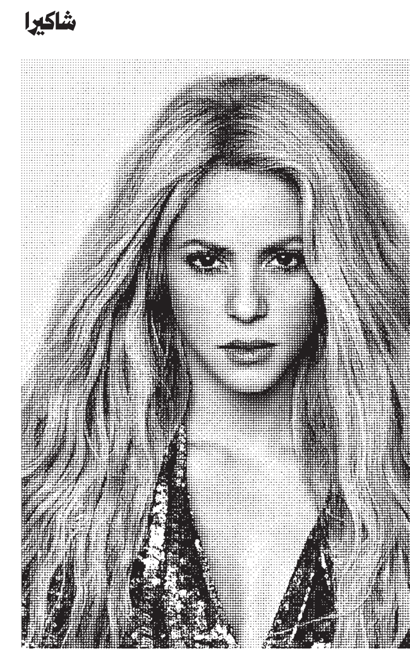
جبران خليل جبران



رضوان نصار



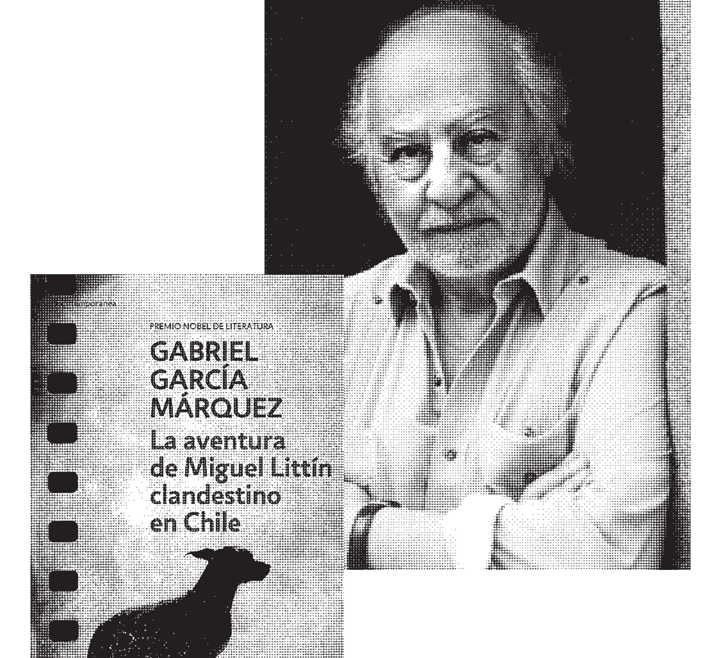
شاكيرا



كلوب ديبورتيفو پالستينو



ميغيل ليتين





شكّلت «مساحةً من مساحات اللغة في الأمة ولم تكن مجالاً من مجالات الجالية»، إلا أنها ساهمت في إنعاش الصحافة العربية في المهجر، وكانت لها مجلة أنيقة حملت اسمَها واستمرّت بالصدور حتى الخمسينيات.

ويُقدَّر عدد الصحف والمجلات والنشرات العربية في أميركا اللاتينية بحوالي ثمانمئة، نصفها تقريبًا في البرازيل بحسب سليمان زغيدور. وبين الباقي عددٌ لا يستهان به في الأرجنتين وتشيلي، على أنّ القسم الأكبر من تلك المطبوعات لم يعمّر طويلاً، وما استمرّ منه بدأ باللغة العربية ثم صار يصدر باللغتين العربية واللاتينية قبل أن يقتصر على الإسبانية أو البرتغالية. ولهذا التطور منطق داخلي مرتبط بتطور عملية الاندماج في دول أميركا اللاتينية. في البداية، كانت الصحف والنشرات تصدر لجمهورٍ حائرٍ بين البقاء والعودة، وكانت تنطق أحيانًا كثيرةً باسم أفكار سياسية صاعدة في المنطقة؛ من الفكر القومي الاجتماعي إلى الفكر العروبي مرورًا بالعقائد المرتبطة بالدول الناشئة. وقد لعبت الصحافة المهاجرة في أحيان أخرى دور أداة تواصل وتماسك بين أعضاء الجالية لنقل أخبارها، إضافةً إلى دورها في التصدي للفكر العنصري الذي يصرّ على حصر الحضارة بالشعوب الأوروبية ويروّج لاستحالة دمج «الأتراك». ومع تقدّم عملية الاندماج، صارت مهمة إبراز معالم الحضارة العربية ومساهمتها في الحضارة العالمية (لم يعد هناك مجال للخصوصيات المشرقية المناطقية) تفترض إيصالها عبر اللغات اللاتينية.

لعبت الصحافة المهاجرة دور أداة تواصل وتماسك بين أعضاء الجالية لنقل أخبارها، إضافةً إلى دورها في التصدي للفكر العنصري

تبقى مسألة تعلّم اللغة العربية. كان هناك في كل دولة معلّمون وقيّمون على مدارس منحوا كلّ ما يملكون من إرادة وعاطفة للإبقاء على العربية لغةً حيّة. وكانت المسألة حينها لا تزال تتفاعل مع راهنية العودة، لكن كلّما ابتعدت الأخيرة، تراجعت المدارس وذلك منذ عشرينيات القرن الماضي، واستمرّت بالتقلّص في ثلاثينياته حتى انتهت في الأربعينيات لأنها لم تكن متطابقة مع أولويات الاندماج، التي قضتْ بأن يُحْسِن المهاجرون التكلم بالإسبانية والبرتغالية. وقد فرض هذا السؤال نفسَه بإلحاح وأدى إلى خيارٍ قاسٍ وقع من دون سابق إنذار على الجيل الثاني. ففي البرازيل مثلاً، عند بداية الحرب العالمية الثانية، وإزاء التخوّف من نشاطات الجاليات الأجنبية، تم رسميًّا منع تعليم اللغات الأجنبية وتغيير أسماء الجمعيات والمدارس والنوادي لتكريس تلك الوجهة. أما اليوم، ومع اكتمال عملية الاندماج، فقد باتت مهامّ تقديم الحضارة العربية أو تعليم لغتها أو دراسة تاريخ الجاليات أو تنشيط حركة الترجمة، تتمحور حول الجامعات ومعاهدها المتخصصة (إلا في حالة المدارس الإسلامية) من دون أن يكون الأساتذة والطلاب بالضرورة من أبناء الجالية.

كثيرة هي نماذج التأثير والاندماج والتثاقف. من يعرف أثر النموذج البرازيلي الاندماجي في تكوين الشاب أنطون سعادة وحجم التعديلات التي أدخلها الرجل على فكره خلال إقامته الثانية في الأرجنتين؟ أما نجيب حنكش، الملقّب بـ«ظريف لبنان»، فقد عاش القسم الأكبر من حياته في البرازيل، ولم تكن لديه أي مشكلة في الإقرار بأن قسمًا أساسيًّا من «ظرفه وفكاهته» ومن «مهنيته الإذاعية» استمدّه من بلاد السامبا. ومن أسرار آليات التثاقف أنّ شركة «يازجي»- الأولى في تعليم اللغات بالبرازيل – في ما يشبه معاهد «برليتز» الأوروبية- فلا تدرّس اللغة العربية. القاموس في البرازيل أيضًا يحمل اسم رجل عظيم من أصل عربي- يقولون «هويس» للتدليل على القاموس كما يقول الفرنسيون «لاروس»- لكنّ أنطونيو هويس لم ينطق يومًا كلمةً واحدةً بالعربية.

رضوان نصار هو ابن مهاجرين لبنانيين من إبل السقي في قضاء مرجعيون غادرا لبنان عام ١٩١٩. نصار الذي أوقف تباعًا دروسه في الفلسفة والحقوق ليتخصص في تربية الحمام والأرانب نموذجٌ لافتٌ لما نسمّيه «التثاقف». توقف عن الكتابة بعد صدور روايته «حراثة بالية» (كُتبت وصدرت عام ١٩٧٥) التي تعتبر من روائع الأدب البرازيلي المعاصر. وتحمل روايةٌ سابقةٌ له عنوان «كأس من الغضب» (صدرت عام ١٩٧٨ لكنها كتبت في عام ١٩٧٠)، إضافةً إلى عدد من القصص القصيرة. وبعد اشتهار روايته فضّل رضوان نصار ترك المدينة والاستقرار في الداخل في مسار معاكس لمسار بطل روايته، حيث يغادر شابٌ ريفي عائلته الزراعية هربًا من جوّها المحافظ والخانق والمكبَّل بالماضي ليستقرّ في المدينة. يقول الأستاذ الجامعي والشاعر ميشال سليمان إن «نصار نجح في وصف حالة إنسانية عامة يتعرّف إليها الجميع، مهاجرين كانوا أم لا، من أصل عربي أم لا».

هذا هو لبّ المواجهة التثاقفية لأنها بالفعل مواجهة، ولكن لا ينبغي مقاربتها بمقاييس الربح والخسارة، ويصعب تحديد المساهمة فيها إذا بقيت تحصي ما فات المهاجر من حضارته الأصليّة: إن مساهمة المهاجرين العرب في البنيان

الثقافي لدولهم أو للثقافة الكونية في العولمة لا تحمل رايات عربية، بمعنى أنهم ليسوا مبدعين في نشاطات «عربية» متخصصة قدر ما هم مبدعون في نشاطات ثقافية. وإنهم ناجحون باعتراف شعوب دولهم ونقّادها (إلا عند العرب) ليس لكونهم عربًا بل بصفتهم مواطنين من هذه الدول ناجحين في مجالاتهم.

بعد اشتهار روايته فضّل رضوان نصار ترك المدينة والاستقرار في الداخل في مسار معاكس لمسار بطل روايته

في الفنون

تشكّل العيّنة الثقافية الفنية الآتية عيّنة عشوائية، الغاية منها إلقاء الضوء على بعض الوجوه المجهولة في العالم العربي وعلى تنوّع المجالات الفنية والثقافية التي برعَت فيها. في عالم الموسيقى الشعبية في البرازيل، اخترنا من حقبة السبعينيات خوان بوسكو وإغبرتو جيسمونتي. الأول ابن مهاجر لبناني، وهو مؤلف ومغنّ شهير أعطى المغنية إليس رجينا، الغنيّة عن التعريف، بعضَ أجمل أغانيها. والثاني ابنٌ لأبٍ لبناني وأمّ إيطالية من صقلية. أدهش أوروبا بموسيقاه المميزة التي دمجت الجاز بموسيقى الشعوب الأمازونية. يمكننا أيضًا ذكر السينمائي والتر هوغو الخوري، وهو أيضًا ابنٌ لأبٍ لبناني وأمّ إيطالية، وقد أخرج ٢٥ فيلمًا ومثّل البرازيلَ مرّتين في مهرجان «كان».

من عالم الموسيقى أيضًا في الأرجنتين ثلاثةُ وجوه من الهجرة السورية: خورخي أنطونيو كفرون الملقّب بـ«ال تركو»، وهو من أشهر المغنّين والباحثين في الفولكلور. يعتبر أيقونة موسيقية في إسبانيا التي نُفي إليها، وهناك شكوك تحوم حول ظروف وفاته في حادث سيارة عام ١٩٧٨ لأنه اشتهر بمعارضته للدكتاتورية العسكرية. والثاني هو إدواردو جميل فالو، مؤلف أكثر من ٢٠٠ لحن، خصوصًا الفولكلورية. عمل على تعريف الجمهور بالألحان التقليدية، عازفًا على الغيتار في حفلات مرسيديس سوسا، وأسهم في الوقت نفسه مع «حركة الأغنية الجديدة» الملتزمة سياسيًّا. والوجه الثالث هو ميغيل أنجيل إستريا (وهي ترجمة إسبانية لاسم عائلة «نجم»)، ابن فلّاح هاجر إلى بوليفيا ومن ثمّ إلى الأرجنتين. أمه هندية من شعوب بوليفيا الأصلية. وأنجيل إستريا عازف بيانو كلاسيكي بارع خُطف وعذّب من قبل المليشيات اليمينية خلال الدكتاتورية العسكرية لقربه من مجموعة «المونتونيروس» البيرونية اليسارية. سجن لثلاث سنوات، حيث كان يعزف على «بيانو أخرس» كما كان يقول، قبل أن تفرج عنه حملة تضامن دولية عام ١٩٨٠. عُيّن سفيرًا لبلده في الأونيسكو بعد سقوط النظام العسكري، وكان عضوًا في محكمة راسل عن فلسطين عام ٢٠٠٩.

تنتمي الوجوه الآتية إلى دولٍ ثلاث: في تشيلي المخرج ميغيل ليتين (والاسم الأصلي «اليتيم»). ابن مهاجر فلسطيني من بيت ساحور وأم مهاجرة يونانية. بدأ ليتين مخرجًا وثائقيًّا في التلفزيون التشيلي وعُرف في فيلم «ضبع» عن الفلاحين الفقراء في الريف، وسلّمه الرئيس ألليندي إدارة الشركة الرسمية للأفلام. هرب إلى المكسيك بعد الانقلاب العسكري ومنها إلى إسبانيا حيث صوّر أهم أفلامه، وهو القائل «السينما التي لا تبحث عن الحقيقة ليست سينما»؛ «السينما هي كاميرا باليد وأخرى بالرأس». عام ١٩٨٥ عاد ليتين إلى تشيلي سرًّا ونتج من هذه المخاطرة فيلمٌ وثائقي حول ظروف الحياة تحت الدكتاتورية خلال الثمانينيات وقد نجح في التسلل إلى قصر بينوشيه! اشتهر بعدما روى غابريال غارسيا ماركيز مغامرته في رواية. شارك ليتين خلال التسعينيات في لجنة تحكيم بدمشق، والتقى بأشخاص من بيت ساحور. لم يتوقف عن التردّد إلى بلدة أهله حيث صوّر «وقائع فلسطينية» (٢٠٠١) و«القمر الأخير» (٢٠٠٥)، وكانت آخر زيارة له الى فلسطين في كانون الثاني/ يناير ٢٠٢٢.

والآن، حديثٌ أقلّ في السياسة. في المكسيك، الممثلة سلمى حايك، ابنة رجل أعمال من أصل لبناني وأم من أصل إسباني، اكتشفها العالم خارج المكسيك عندما أدّت دور الرسامة فريدا كاهلو (٢٠٠٢). بصفتها منتجة، أنتجت حايك عام ٢٠١٥ فيلم «النبي» لجبران خليل جبران بالصور المتحركة، وتجري أحداث الفيلم في لبنان خلال فترة الإمبراطورية العثمانية.

أخيرًا وليس آخرًا نعرّج على كولومبيا حيث ابنة رجل أعمال لبناني وأم من كاتالونيا. هاجر والدها إلى الولايات المتحدة ثم إلى «برانكيا» الساحلية خلال السبعينيات. إنها المطربة إيزابيل مبارك ريبول، المعروفة فنيًّا باسم شاكيرا. الفنانة اللاتينية التي نالت عددًا كبيرًا من الجوائز الموسيقية وحقق مبيع أسطواناتها أرقامًا قياسية على الصعيد العالمي. في إجابةٍ عن سؤال حول هويتها تقول شاكيرا: «أنا التحام fusion، هذه شخصيتي. التحام بين الأبيض والأسود، بين موسيقى البوب والروك، بين الثقافات، بين أبي اللبناني وأمي الإسبانية، بين الفولكلور الكولومبي والرقص الشرقي والأغنية الأميركية».

ماذا تعلّم كارلوس سْلِيم من جَدّه؟

وصل جدّ كارلوس سْلِيم إلى المكسيك عام ١٩٠٢ آتيًا من جبل لبنان الماروني رفقةَ أولاده الثلاثة، ونزلوا من الباخرة في مرفأ «تمبيكو». عام ١٩١١ انتقلوا إلى مدينة المكسيك حيث أسّسوا متجرًا لبيع حاجيات منزلية أطلقوا عليه اسم «نجمة الشرق». وُلد كارلوس في بداية العام ١٩٤٠، خامسًا في عائلة من ستة أولاد. أبوه جوليان سليم حداد- وهو أصغر الأشقاء- وأمه ليندا حلو، فصار اسم كارلوس، حسب التقليد الإسباني الذي يحفظ اسم الوالدين، كارلوس سْليم حلو. في ذاك المتجر، تلقّى كارلوس، الذي عشق التجارة منذ صغره، دروسَه الأولى في عالم الأعمال. ينقل كارلوس عن لسان أبيه الذي توفي عام ١٩٥٢ أن جدّه كان يشتري الأراضي والشقق في مدينة المكسيك في عزّ الثورة التي بدأت خلال العقد الثاني من القرن العشرين، فأخذ أبناء الجالية يحذّرونه من تبذير أمواله في هذا الظرف الدقيق. وكان يجيبهم: «بالعكس، أنتم المخطئون: هذا هو الظرف الأفضل. المهم اغتنام الفرص. اليوم الأسعار منخفضة، أما الأراضي والشقق فباقية في المكسيك، لن تغادرها».

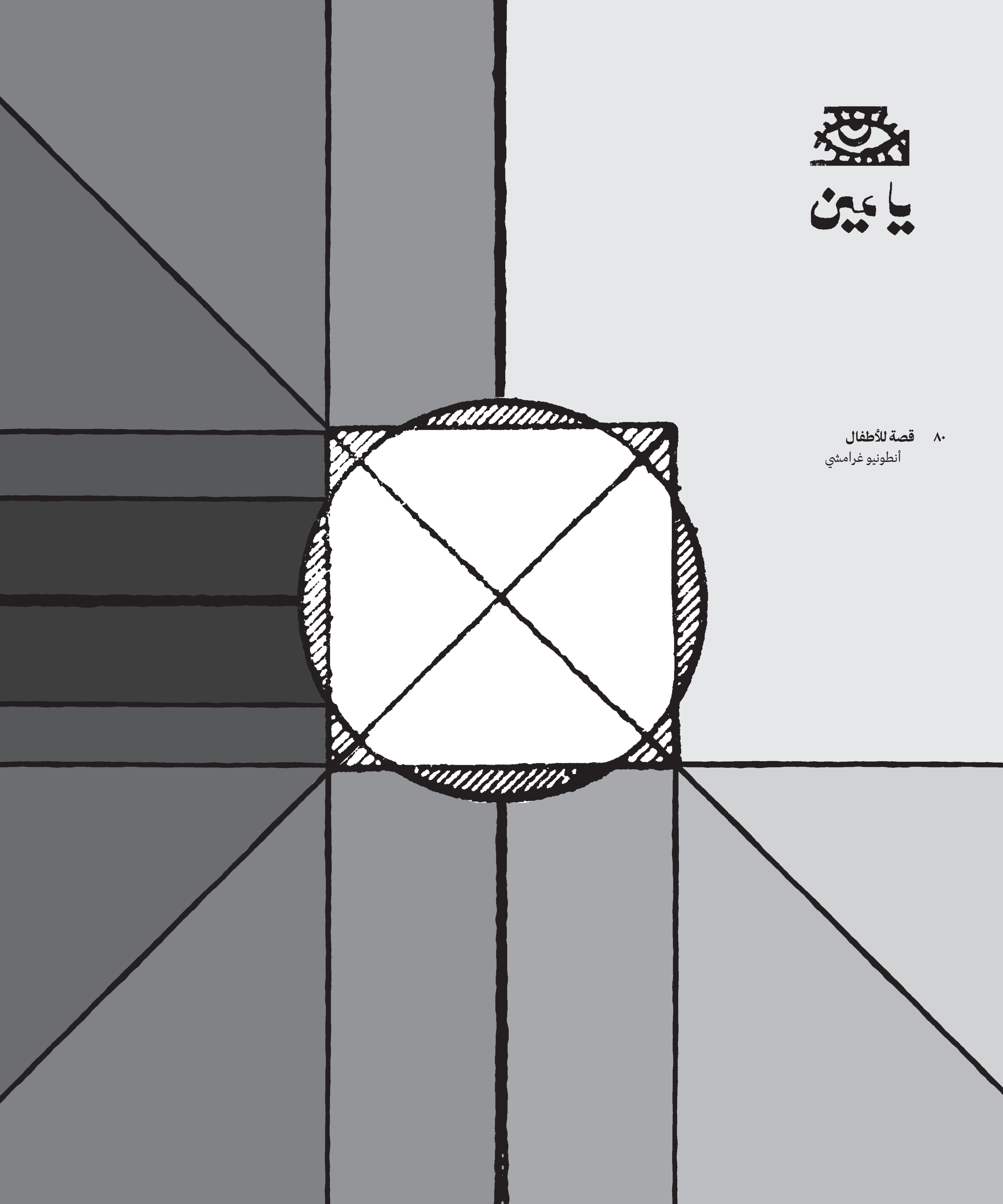
بقيت نصيحة جده ترنّ في أذنَي سْليم. تخرّج مهندسًا، وبدأ يؤسس الشركات، أو بالأحرى يشتريها على اعتبار أنّ «في المكسيك- كما يقول- كثرة من الباعة وقلّة من الشراة». عرفت حياة كارلوس نقلة نوعية عندما نجح عام ١٩٩١- خلال موجة خصخصة الاقتصاد أيام رئاسة كارلوس ساليناس- في الحصول على شركة التليفون الثابت «تيليميكس» التي ما زالت تتحكم حتى اليوم بـ٩٠٪ من الخطوط الثابتة في المكسيك، وتشغّل أكثر من ٢٥٠ ألف موظف وتمثل وحدها ٤٠ ٪ من رأسمال بورصة العاصمة مكسيكو. ثم انتقل كارلوس لتملّك شركة «أميركا موفيل»، أكبر شركة للخلوي في أميركا اللاتينية والتي تشغّل ٨٠٪ من الخطوط المكسيكية النقّالة. بعد العام ٢٠٠٠، صار سليم يبحث عن الفرص في الولايات المتحدة بقطاع المواصلات حيث تحوّل إلى أكبر مالك لأسهم «إم. سي. آي»، كما أنه شريك عملاق الدخان «فيليب موريس». يمكن القول إن كارلوس سْليم لم يتوقف يومًا عن تطبيق نصائح جده، ما سمح له عام ٢٠٠٧ بأن يتربّع على عرش أغنى أغنياء العالم. وقد قدّرت مجلة «فوربس» ثروته في شهر نيسان/ أبريل ٢٠٢٢ بـ٨١,٢ مليار دولار، بزيادة ١٨,٤ مليار دولار عن نيسان/ أبريل من العام السابق.

كيف شرح كارلوس منعم علاقته بالإسلام؟

في عزّ المعركة الانتخابية في الأرجنتين عام ١٩٨٩، صارت النخب الأرجنتينية المحافظة التي لا تريد وصوله إلى سدّة الرئاسة تروّج أنه مسلم، وهو ينفي المعلومة. اغتنم مروره على برنامج تلفزيوني شهير ليشرح المعادلة للصحافية التي سألته متى تخلّى عن الدين الإسلامي، فأجاب: «كان والدَاي مسلمَين يصومان رمضان، لكنّهما لم يطلبا من أولادهما قطّ اعتناق الدين الإسلامي، إنما تركا لنا الحرية المطلقة لاختيار الديانة التي نريد. لم أتخلّ عن الإسلام لأنه لم يسبق لي أن كنت مسلمًا».

پالستينو: أكثر من نادٍ، شعب بأكمله

«أكثر من نادٍ»، هو شعار فريق برشلونة في كرة القدم للتدليل على أهمية الهوية الكتالونية لدى النادي. في تشيلي، أسس شباب من الجالية الفلسطينية عام ١٩٢٠ «كلوب ديبورتيوفو پالستينو» النادي الرياضي الفلسطيني، الذي صار يتبنى شعار «أكثر من نادٍ، شعبٌ بأكمله». والنادي الذي يحمل في شعاره وعلى قمصانه الألوان الفلسطينية هو من الأندية التشيلية العريقة في كرة القدم. لم يغادر الدرجة الأولى منذ أن دخلها عام ١٩٥٣ وفاز مرتين بالدوري (عامَي ١٩٥٥ و١٩٧٨) وثلاث مرات بالكأس (١٩٧٥ و١٩٧٧ و٢٠١٨). وعام ٢٠١٤، منع الاتحاد التشيلي قمصان الفريق لأن الرقم «١» في ترقيم القمصان كان يحمل شكل خارطة فلسطين قبل التقسيم، وأجبر على تبديلها. وفي ٢٠١٦، زار الفريق فلسطين ولعب مباراتين، واحدة ضد المنتخب الوطني وأخرى ضد مشاهير فلسطينيين في الخليل. بعد الهجوم الإسرائيلي على غزة في العام ٢٠٢١، دخل لاعبو الفريق في المباراة ضد أشهر فريق تشيلي «كولو كولو»، وهم يرتدون الكوفية الفلسطينية تضامنًا مع النضال الفلسطيني. كذلك موّل الفريق أول أكاديمية كرة للأولاد في رام الله وسيدشن في القسم الثاني من هذا العام أكاديمية مماثلة في غزة. ويضمّ المنتخب الوطني الفلسطيني حاليًا أربعة لاعبين تشيليين من أصل فلسطيني، وصل عددهم إلى سبعة، في تصفيات كأس آسيا الأخيرة.



يا عين
٨٠ قصة للأطفال
أنطونيو غرامشي

قصة للأطفال

أنطونيو غرامشي

هذه القصة الموجهة للأطفال كتبها القائد الشيوعي المفكر الماركسي أنطونيو غرامشي (١٨٩١-١٩٣٧) لطفليه وهو في السجن. اعتقل مؤسس الحزب الشيوعي الايطالي في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٦، رغم حصانته النيابية. وفي أيار/مايو ١٩٢٨، صدر بحقه حكمٌ بالسجن لعشرين عامًا. علّق المدعي العام على الحكم بقوله: «يجب أن نمنع هذا الدماغ من التفكير!»

بالإضافة إلى الثروة الفكرية والنظرية والسياسية التي تركها غرامشي في «دفاتر السجن»، كتب نحو ٥٠٠ رسالة، معظمها موجّهٌ إلى والدته وزوجته الروسية يولكا شودت وشقيقتها تانيا وولديه: ديليو الذي كان في الثانية والنصف من عمره حين اعتُقل والده، وجوليانو الذي ولد ووالده قيد الاعتقال.

تروي الرسائل نضال غرامشي للتشبّث بالحياة والعيش مع عائلته على الرغم من وطأة الأمراض المتراكمة عليه، بما فيها التواء في العمود الفقري منذ الطفولة، والعلاقة المأسوية بزوجته عازفة الكمان الموهوبة والهشّة من الناحية النفسانية. اقترحت يولكا أن تنتقل إلى إيطاليا لتكون قربه، لكنها ما لبثت أن تراجعت، وتباعدت رسائلها ثم أصيبت بانهيارٍ عصبي في العام ١٩٣١، ما أورث غرامشي شعورًا عميقًا بالذنب، لاعتباره أنه هو المسؤول عن الضغوط النفسانية التي تعرّضت لها زوجته جرّاء سجنه. إلى هذا توفيت والدته وهو في السجن ولم يعلم بالأمر وظل يكتب لها الرسائل. العون الكبير الذي تلقّاه هو ما وفّرته تانيا التي انتقلت إلى إيطاليا للدراسة وللاهتمام به، وقد لعبت دورًا كبيرًا في التخفيف عليه من وطأة السجن والمرض، فكانت تزوّده بالكتب والمجلات، وتتنقل بين الدوائر الرسمية لتحسين شروط حياته في السجن، وتنظم الحملات لإطلاق سراحه، والأهم تشجعه على الاستمرار بالكتابة.

في العام ١٩٣٦ نُقل غرامشي من السجن إلى المستشفى لانهيار حالته الصحية. ساعده أحد زملائه في السجن في تخبئة دفاتره والرسائل ثم تهريبها إلى الخارج. توفي أنطونيو غرامشي في نسيان/أبريل ١٩٣٧. وكتب في آخر رسالةٍ إلى ابنه ديليو يقول فيها:

«حبيبي ديليو، أنا متعبٌ قليلًا ولن أستطيع أن أكتب الكثير. مهما يكن، اكتب لي أنت، رجاءً، وأخبرني عن كل ما يثير اهتمامك في الدراسة. أخمّن أنك تحبّ التاريخ، مثلما أنا أحببته عندما كنت في سنّك، لأنه يتعاطى مع بشرٍ أحياء، ومع كل ما يتعلق بالناس، بأكبر قدر ممكن من الناس، بل بجميع الناس في العالم، وهم متّحدون في مجتمعاتٍ يكدحون ويناضلون ويسعون إلى حياةٍ أفضل فيها. كلّ هذا من شأنه أن يسرّك أكثر من أي شيء آخر، أليس كذلك؟»





الفأرة والجبل





طفلٌ نائم. إلى جانبه قصعة حليب جاهزة ليشرب منها عندما يصحو. تجيء فأرةٌ وتشرب الحليب. يصحو الطفل. يلاحظ أنه لم يعد لديه حليب. يبدأ في الصراخ.

تركض أمه إلى العنزة للإتيان بمزيدٍ من الحليب. العنزة لن تعطي الحليب إلا إذا جيء لها بعشبٍ لتأكل.
تذهب الفأرة إلى البرّية للإتيان بالعشب.
لكنّ البرّية جافة تحتاج إلى الماء.



يا عين



تمضي الفأرة إلى النبع. النبع خرّبته الحرب وأهدرت مياهه. يحتاج النبع إلى بناء والمعمّار يحتاج إلى حجارة.

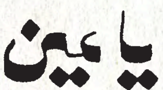
تمضي الفأرة إلى الجبل. هنا يجري حوارٌ بين الفأرة والجبل الذي قطع المضاربون العقاريون أشجاره. تروي الفأرة للجبل القصة كلها. وتَعِد بأنّ الطفل عندما يكبر سوف يعيد تشجير الجبل بأشجار الصنوبر والسنديان والكستناء وغيرها. يوافق الجبل على إعطاء حجارته للفأرة.



هكذا يتوفر للطفل من الحليب ما يحتاجه بل ما يفيض لأن يستحمّ به.

عندما كبر الطفل، زرع الاشجار، فتغيّر كلّ شيءٍ حوله. نهضتْ الجبال من جديد. وصار المطر أكثر رحمةً بالأرض لأنّ الاشجار تحتفظ ببخار الماء وتحجز السيول الكاسحة عن السهول.

باختصار، شاهدت الفأرة خطةً خمسية فعلية قيد التنفيذ. هي خطة عضوية تناسب بلدًا خرّبه من قطع له أشجاره.



النهاية



ن
القلم



مسرحية «الطابور الخامس» الحُب، الجاسوسية وجحيم الحرب

إرنست همِنغواي

١٨٩٩-١٩٦١. روائي وكاتب قصة قصيرة وصحافي. ترك أثره العميق في أدب القرن العشرين من خلال أسلوبه المقتصد والمبتكر. شكّل عمله كمراسل حربي وحياته المغامِرة مادة خصبه لأدبه. له سبع روايات وست مجموعات قصص قصيرة. من أبرز أعماله «الشمس تشرق أيضًا» (١٩٢٦) و«وداعًا للسلاح» (١٩٢٩) و«لمن تُقرع الأجراس» (١٩٤٠)، و«الشيخ والبحر» (١٩٥٢). نال جائزة نوبل للآداب العام ١٩٥٤. وتوفي منتحرًا بسلاح صيد

ننشر في ما يلي مقاطع من «الطابور الخامس»، المسرحية الوحيدة التي ألّفها إرنست همنغواي في أواخر ١٩٣٧ تحت وقع القذائف في مدريد المحاصرة بقوات فرانكو، الجنرال الفاشي المنقلب على الجمهورية. تستلهم المسرحية بعض الشخصيات والأحداث الحقيقية: فندق فلوريدا وبار «تشيكوتي» المجاور وكلاهما حقيقي. على أنّ القصة قصة يساري أميركي هو فيليب رولينغز، من «الفيلق الأممي» الذي يضمّ متطوعين متعددي الجنسيات للقتال إلى جانب الجمهوريين ضد الانقلاب الفاشي. يعمل فيليب في الأمن، فرع جهاز مكافحة عناصر «الطابور الخامس». والحرب الإسبانية هي الحرب التي أطلقت التسمية: كانت مدريد محاصرة من أربعة طوابير عسكرية تابعة لجيش فرانكو، وفي داخل العاصمة طابور خامس من العملاء السرّيين مهمتهم التخريب والاغتيالات والقنص وترويج الشائعات وبث الرعب وإرشاد المدفعية، إضافةً إلى جمع المعلومات. أما الصحافية الشقراء دوروثي بريدجز، فمستلهمة من المراسلة الحربية الأميركية مارثا غيلهرن، التي تعرّف إليها همنغواي العام ١٩٣٦ وكانت عشيقته خلال تلك الفترة، وقد تزوجها العام ١٩٤٠ وأهدى إليها روايته الشهيرة «عندما تُقرع الأجراس» وتطلّقا بعد خمس سنوات ليتزوج من الصحافية البريطانية ماري ويلش. ولكن، على عكس ما تبدو الصحافية المبتدئة في المسرحية، تحوّلت غيلهرن إلى واحدة من أبرع وأجرأ وأشهر المراسِلات الحربيات وقد غطّت الصين وإنزال الحلفاء في النورماندي وتحرير معسكرات الاعتقال النازية، وغيرها. وقصتها مع همنغواي موضوع فيلم بعنوان «همنغواي وغيلهرن» (٢٠١٢) تجسّدها فيه نيكول كيدمان.

«الحرب هي الجحيم»، هي الرسالة التي تطلقها المسرحية. يتساءل فيها عنصر مكافحة الجاسوسية عن جدوى المهمة التي تطوّع للقيام بها، ويعيش معلّقًا بين ما تعد به عشيقته الشقراء من حياة رخاء ورفاه خارج جحيم إسبانيا، وإغراء إسبانيا الأرض والحرب والغانية المغربية العربية آنيتا.

نُشرت المسرحية في العام ١٩٣٨ مع عدد من القصص القصيرة. وعُرضت للمرة الأولى في الأربعينيات. لم تلقَ رواجًا كبيرًا وما لبث أن سحبها مؤلفها لأن المخرج تمادى في التعديلات عليها خلافًا لإرادته. ولم تُعرض كاملةً إلا في العام ٢٠٠٥ على أحد مسارح نيويورك.

تقديم همنغواي

«كُتبتْ هذه المسرحية في خريف وبواكير شتاء العام ١٩٣٧ فيما نحن نتوقّع هجومًا عسكريًّا. شنّ «جيش الوسط» ثلاث هجمات أساسية في ذلك العام، إحداها على بُرونيتّي. خيضت المعركة، وقد بدأت على نحو رائع لكنها انتهت بمعركة دموية من غير حسم، وكنا ننتظر هجومًا من الهجومين التاليين. لم يأتِ هذا ولا ذاك. ولكن فيما كنّا ننتظر، كتبتُ هذه المسرحية.

كنّا نتعرّض للقصف يوميًّا من بطاريات المدفعية خلف لاغانيس وخلف مدرّجات تلّة غارابيتاس. وفيما أنا أكتب المسرحية، أصيب فندق فلوريدا حيث نقيم ونعمل بأكثر من ثلاثين قذيفة شديدة الانفجار. فإذا لم تكن مسرحية جيّدة فلعلّ تلك هي العِلّة التي أصابتها. أما إذا كانت مسرحيةً جيدةً فلعلّ الفضل في ذلك يعود إلى أنّ تلك القذائف الثلاثين قد أسهمت في كتابتها.

عندما كنت أذهب إلى الجبهة- وأقرب نقطة منها لا تبعد أكثر من ألف وخمسمائة ياردة عن الفندق- كنت دومًا أدسّ نصّ المسرحية داخل فراشي المطويّ. وعندما أعود وأجد الغرفة والمسرحية سالمتين أسرّ دومًا لذلك. فرغت من كتابتها وبيّضتها وأرسلتها خارج البلاد قبل احتلال تيرويل.

كتبت هذه المسرحية لكي تمثّل على الخشبة. على أنّ مخرجها توفّي بعدما وقّع عقد إخراجها وذهب إلى كاليفورنيا للبحث عن ممثلين. فوقّع مخرج آخر عقدًا آخر إلا أنه وجد صعوبة في جمع المال [لتمويل الإخراج].

يشير العنوان إلى قولٍ لأحد قادة الضبّاط الانقلابيين الإسبان في خريف العام ١٩٣٦ إن لهم أربعة طوابير تزحف على مدريد وطابورًا خامسَ من الأنصار داخل المدينة للهجوم على المدافعين عن المدينة من الخلف. وإذا كان العديد من أفراد الطابور الخامس قد ماتوا الآن فيجب أن ندرك أنهم قُتلوا في حربٍ لم يكونوا فيها أقلّ خطورة ولا أقلّ تصميمًا من أيٍّ من أولئك الذين قُتِلوا في الطوابير الأربعة الأخرى.

كانت الطوابير الأربعة الزاحفة على مدريد تقتل أسراها. وعندما يقع أفراد الطابور الخامس في الأسر* داخل المدينة في الأيام الأولى من الحرب كانوا يُقتَلون هم أيضًا. لاحقًا، صاروا يقدَّمون للمحاكمة وتصدر بحقهم أحكامٌ بالسجن أو الانخراط في معسكرات العمل أو بالإعدام وفقًا للجرائم التي ارتكبوها ضد الجمهورية. لكنهم في الأيام الأولى [من حصار مدريد] كانوا يُعدمون. كانوا يستحقون ذلك، وفقًا لقوانين الحرب، وهم كانوا يتوقعون الإعدام.

إنّ البعض من المدافعين المتزمّتين عن الجمهورية الإسبانية- والمتزمّتون ليسوا خيرة أصدقاء أي قضية من القضايا- سينتقدون المسرحية لأنها تعترف بأن أفراد الطابور الخامس كانوا يُعدَمون. وسيقولون، بل هم قد قالوا بالفعل، إن المسرحية لا تعرض ما انطوت عليه قضية الشعب الإسباني من نُبل وكرامة. إن المسرحية ليست تسعى إلى ذلك أصلاً. سوف يستغرق الأمر مسرحيات عدة وروايات عدة للتعبير عن ذلك، على أنّ أفضل هذه المسرحيات والروايات هي ما سوف يُكتب بعد أن تضع الحرب أوزارها.

هذه مسرحية تتعلّق فقط بمكافحة الجاسوسية داخل مدريد. من مساوئها أنها كُتبت زمن الحرب. وإذا كان لها من مغزًى أخلاقيّ فهو أنّ المناضلين في منظّمات معيّنة ليس لديهم متسعٌ كبيرٌ من الوقت للحياة العائلية. في المسرحية فتاة تدعى دوروثي ولكن كان يمكن أيضًا تسميتها «نوستالجيا». ولعلّ الأفضل لكم الآن أن تبدأوا بقراءتها والأفضل لي أن أتوقف عن الحديث عنها. ولكن إذا كانت كتابة مسرحية تحت قصف النيران تفسّر مساوئها، فلعل ذلك منحها بعض الحيوية. ومهما يكن، فأنتم القرّاء سيكون لديكم منظور أفضل إلى هذا الأمر منّي أنا».

إرنست همنغواي.

* أطلق اسم «الطابور الخامس» على المجموعات الموالية لفرانكو داخل العاصمة المكلّفة بأعمال إرشاد المدفعية والتخريب والاغتيالات وبثّ الشائعات، إلخ.

الفصل الثاني/ المشهد الأول

غرفة في المقر المركزي للأمن. طاولة عادية، مجرّدة إلا من قنديل ذي غطاء أخضر. كل النوافذ مغلقة والستائر مسدلة. خلف الطاولة رجل قصير يبدو متقشفًا له وجه رقيق الشفتين وأنف صقر وحاجبان كثيفان. فيليب جالس على كرسي قرب الطاولة. والرجل ذو وجه الصقر ممسك بقلم رصاص. وعلى كرسي أمام الطاولة يجلس رجل ينتحب بتشنجات قوية وراجفة. أنطونيو (وهو الرجل ذو أنف الصقر) ينظر إليه باهتمام شديد. إنه الرفيق الأول من الفصل الأول، المشهد الثالث، حاسر الرأس، خلع معطفه، والحمّالتان اللتان تشدّان سرواله الوسيع من زيّ «الفيلق الأمني» متدلّيتان على جانبَي سرواله. عند ارتفاع الستارة، فيليب واقف ينظر إلى الرفيق الأول

فيليب: *(بصوت متعب)* أودّ أن أطرح عليكَ سؤالاً آخر.
الرفيق الأول: لا تسَلْني. أرجوك لا تسألني. لا أريدك أن تسألني.
فيليب: كنتَ نائمًا؟
الرفيق الأول: *(يتشرّق كأنه يختنق)* نعم.
فيليب: *(بصوت رتيب متعب جدًّا)* وتعلم عقوبة ذلك؟
الرفيق الأول: نعم.
فيليب: لماذا لم تقل من الأول وتوفّر علينا الكثير من العناء؟ لن آمر برميك بالرصاص من أجل ذلك. كلّ ما في الأمر خاب أملي فيك الآن. تظنّ أن الناس يقتلون بعضهم البعض لمجرّد التسلية؟
الرفيق الأول: كان عليّ أن أخبرك. كنتُ خائفًا.
فيليب: بلى. كان عليك أن تخبرني.
الرفيق الأول: حقًّا، أيها الرفيق المفوّض.
فيليب *(لأنطونيو ببرود)*: هل تعتقد أنه كان نائمًا؟
أنطونيو: وكيف أعرف؟ هل تريدني أن أستجوبه؟
فيليب: لا، مِي كورونيل، لا. نريد معلومات. لسنا نريد اعترافات.
(موجّهًا كلامه إلى الرفيق الأول)
اسمع. بماذا كنتَ تحلم عندما غفوت؟
الرفيق الأول: *(ينتحب ويتردّد ثم ينطلق)*: لست أتذكر.
فيليب: حاولْ مجرد محاولة. خذْ وقتك. أريد فقط أن أتأكد، هل تفهمني؟ لا تحاول أن تكذب. سأكتشف كذبك.



الرفيق الأول: إنني أتذكر الآن. كنت مسندًا إلى جدار وبندقيتي بين فخذيّ عندما انحنيت، وأذكر (يتشرّق) في الحلم ظننت أنّ صديقتي كانت معي وأنها كانت تفعل بي شيئًا ما- شيئًا غريبًا – تفعله بي. لست أدري ما هو. كان مجرد حلم. *(يتشرّق)*

فيليب *(لأنطونيو)*: أنت راضٍ الآن؟

أنطونيو: لم أفهم الأمر تمامًا.

فيليب: حسنًا، أخمّن أن لا أحد يفهم الأمر كليًّا، لكنه أقنعني.

(إلى الرفيق الاول)

ما اسم صديقتك؟

الرفيق الأول: آلما.

فيليب: أوكي. عندما تكتب لها قل لها إنها جلبت لك الكثير من الحظ.

(إلى أنطونيو)

في ما خصّني، تستطيع أن تطلق سراحه. إنه يقرأ [جريدة] «العامل». ويعرف دجو نورث. له صديقة اسمها آلما. وله سجلّ جيّد مع «الفيلق الأممي» وقد غفا، الأمر الذي سمح لأحد المواطنين بأن يتسلّل وأن يطلق النار على صبيّ يدعى وِلكنسون ظنًّا منه أنه أنا. المطلوب إعطاؤه الكثير من القهوة القوية والحيلولة دون أن يضع بندقيةً بين فخذيه. اسمع، يا رفيق، يؤسفني إن كنتُ تحدثت إليك بفظاظة خلال أدائي مهمتي.

أنطونيو: أودّ طرح بعض الأسئلة.

فيليب: اسمع، «مِي كولونيل». لو لم أفلح في هذه المهمة لما كنتَ سمحتَ لي بأن أواصل خلال تلك المدة الطويلة. هذا الصبي لا شكوك حوله. وأنت تعلم أنّ لا أحد فوق الشبهات على نحو مطلق. لكنّ هذا الصبي فوق الشبهات إلى حدّ كبير. كلّ ما في الأمر أنه غفل وأنا لست العدالة على كلّ حال. أنا مجرّد شخص يعمل عندك ومن أجل القضية ومن أجل الجمهورية وأمور من هذا القبيل. وكان لنا في أميركا رئيس اسمه لنكولن، كما تعلم، كان يخفّض عقوبات الإعدام بالرصاص على جنود الحراسة الذين يقبض عليهم وقد غفلوا خلال نوبات حراستهم، كما تعلم. لذا أرى أن نخفّض عقوبته بعض الشيء إن كنت لا تمانع. الحال أنه ينتمي إلى «فيلق لنكولن»، وهو فيلق رائع. إنه فيلق رائع وقد أتى أفعالاً سيصدع لها قلبك إذا حدّثتك عنها. ولو كنتُ في عديد ذلك الفيلق لشعرتُ بالكرامة والفخر بدلاً ممّا أنا شاعرٌ به على ما أفعله الآن. ولكنني لستُ في عِداده، كما ترى؟ أنا شرطي من الدرجة الثانية يزعم أنه صحافي من الدرجة الثالثة. ولكن اسمع أيها الرفيق آلما- *(يلتفت إلى السجين)*- إذا عاودتَ الإغفاء خلال نوبة الحراسة مجددًا وأنت تعمل في خدمتي فسأطلق

مقاتلون أناركيون في برشلونة، تموز/يوليو ١٩٣٦.





عليك الرصاص بنفسي، مفهوم؟ هل تسمعني؟ وأكتب ذلك لصديقتك آلما.

أنطونيو *(يقرع الجرَس. يدخل حارسان من «فرقة المكافحة»)*: خذوه. إنك تتكلم بطريقة مضطربة جدًّا يا فيليب. لكنك لا تزال تملك بعضًا من رصيد لم تستهلكه بعد.

الرفيق الأول: شكرًا، أيها الرفيق المفوّض.

فيليب: أوه، لا تقل شكرًا خلال حرب. هذه حرب. لا يحق لك أن تقول شكرًا خلالها. مع ذلك، لا شكر على واجب، مفهوم؟ وعندما تكتب إلى آلما فقل لها إنها جلبت لك حظًّا كثيرًا.

(يخرج الرفيق الأول مع الحارسين)

أنطونيو: نعم والآن ماذا؟ هذا الرجل أفلت من غرفتك رقم ١٠٧ وأطلق الرصاص على ذلك الصبي ظنًّا منه أنه أنت، فمن هو ذلك الرجل؟

فيليب: أوه، لست أدري. أخمّن أنه «بابا نويل». لديه رقم. لديهم أرقام «أ» مرقّمة من واحد إلى عشرة، و«ب» مرقمة من واحد إلى عشرة، و «ج» مرقّمة من واحد إلى عشرة، وإنهم يطلقون النار على الناس وينسفون بالمتفجرات ويمارسون جميع أعمالهم المعروفة لديك تمامًا. وهم يبذلون الكثير من الجهد مع أنهم ليسوا عظيمي الكفاءة حقًّا. لكنهم يقتلون العديد من البشر الذين لا يسمح لهم بقتلهم. المشكلة أنهم يعملون على طريقة «ألف باء الكوبية» التي تقول إن لم تحصل على رجل من الداخل يساعدك، فلا جدوى من جهودك. كأنك تقطع رؤوس البثور بدلاً من مشاهدة برنامج تلفزيون. يعني، صحّح لي إن كنت مربكًا.

أنطونيو: ولماذا لا تعامل هذا الرجل بما يكفي من القوة؟

فيليب: لأني لن أستطيع أن أجازف بإحداث جلبة عالية تخيف آخرين نحتاجهم أكثر من حاجتنا إليه. هذا مجرد قاتل.

أنطونيو: بلى. كثيرون هم الفاشيون الذين ما زالوا موجودين في مدينة من مليون نسمة، وهم يعملون في الداخل، على الأقل أولئك الذين يملكون الجرأة على ذلك. لا بدّ أنّ لدينا عشرين ألفًا منهم ينشطون هنا.

فيليب: بل أكثر. لدينا ضعف ذلك. ولكنهم يرفضون الكلام عندما نعتقلهم، باستثناء السياسيين.

أنطونيو: السياسيين. بلى، السياسيين. شاهدت سياسيًّا يدبّ على الأرض في تلك الزاوية من الغرفة ولا يقوى على النهوض عندما حان الوقت ليخرج. شاهدتُ سياسيًّا يزحف في الشقّة على ركبتيه وقد حاوط رجلَي بذراعيه وأخذ يقبّل قدميّ. شاهدته عالقًا بجزمتي بينما كل ما كان عليه هو أن يفعل أمرًا بسيطًا: أن يموت. شاهدتُ كثيرين يموتون ولم أشاهد سياسيًّا واحدًا يموت بطريقة مشرّفة.

فيليب: لا أحب أن أشاهدهم يموتون. لا بأس إن كنتَ تحب المنظر. أنا لا أحبه. أحيانًا لست أدري كيف أتحمّله. اسمعْ، من هو الذي يموت ميتةً لائقة؟

أنطونيو: أنت تعرف. لا تكن ساذجًا.

فيليب: إي أخالني أعرف.

أنطونيو: أنا أستطيع أن أموت ميتةً مشرّفة. لا أسأل أحدًا أن يبذل المستحيل.

فيليب: أنت خبير في هذا الموضوع. قل لي، عزيزي طوني. من يموت ميتةً لائقة؟ هلمّ، قلها. تحدّث عنها، يعني، يفيدك أن تتكلم عن مهنتك. ثم تكتشف فجأةً أنك نسيتها. بسيطة، إيه؟ أخبرني عن الأيام الأولى من الحركة.

أنطونيو: *(بشيء من الافتخار)* تريد أن تسمع؟ تعني الحديث عن أشخاص معيّنين؟

فيليب: لا. أعرف شخصًا أو اثنين. عنيتُ تصنيفهم على أساس طبقي.

أنطونيو: فاشيون. فاشيون حقيقيون. شبابهم. جيدون جدًّا. لهم أسلوب متقن، أحيانًا. إنهم مخطئون لكنّ لهم أسلوبهم المميّز. الجنود، بلى، معظمهم لا بأس. القساوسة، كنت ضدهم كل حياتي. الكنيسة تناصبنا العداء. ونحن نناضل ضد الكنيسة. أنا اشتراكي منذ عدة سنوات. نحن أقدم حزب اشتراكي في إسبانيا. ولكن أن تموت - (يفتل يده ثلاثًا من المعصم وهي الحركة الإسبانية التي تقول ذروة الإعجاب) أن نموت؟ قساوسة؟ بديع. تعلم: قصدت قساوسة عاديين، لم أقصد الأساقفة.

فيليب: وأنطونيو. أحيانًا قد تقع أخطاء، هيه؟ ربما عندما نضطر للتصرّف على عجلة. أو، أنت أدرى، أننا نرتكب مجرد أخطاء، كلنا يرتكب الأخطاء. ارتكبت خطأً صغيرًا بالأمس. قل لي، أنطونيو، هل ارتكبتُ خطأً آخرَ قط؟

أنطونيو: أوه، بلى، أكيد. وقعت أخطاء. أوه، بلى، أخطاء. بلى. بلى. أخطاء مؤسفة جدًّا. قلّة قليلة منها.

فيليب: وكيف ماتت الأخطاء.

أنطونيو: الكل فيه خير وبركة.

فيليب: آه- *(صوت قد يصدر عن ملاكم عندما يتلقى لكمة قوية على جسمه)* وهذه المهنة التي نمتهنها الآن. تعلم، ما هو الاسم السخيف الذي تتسمّى به؟ جاسوسية. مكافحة الجاسوسية. ألا تضغط على أعصابك؟

أنطونيو: *(ببساطة)* لا.

فيليب: إنها تضغط على أعصابي أنا منذ فترة طويلة.

أنطونيو: لكنك لم تمارسها إلا منذ وقت قصير.

فيليب: اثني عشر شهرًا لعينًا، يا بُنَي، في هذه البلد. وقبل ذلك في كوبا. هل سبق لك أن زرت كوبا؟

أنطونيو: زرتها.
فيليب: هناك جرى توريطي في كل هذا.
أنطونيو: كيف ورّطوك؟
فيليب: آه، بدأ الناس يثقون بي مع أنه كان عليهم أن يكونوا أدرى. وأفترض لأنه كان عليهم أن يكونوا أدرى، بدأت أصير، يعني، موضع ثقة نوعًا ما، ليس موضع ثقة بطريقة كاملة، يعني، موضع ثقة نسبية. ثم زادت ثقتهم بي قليلاً وهنا تصير في أحسن حال. ثم تصدّق نفسك. أخيرًا، يروق لك الأمر، على ما أعتقد. لديّ إحساس أنني لا أشرح الأمر بطريقة جيدة.
أنطونيو: أنت فتى جيّد. تعمل بجهد. والجميع يثق بك ثقة كاملة.
فيليب:... أكثر من اللازم بكثير. وأنا متعَب أيضًا، والآن، أنا مشغول البال. هل تدري ماذا أتمنى؟ أتمنى ألّا أضطر إلى قتل أخي زانية جديد طالما أنا على قيد الحياة، لا يهمّني من هو ولا لأي سبب. وأتمنى ألّا أضطر إلى الكذب أبدًا. وأتمنى أن أعرف مع من أنا في السرير عندما أستيقظ. وأتمنى أن أستيقظ في المكان ذاته كل يوم خلال أسبوع كامل. أتمنى أن أتزوج من فتاة لا تعرفها، اسمها بريدجز. لا تأبه لاستخدامي اسمها، يروق لي أن ألفظه. وأتمنى أن أتزوجها لأنّ لها أطول وأنعم ساقين مستقيمتين في العالم، وأنا لست مضطرًا للإنصات لها عندما تتكلم إذا لم يكن لكلامها معنًى عميق. لكنّ بي فضولاً أن أرى كيف ستكون ميّزات الأولاد.
أنطونيو: هي الشقراء الطويلة رفقة المراسل الصحافي؟
فيليب: لا تسئ الكلام عنها هكذا. ليست أي شقراء طويلة مع أي مراسل. إنها فتاتي. وإذا كنت أكثِر الكلام أو آخذ الكثير من وقتك الثمين، فما عليك إلا أن توقفني. أنت تدري أنني رجل خارق. أتكلم بالإنكليزية أو الأميركية. وقد ولدتُ في واحدة وكبرتُ في الثانية. وهذا هو مصدر عَيشي.
أنطونيو: *(ساعيًا للتهدئة)* أعرف ذلك. فيليب، أنت مُتعَب.
فيليب: حسنًا، الآن أنا أتكلم بالأميركية. وبريدجز بالاتجاه ذاته. لكني لست واثقًا أنها تجيد التكلم بالأميركية. معلومك أنها تعلمت إنكليزيتها في الكلية ومن نوع إنكليزية «اللوردات» الرخيصة أو المضجرة، ولكن الغريب في الأمر، كما ترى، أنني أحب فعلاً أن أسمعها تتكلم. لستُ آبه لما تقول. أنا مرتاح الآن، كما تعلم. لم أتناول أي مشروب منذ الفطور وأنا أشد سكْرًا ممّا لو كنتُ قد تناولته وهذه علامة سيئة. هل مسموح لأحد عملائك أن يأخذ قسطًا من الراحة، مِي كورونيل.
أنطونيو: عليك أن تأوي إلى سريرك. لقد أنهكت تعبًا، فيليب، وأمامك الكثير من المهام.
فيليب: صحيح. أنا منهك ولديّ الكثير من المهام. أنا على موعد مع رفيقٍ عند «شيكوتي». اسمه ماكس. لديّ الكثير من المهام ولست أبالغ في ذلك. ماكس، أعتقد أنك تعرفه، لا اسم عائلة له تأكيدًا على أنه رجل مميّز، فيما أنّ اسمي العائلي راولينغز لا يزال هو ذاته بالضبط منذ البداية. هذا دليل على أنني لم أتقدم كثيرًا في هذه المهنة. عمّ كنت أتحدث؟
أنطونيو: عن ماكس.
فيليب: ماكس. تمام. ماكس. حسنًا لقد تأخر يومًا كاملاً الآن. إنه يسافر منذ حوالي الأسبوعين، الأحرى أنه يدور في دوائر لتفادي الفوضى خلف الخطوط الفاشية. هذا اختصاصه. وهذا ما يقوله، وهو لا يكذب. أنا أكذب. ولكني لم أكذب للتوّ. في كل الأحوال إنه متعب جدًّا، كما ترى، وأنا أيضًا مصاب بالقرف من عملي، وأنا متوتر عصبيًّا مثل لقيط لأني مشغول البال وأنا لا ينشغل بالي بسهولة.
أنطونيو: واصل. لا تكن مزاجيًّا.
فيليب: إنه يقول، أعني ماكس يقول. وأين هو الآن؟ أتمنى بحق الجحيم أن أعرف - يقول إنه عاين موقعًا، مركز مراقبة، كما تعلم. إنه يراقبهم وهم يتساقطون ويقول إنه الموقع الخطأ. واحدٌ من تلك المواقع. حسنًا، يقول إن الموقع يرتاده قائد سلاح مدفعية الحصار التي تقصف هذه المدينة ومعه سياسي رائع. معلومك: إنه قطعة أثرية في متحف. السياسي يرتاد الموقع هو أيضًا. يعتقد ماكس. وأنا أعتقد أيضًا أن الرجل مخبّل. لكن ماركس يفكر أحسن مني، وأنا أفكر بطريقة أسرع، لكنه يفكّر أحسن مني. إننا نستطيع القبض على هذين المواطنين. والآن اسمعني بعناية كاملة، مي كورونيل، وصحّح لي كلامي على الفور. أعتقد أن الأمر رومنطيقي جدًّا. لكن ماكس يقول، وماكس ألماني، وهو عملي جدًّا، وقادر على أن ينتقل إلى خلف خطوط العدوّ بالسهولة التي تذهب بها أنت إلى دكّان الحلّاق، أو إلى أي مكان من هذا النوع. المهم، إنه يقول إن المسألة عملية جدًّا. لذا أنا فكّرت، وأنا ثملٌ نوعًا ما الآن- لأني لم أتناول أي مشروب لوقت طويل- أنّ علينا تعليق سائر المشاريع التي كنّا نعمل عليها مؤقتًا، وأن نحاول القبض على هذين الرجلين. لست أعتقد أن الألماني سيكون ذا منفعة عملية لك، لكن له قيمة تبادلية عالية بالتأكيد، وهذا المشروع يروق لماكس بمعنى ما. أنا أقول: لنضع المسؤولية على القومية. ولكن إذا قبضنا على المواطن الآخر، سيكون لديك صيدًا ثمينًا، مي كورونيل. لأنه رهيب جدًّا جدًّا، رهيب. معلومك أنه خارج المدينة. لكنه يعرف من هم الذين في الداخل. ثم إنك ستأتي به وتلاطفه فتعرف من هو الموجود داخل المدينة. لأنهم جميعهم يتواصلون معه. إنني أُكثِر من الكلام، أليس كذلك؟
أنطونيو: فيليب.
فيليب: سي، مي كورونيل



أنطونيو: فيليب، اذهب الآن إلى شيكوتي واسكر مثل أي ولد عاقل ونفّذ مهمتك، وارجع إليّ أو اتصل بي عندما تكون لديك أخبار.
فيليب: وماذا أتكلم، مي كورونيل، بالإنكليزية أم الأميركية؟
أنطونيو: كما تريد. لكن لا تهذر بالكلام. اذهب الآن. أرجوك. إننا صديقان حميمان وأنا أحبك حبًّا جمّا، لكني مشغول جدًّا. اسمع: هل الخبر عن موقع المراقبة صحيح؟
فيليب: بلى.
أنطونيو: يا خبر!
فيليب: خبر مثير للإعجاب، مع ذلك. عجيب جدًّا جدًّا، مي كورونيل.
أنطونيو: اذهب، رجاءً، وباشر بالعمل.
فيليب: سوف أتكلم الإنكليزية إذًا. يا الله، أستطيع أن أكذب بسهولة أكبر بكثير بالإنكليزية، يا للأسى.
أنطونيو: ارحل، ارحل، ارحل، ارحل.
فيليب: سي، مي كورونيل. شكرًا للحديث المختصر المفيد. سأذهب إلى «تشيكوتي» الآن. سَلود، مي كورونيل.
(يؤدي التحية، يلقي بنظرة على ساعته ويغادر)
أنطونيو: (على المكتب، يودّعه بنظره، ثم يقرع الجرس. يدخل حارسان من فرقة التدخّل السريع. يؤديان التحية) والآن هاتوا لي الرجل الذي اعتقلتماه سابقًا. أريد أن أتجاذب أطراف الحديث معه قليلاً بمفردي.

ستارة

الفصل الثاني/المشهد الثاني

(طاولة في زاوية ببار تشيكوتي. إنها أول طاولة إلى يمينك وأنت داخل من الباب. الباب والشباك مدعّمان بأكياس رمل بعلوّ ثلاثة أرباع ارتفاع هذا وذاك. فيليب جالس إلى الطاولة مع آنيتا. يتقدّم نادل من الطاولة)
فيليب: لديك ويسكي في البراميل؟
النادل: لم يبقَ شيء الآن من المشروب الحقيقي إلا الدجِنّ.
فيليب: دجِنّ جيّد؟
النادل: الأصفر، علامة «بوث». الأجود.
فيليب: مع كأسين من المشروب المُرّ.
آنيتا: لم تَعد تحب؟
فيليب: لا.
آنيتا: أنت ترتكب غلطة كبيرة مع هذه الشقراء الطويلة مثل برج والضخمة مثل حصان.
فيليب: وشقراء مثل حقل قمح.
آنيتا: ترتكب غلطة. امرأة ضخمة. غلطة كبيرة.
فيليب: ما الذي يجعلك تظنين أنها ضخمة إلى هذا الحدّ؟
آنيتا: ضخمة؟ إنها ضخمة مثل دبابة. انتظر حتى تحمل لك طفلاً. ضخمة؟ هي شاحنة «ستوديبيكر».
فيليب: «ستوديبيكر»، هذه كلمة جميلة، كما تلفظينها.
آنيتا: بلى، إنها أفضل من أي كلمة إنكليزية أعرفها. «ستوديبيكر». جميلة. لماذا أنت لا تحب؟
فيليب: لست متأكدًا، آنيتا. تدرين؟ الأمور تتغير.
(ينظر إلى ساعته اليدوية)
آنيتا: كنتَ تحب تمامًا. لا يوجد تغيير.
فيليب: أعرف ذلك.
آنيتا: كنتَ تحب من قبل. تحب من جديد. ما عليك إلا أن تجرّب.
فيليب: أعرف.
آنيتا: عندما يكون الأمر جيدًا لا تريد أن تغادر. المرأة الضخمة كثيرة المشاكل؟ أعرف. خبرت ذلك لمدة طويلة.
فيليب: أنتِ فتاة رائعة آنيتا.
آنيتا: هذا بسبب أن الجميع ينتقدني لأني عضضتُ مستر فرنون تلك المرة؟
فيليب: لا. طبعًا، لا.
آنيتا: أعترف لك بأنني مستعدة للتضحية بالكثير تكفيرًا عن فعلتي.
فيليب: أوه، لا أحد يتذكر ذلك.
آنيتا: تعرف لماذا عضضته؟ الكل يعرف أنني أعضّ ولكن لا أحد يسأل لماذا.
فيليب: لماذا؟
آنيتا: حاول أن ينشل ٣٠٠ بيزيتا من جوربي. ماذا كان عساي أن أفعل؟ أقول «بلى انشلها. لا عليك. تفضّل خذها»؟ لا، أنا عضضته.
فيليب: وكنتِ على حق، أيضًا.
آنيتا: تعتقد؟ حقًّا؟
فيليب: نعم.
آنيتا: أوه، أنت لذيذ، أكيد. اسمع. لستَ تريد أن تكرر الغلطة الآن مع هذه الشقراء الضخمة.
فيليب: تدرين، آنيتا. أخشى أني سأفعل. كلّ المشكلة أنني خائف. أريد أن أرتكب غلطة كبيرة بالمطلق.
(ينادي النادل. ينظر إلى ساعته اليدوية. للنادل:)
ما الساعة معك؟
النادل: *(ينظر إلى الساعة المعلّقة فوق البار وإلى ساعة فيليب)* هي الساعة ذاتها كما عندك.
آنيتا: ستكون غلطة كبيرة بالتأكيد.

فيليب: لستِ غيورة؟
آنيتا: لا. إني أكره ذلك فقط. ليلة أمس حاولت أن أكون محبّة. قلت «هوكاي»، كلنا رفاق. جاء القصف العنيف. ربما يموت الجميع. يجب أن يكون الجميع رفاقًا كلٌّ واحد مع الآخر. يجب أن ندفن الأحقاد. لا ينبغي أن أكون أنانية. ولا محبّة للذات. أحبَّ عدوّكَ مثل نفسك. وكلّ هذا الهراء.
فيليب: أنتِ رهيبة.
آنيتا: لكن هذا الهراء لا يصمد لأكثر من ليلة. هذا الصباح. استيقظت. أول شيء فعلته أنني كرهتُ تلك المرأة طوال اليوم.
فيليب: لا ينبغي أن تفعلي، حقًّا؟
آنيتا: ما الذي تريده منك؟ تأخذ رجلاً مثلك كما الواحد يقطف زهرة. وهي لا حاجة لها بها. إنها تقطف فقط لتزيين غرفتها. ثم إنك تروق لها لأنك كبير. اسمع. أنتَ تروق لي حتى لو كنت قزمًا.
فيليب: لا آنيتا، لا. اهدئي.
آنيتا: اسمع جيدًا. أنت تروق لي ولو كنتَ مريضًا. تروق لي ولو كنتَ مهزولاً وبشعًا. لكنتَ تروق لي ولو كنتَ أحدبَ.
فيليب: يا لحظّ الحُدُب.
آنيتا: أنتَ تروق لي ولو كنتَ أحدبَ طافحَ الحظّ. تروق لي ولو كنتَ مفلسًا. تحتاج إلى مال؟ سوف أعمل لتحصيله لك.
فيليب: هذا هو الأمر الوحيد الذي لم أجرّبه في هذه المهنة.
آنيتا: أنا لا أمزح. أنا جادة. فيليب، اترِكْها لحالها. عُدْ إلى حيث الأمور «هوكاي».
فيليب: أخشى أني لن أستطيع.
آنيتا: حاولْ، مجرد محاولة. ليس أي تغيير. أنت أحببت من قبل، ستحبّ من جديد. هكذا تسير الأمور دومًا، هكذا، عندما يكون الرجل رجلاً.
فيليب: لكني أتغير، ألا ترين ذلك؟ ليس أنني لست أرغب في ذلك.
آنيتا: أنتَ لم تتغير. أعرفكَ جيدًا. أعرفك منذ وقت طويل الآن. لستَ من النوع الذي يتغيّر.
فيليب: كلّ البشر يتغيرون.
آنيتا: ليس صحيحًا. يتعب المرء، بلى. يريد أن يبتعد، بلى. ينتقل من واحدة لأخرى، بلى. يغضب، بلى. يتصرّف بطريقة سيئة، بلى، كثيرًا. يتغير؟ لا. كلّ ما في الأمر أنه يبدأ بعادات جديدة. إنها عادة، هذا كلّ ما في الأمر. الأمر ذاته مع أيّ كان.
فيليب: موافق. نعم، هذا صحيح. ولكن هذا الذي حصل: يلتقي الواحد بالصدفة شخصًا من شعبه، وهذا ما يغضبك.
آنيتا: ليست من أبناء شعبك. إنها لا تشبهك. إنها من نوع آخر من البشر.
فيليب: لا، إنها من النوع ذاته.
آنيتا: اسمع، هذه الشقراء الضخمة مسّتك بالجنون. ستتخبّل قريبًا. لن تعود أنت نفسك، مثل الدم والصباغ. المظهر واحد فقط. عبوة دم. عبوة صباغ. حسنًا. ضع الصباغ في الجسم، بدلاً من الدم. ما الذي تحصل عليه؟ امرأة أميركية.
فيليب: أنتِ تظلمينها، آنيتا. مفهوم أنها كسولة ومدلّلة وبلهاء إلى حدّ ما، ومتطلّبة جنسيًّا باستمرار وبقوة. لكنها مع ذلك جميلة جدًّا، وَدود جدًّا، وساحرة جدًّا وبريئة إلى حدّ ما - وجريئة جدًّا.
آنيتا: هوكاي. حلوة؟ ماذا يفيد الجمال عندما تنتهي منه؟ إنني أعرفك. ودود؟ هوكاي، إنها ودود وتستطيع أن تصير غير ودود. ساحرة؟ بلى. هي ساحرة مثل الأفعى مع الأرانب. بريئة؟ دعني أضحك. ها ها ها ها. إنها بريئة إلى حين إثبات أنها مذنبة. جريئة؟ جريئة؟ إنك تثيرني للضحك مجددًا، إنْ بقي لي ضحك في معدتي. جريئة؟ حسنًا. إني أضحك، هو هو هو هو. ماذا كنت تفعل طوال هذه الحرب وأنت لا تستطيع التمييز بين الجهل والجرأة؟ جريئة؟ بربّي هذا-
(تنهض من على الطاولة وتصفق قفاها)
بناءً عليه أنا ذاهبة.
فيليب: أنتِ قاسية جدًّا عليها.
آنيتا: قاسية عليها؟ أودّ أن أرمي قنبلة يدوية في السرير الذي تنام فيه. إنها نائمة في هذه اللحظة بالذات. أقول لك الحقيقة. ليلة أمس، نفّذت كل التوصيات، بذلت كل التضحيات المطلوبة. كل هذا التخلي. تدري. الآن لدي شعور صحّي واحد. إنني أكره.
(تغادر)
فيليب: *(للنادل)* هل شاهدت رفيقًا من «الفيلق الأممي» يسأل عنّي هنا؟ اسمه ماكس؟ رفيق له وجه مشطوب نوعًا ما من هذه الجهة.
(يمدّ يده إلى فمه وحنكه)
رفيقٌ أسنانه نافرة إلى أمام؟ لثّته مائلة إلى السواد حيث أحرقوها له بالحديد الحامي؟ وله ندبة هنا؟
(يمرّر أصبعًا على أسفل حنكه)
هل شاهدتَ مثل هذا الرفيق؟
النادل: لم يأتِ إلى هذا المكان.
فيليب: إذا جاء مثل هذا الرفيق فهل لك أن تطلب منه أن يأتي إلى الفندق؟
النادل: أيّ فندق؟
فيليب: هو سيعرف أيّ فندق.
(يهمّ بالمغادرة وهو يلتفت إلى خلف)
قل له إني خرجت للبحث عنه.



اللغة واستراتيجيات النصّ

قراءة في روايات إلياس خوري

ماهر جرّار

أستاذ الأدب العربي ودراسات الحضارة في الجامعة الأميركية في بيروت. له مؤلفات ودراسات عدة في النقد الأدبي والتراث. صدر له مؤخرًا كتابان في الإسلام المبكر عن دار نشر «بريل» في ليدن ٢٠٢٠، ودار «جورجياس» في برنستون ٢٠٢٢

إلياس خوري مثقّف نقدي متعدد الإبداعات، ينطلق من صوت العقل النقدي والالتزام بقضايا التحرر، منخرطًا في الممارسة اليومية في زمن صار فيه ألم الشعوب العربية أكبر من أن يُحتمل. وهو بهذا مثالٌ للمثقف الذي طالبه إدوارد سعيد بأمورٍ ثلاثة: أن يجرؤ على قول الحق في وجه السلطة والتصدي لها، وأن يكون شاهدًا على الاضطهاد وعذابات الشعوب، وأن يكون صوتًا للمعارضة الوطنية في نزاعاتها مع السلطة ومؤسّساتها.

كيف نقترب من عالم إلياس خوري الروائي؟ هذا الفضاء الروائي الذي يشدّك فيه صوتُ الراوي الحميم بصيغة الأنا إلى نسيج الحَكي، ليغدوَ القارئ نفسه متورطًا في شبكة القص وشاهدًا على الأحداث. الدخول إلى عالم خوري يستدعي قراءات متكررة للنص الروائي، حيث تضيف كلّ قراءة بعدًا جديدًا في عملية الاستقبال واستمتاعًا في التلقي ومشاركةً في جماليات فعل الإبداع.

تعيش رواياتُه هاجسَ الأسئلة، أسئلة الرواية وأسئلة الحداثة: هل الكتابة وهْم، وهل تقع حقيقة الحكاية خارج الحكاية؟ هذه الأسئلة هي كذلك أسئلة الواقع العربي والمثقف العربي المعاصر؛ فالرواية- بما هي قصٌّ تخييلي- تستعيد عبر أنساق اللغة لحظاتٍ كانت عاشتها الأنا الفرديّة في خضمّ الفعل الاجتماعي لتدفعَها إلى الأمام في نسق جدلية الصيرورة التي تصنع المستقبل.

الحكاية

ما هي الحكاية؟ هل نجدُ الحكايات مرميةً في شوارع الذاكرة وأزقّة المخيّلة؟ وكيف نجمعها لنقيم نسقًا فوق أرض تتحطم فيها كلّ الأنساق؟ ما الموت؟ هل تستطيع الحكاية أن تنتصر فعليًا على الموت كما فهمنا شهرزادَ الحكاية؟ هل الحكاية هي في أن نستعيد «رفّةَ الجفن» أو «غمضةَ العين»، التي تفصل بين الوجود وبين الحكاية- بما هي تَذكُّر واستعادة؟

تنطلق غالبية روايات إلياس خوري من موتٍ ما لتحكي قصص الحياة وأحلام الناس البسطاء وآلامهم. وهي تقوم على «الاستعادة والتذكّر» (recollection) عبر حركة نحو الأمام؛ فالنهاية تفسّر البدايةَ التي لا يمكن فهمها إلا عبر حركةٍ استعاديةٍ تنطلق من بدايةٍ ليست هي سوى الحكاية نفسها. الموت هو الذي يفتح فجوات القصّ ليفسحَ مجالًا للرواة المهمّشين والأبطال الصغار ليرووا حكاياتهم.

علينا بدءًا أن نؤكّد على طبيعة الصنف الروائي. فعلى الرغم من أنّ الرواية هي إنتاج جمالي لنظام لغوي- سيميائي، فإنها تقترب، لناحية الشكل والبنية، من الظواهر الاجتماعية التي تنتمي إليها. فالرواية تنهض بدلائل موضوعية هي تعبيرات عن القيم التقليدية- في مجتمع ما - وتلك الناشئة، وهي قيم تعكس بالضرورة علاقات القوة في البنى الاجتماعية كما تشير إلى التحديات التي تواجهها هذه البنى. الرواية بهذا المعنى هي أثر مكتوب يحاكي جملة من التحوّلات الاجتماعية تتمحور في معنى اللغة والكتابة والقراءة (التلقّي)، فالروائي يكتب خارج (أو حتى ضدّ) جمود «تاريخ» السلطات، وهو «يؤرّخ» للتغيير الاجتماعي الذي هو في طور التكوّن. وعندما ننقل هذه الاعتبارات العامّة من حيّز النقاش حول مرجعية النص التاريخية إلى احتمالات اللغة وإلى حيّز البنى النصية للحكي، يجدر بنا الالتفات إلى أمر أساس هو أنّ أشياء الفضاء والعالم لها وجود مستقلّ عن اللغة، فيما داخل النص ينهض على وجود الأشياء والعالم عبر اللغة.

الروافد

أنجز إلياس خوري منذ عام ١٩٧٥ حتى اليوم ثلاثَ عشرة رواية، ومجموعة قصص قصيرة. دعونا نقف بدايةً عند الروافد المختلفة التي عملت في تشكيل نصوصه:

هناك أولاً، معرفته الوثيقة بالموروث الحكائي العربي، في بُعديه الرسمي والشعبي، المتمثل في «ألف ليلة وليلة» والسيَر الشعبية.

وثمّة ثانيًا، علاقة متينة بمنجزات الرواية العربية من جرجي زيدان إلى نجيب محفوظ، وانفتاح حواريّ على الرواية العربية الحديثة ما- بعد المحفوظية (جيلا الستينيات والسبعينيات في مصر، وإميل حبيبي، ويوسف حبشي الأشقر، وغالب هلسا، وغسان كنفاني، وأنطون شمّاس، وغيرهم كثيرون). ويَجمع إلى ما سبق صلةً حميمةً بالشعر العربي، قديمه والمعاصر.

ولديه ثالثًا، اطلاعٌ واسعٌ على الإنتاج الروائي العالمي؛ فقد قرأ كامو وسارتر وكان عمره ١٥ سنة، وعلى روائع الكبار من المعاصرين.

هذا الموروث الفكري الذي تغذى به إلياس خوري لن يكون كافيًا لإحداث نقلة مفصلية في الرواية العربية لو لم يجذّره موقفُ المثقف النقدي، المنخرط في العمل اليومي، في قضايا المجتمع وفي الصراع ضد الاستعمار- الاستيطاني الصهيوني ومطامعه. هناك، بين الناس وفي مخاضة إنتاج وعي تحرري، نضجت لغةُ خوري الروائية وأخذ يُرهف تقنياته واستراتيجياته النصيّة.

النسب الشدياقي والتجريب في اللغة

لعلّه ليس من قبيل الصدف أن يجد خوري مع أحمد فارس الشدياق نسبًا أدبيًّا يربطهما بالحداثة والتجديد، إذ يُعتبر الشدياق بحقّ من الأوائل الذين عملوا على تطويع اللغة لربطها بالحكي؛ وقد تقدّم مارون عبّود في هذا المضمار. هل يعني أنّ إلياس خوري هو سليل هذه المدرسة في اللغة؟ نعم ولا؛ نعم، لأنّه لا يستطيع ككاتب حداثي وكصحافي إلا أن يتأثّر بمدرسة الشدياق؛ ولا، لأن خوري يعوّل على مصادر أُخرى كاقترابه من صيَغ الحكي في السيَر الشعبية، كما أنه يحاور تجارب معاصريه كتجربة إميل حبيبي الذي عمل على تفكيك اللغة: عبر التلاعب اللفظي، والتهكّم، ومزج الفصحى بالعاميّة، و«المحاكاة الساخرة» (Parody) عند تناوُل الشعارات الدينية؛ وتجربة صنع الله إبراهيم التي تقترب من التقرير الصحافي، والقائمة على دمج عدّة خطابات رسمية وشعبية في صيغة من الكولاج؛ وكذلك لغة إدوار الخرّاط الموسيقية التي تنهض على الترتيلة والشعر وتبني شيفرتها الميثية الخاصة.

وإلياس خوري رائدٌ من روّاد التجريب في اللغة. إنّ روايته «أبواب المدينة» تمثّل عالمًا مغلقًا وتستدعي إلى الذهن ببنيتها الدائرية «حكايةَ مدينة النحاس» في «ألف ليلة وليلة»، كما تقيم علاقة تناصيّة مع نصوص الكاتب الأرجنتيني بورخيس. وهي تقوم على تكسير الجملة، والتقديم والتأخير- كما في الشعر- والتكرار، والاستطراد، واستخدام اللغة الشعبية في محاولة لفتح كوّة في بنية الشكل وفي خلق لغة كانت تتلجّج في صدر خوري الشاب آنذاك. تبقى هذه العناصر مركزيةً في روايات خوري اللاحقة على الرغم من التجريب اللغوي الذي يسمُها ويعطي لكلّ رواية طابعَها الخاص من حيث اللغة. وبإمكاننا أن نعتبر «الوجوهَ البيضاء» قفزةً نوعيةً في الرواية العربية المعاصرة، إذ يستعير خوري لغة الصحافة ببساطتها وجملها الواضحة، واعتماد القول الإخباري، والإيقاع الشفوي للحكي الخامّ الذي يقوله الناس العاديون. ومع تعدد الرواة تتعدد الأصوات اللغوية لتغدوَ حوارية صوتية. هذه التقنيات ما هي سوى التقاطٍ للغة الحياة ولغةِ الحرب الأهلية المتشظية والتي تعيد إنتاج تشظّيها مع انفجار الفضاء المديني.

هكذا تنحو رحلة «غاندي الصغير» منحى إعادة الحكاية كلّ مرّة من الأول بصوت مختلف وبزاوية رؤيا مختلفة تدور في حركة دائريّة على لسان أبطال هامشيين. لا تنتهي هذه الحركة الدائرية بإغلاق النص على نفسه، بل تفضي، على العكس من ذلك، إلى فتح نوافذ الحكي عبر تكاثر اللغات ووجهات النظر والتكثيف الدلالي. ويبلغ التجريب عند خوري مرحلةً من النضج والعفوية والحوارية الشعرية في «باب الشمس» وفي «يالو». في «باب الشمس»، التي تنهض على شهادات حقيقية، يتبنّى خوري تقنية القصة الإطار من «ألف ليلة وليلة»، حيث الحكي هو، بمعنى ما، فعل ينتصر على الموت، فتنفتح فجوات القصّ على الذاكرة الفردية والجمعية لعشرات الناس العاديين المقتلعين من أرضهم التاريخية فلسطين. الراوي الأول خليل عاجزٌ عن التركيز، يقفز من حكاية إلى حكاية وتضيع منه الأشياء، فيدخل في عالم داخلي يتميّز بالدفق الشعوري وتداعي الأفكار وعدم التطابق بين الزمن الواقعي وزمنه الداخلي الخاص. يُسلّم خليل الحكي لرواة آخرين من أزمنة متداخلة، لكلٍّ هواجسه/ها ولغته/ها الخاصة – مناطقيًّا واجتماعيًّا، لتعيد حكاياتُهم المتشظية إنتاج خريطة المأساة وشرط الحاضر. فـ«باب الشمس» هي رواية السرد المضادّ التي تَكتب- بلغة الناس البسطاء- تاريخَ العنف العنصري في مواجهة تاريخ المنتصر.

من «يالو» إلى «كأنها نائمة»

في «يالو» نتابع اللغة في طزاجتها، أثناء مخاض ولادتها من فم الرّاوي المنفصم على نفسه. يالو، الذي يناظر «أبله» دوستيوفسكي ويحاوره، يحاول الانتصار على الأنا المقموعة



والمفككة تحت عذابات السجن والاستخبارات ونظام التسلط والقهر، عبر الحكي والكتابة ليعيد خلق فضاءات مجتمعات مشرقية متجذّرة في بلاد الشام ابتلعتها الفتن والحروب لتعيد الروايةُ صوغ تراثها الحضاري المتجذر في اللغة والطقوس.

في «كأنها نائمة» يقيم خوري «عقدًا غير رسمي» مع القارئ ينهض على مجموعة من العتبات والإشارات المحاذية للنصّ، والتي تهدف إلى تنبيه القارئ إلى احتمالات التناصّ المتشعّبة، فالعنوان نفسه، «كأنها نائمة»، يشير إلى «الكتاب المقدّس». وتنقسم الرواية إلى ثلاثة أقسام أو ثلاث ليالٍ كما تدلّ عناوين الفصول، مشيرةً إلى أيّام الآلام الثلاثة. أمّا إيثاره اعتماد «الليالي» على «الأيّام»، فيبدو أنّه تمهيد. وهو بذلك يلفت الانتباه إلى طبيعة السرد الحالمة، ويغري القارئ بالدخول إلى تصميم الراوي الشبيه بالشبكة، حابكًا تصاميمه السرديّة، متشبّهًا بشهرزاد في هدأة الليل، لتغدو الرواية حلمًا متصلاً. فالبطلة «ميليا» أسيرة عالم الأحلام على «الطريق الملكيّ» إلى الذاكرة واللاشعور، بحسب تصنيف فرويد للأحلام، ما يجعل من رواية خوري حلمًا دائريًّا (السرد يؤطّره حلْمَان، فيبدأ بميليا وهي تغمض عينَيها من جديد لتكمل الحلم، وينتهي بها تحلم بالخروف الأبيض الصغير يزحف على صدرها).

يـــــــــغري القارئ بالدخول إلى تصميم الراوي الشبيه بالشبكـــــــــة، حابكًا تصاميمه السرديّـــــــــة، متشبّهًا بشـــــــــهرزاد في هدأة الليل، لتغدو الروايـــــــــة حلمًا متصلاً

أمّا الأحلام الأدبيّة فتأتي في صلب النصّ، وترتبط وظيفة الحلم بسياق الرواية الثقافي. هكذا تربط حالة الحلم وحلم اليقظة الماضي التوراتي والإنجيلي باللحظة المعاصرة، لا سيّما أنّ حالة الحلم بحدّ ذاتها هي فضاء حَدِّي أو عتبة مبهمة قابعة زمنيًّا في الطقوس الانتقاليّة العالقة بين حدود الوقت العادي وما يتجاوزه من طقوس وتعبيرات لغوية. أمّا الراوي في «كأنها نائمة»، فيعتمد السرد غير متجانس الحكي. وهو يتّخذ تارةً موقف الراوي العليم الذي يعرف كلّ شيء عن الشخصيات، لا سيّما ميليا، البطلة الرئيسة، وتارةً أخرى يكون أشبه بالمؤرّخ. لكنّه يلمّح إلى حضوره في الحكاية، ويكشف، قرابة نهاية الرواية، أنّه إسكندر، ابن أخي ميليا الذي أصبح صحافيًّا.

في الجزأين اللذين صدرا حتى الآن من ثُلاثية «أولاد الغيتو»، يخرج آدم من «استعارته المستديرة» (استعارة «وضّاح اليمن» التي يقرؤها خوري بما تنطوي عليه من تعقيد متعدد الدلالات)، والتي تلتفّ على نفسها وعلى تاريخها ليغدوَ حقيقةً تتجاوز معنى الرمز ليقف وحيدًا في فراغات «الطلل» الذي هو فلسطين. آدم، المولود الأول في غيتو اللدّ، بما هو الشاهد على بداية المذبحة، هو كذلك الإنسان الأخير الذي يحيا «مفارقة» الأطلال على امتداد جغرافيا الأنقاض التي أحالتها الصهيونية الاستعمارية إلى فجوة من العنف والجنون حيث يقف آدم حارسًا للخراب ولأصوات الموتى. آدم البداية، هذا الحاضر- الغائب المتروك عند تقاطع التذكّر والخراب في مكان برزخيّ للرحيل والاقتلاع مفكك الحيائز (deterritorialized)، يحمل في أناه نَسَغًا من كلتا الشخصيتين الروائيتين دوف- خلدون وسعيد المتشائل، ومثلهما هو يهودي بالمصادفة، بل قل بالمباغتة. ولعل «مفارقة» الأطلال التي صقلت وعيه على حدّ الألم والتوتر والتذكّر في غيتو وارسو وفي مصنع الموت «أوشفيتس»، هي التي سوف تجعل منه، في الجزء الأخير المرتقب من ثلاثية خوري، شخصًا آخر غير «دوف» و«سعيد»، شخصًا يخرج من استعارة آرثر كوستلر في روايته «لصوص في الليل» (كنفاني، عائد إلى حيفا، الآثار الكاملة، ٣٧٢/١)، ويخرج من منفاه وبداوته إلى مستقبل «مفارقة» الوطن/ الطلل الذي «تحتاج تسويته إلى حرب» تنتهي بهزيمة الصهيونية كمشروع إمبريالي- عنصري، ليفسح الأفق لتفتّح إنسانية جديدة اسمها فلسطين.

هكذا طوّر خوري في رواياته لغةً تعمل في قلب التناقضات القائمة على تفكيك الخطاب الرسمي والميثي ليخلق لغةً تستحثّ الوعي وتعيد تأكيد خطاب الإنسان المهمّش، ليحكي تاريخ المسكوت عنه الحائر أمام شرط الوجود وأسئلته.

استراتيجيات السرد

جديرٌ بالانتباه أنّ خوري ينأى في نصوصه عن صوت الراوي كليّ المعرفة الذي يهيمن على فضاء النصّ. يتحكم خوري بعملية التوالي الزمني وبتقنيات وصف الشخصيات، فاسحًا أمام كل شخصية التعبير عن تعدد أحوالها وأزمنتها وتطوّر خلجاتها، فالراوي الضمني في رواياته دائمًا يحكي بصيغة الأنا (وليس المقصود هنا صوت الأنا الرتيب المكرّر، والغارق في تفاصيل الذات). يعمد خوري إلى تبنّي زوايا نظر (أو التبئير)

منفتحة (كاميرا ٨ ملم محمولة على الكتف)، ما يؤدي إلى تعدد تلك الزوايا. يسلّم الرواة بعضهم بعضًا فيتداخل ويتقاطع حكي الأحداث وحكي الأقوال، وتغيب عملية الوصف، ليتكرر إنتاج الحدث عبر احتمالات الأفعال وتوجّهاتها، ولتتجاور مجموعة من الخطابات الفرعية لتكتمل عبرها بنية فضاء النص الروائي.

ينهض فضاء النصّ إذن على التقطيع المشهدي السينمائي، فلا يعود الزمن يستقيم في خط تطور سردي يتجه إلى الأمام، بل إنّ التكرار والاستعادة والتقديم والتأخير والاسترجاع تفضي جميعها إلى تكثيف الزمن الذي يتراوح بين الزمن الفعلي التاريخي، وزمن القص، وزمن الشخصيات النفسي. فالتغيير في الصوت وفي الضمائر يستدعي تغييرًا على مستويات السرد ووجهات النظر التي تنفتح على بعضها البعض كالمرايا المتعاكسة.

ينتج خوري شخصيات غير جاهزة سلفًا، شخصيات مركّبة متعددة الوجوه لا تكتمل إلا باكتمال الحكي

بإمكاننا أن نقف هنا لنستنتج أنّ طبيعة اللغة التجريبية القائمة على التفكيك، وتكسير الجملة، واعتماد القول الإخباري، والإيقاع الشفوي للحكي الخام، وتَزاوج الفصحى بالعامّيات المحكيّة في بلاد الشام، ليست أمرًا مفتعلًا (أو لعبًا شكليًا في اللغة)، بل هي محصّلة لطبيعة القصّ الذي ينبني عبر تجاور «بؤر الحكي» وتداخلها.

ثمّة أمر آخر جدير بالاهتمام في تقنيات خوري يتمثّل في قدرته المميزة على تكوين الشخصية الحكائية. وهذا يعود إلى الاستراتيجيات النصيّة التي تكلّمنا عنها، فرواية خوري حواريةٌ شعريّةٌ بامتياز، فهو، بابتعاده عن الوصف وعن استخدام صوت «الراوي كليّ المعرفة»، ينتج شخصياتٍ غير جاهزة سلفًا، شخصيات مركّبة متعددة الوجوه لا تكتمل إلا باكتمال الحكي، لا بل تمتلك، بما هي شخصيات حقيقية نابعة من الواقع وبما تمثّل من أبعاد إنسانية وشمولية، قدرةً على الاستمرار في ضمير القرّاء المتلقّين. ولعل تمكّن خوري من التشكيل «الأيقوني» ومن بناء الرمز الكلّي (المسيح، ومار الياس، والغريب، وفلسطين كاستعارة كبرى) هو ما يضفي على شخصياته حياةً خاصةً خارج نصوصه الروائية.

يفضي بنا هذا إلى المحور الأخير من هذه الملاحظات، أعني الفضاء التاريخي- الجغرافي. إنّ روايات خوري متجذّرة في بيئتها الجغرافية، وهي تعود بنا إلى أحداث مفصلية في تاريخ بلاد الشام في وقت كانت فيه القوى الدولية العظمى تسعى إلى تفتيت السلطنة العثمانية والسيطرة عبر استلحاق «مللها»، فكانت أحداث ١٨٤٠-١٨٦٠ التي عمّت لبنان وامتدّت إلى دمشق؛ ثم مجازر التطهير العرقي ضد الأرمن والسريان في مطلع القرن العشرين. هذان الحدثان الكبيران أعادا تشكيل منطقة بلاد الشام بما نتج عنهما من عنف وموت واقتلاع وتهجير؛ فنجد خوري في «مجمع الأسرار» يقدّم رؤى عميقة تتعلق بطبيعة العنف السياسي-الاجتماعي في المنطقة، فيتابع هجرة آل نصّار إلى كولومبيا بعد المذبحة التي تعرضوا لها في جبل لبنان الجنوبي ليندمجوا بغرباء الحروب الأهلية التي تناسلت في كولومبيا أواخر القرن التاسع عشر، وليتناصّ مع غارسيا ماركيز في رواية «موت معلن». ثم تأتي الهجمة الصهيونية الاستيطانية، المؤسَّسة إيديولوجيًّا على ميثيّة- أسطورية، لتقتلعَ الشعبَ الفلسطيني عبر القتل والذبح والتهجير من الأرض لتُكمل دائرة الموت ولتقيم على أنقاض بلاد الشام مملكةً للغرباء - فروايات خوري تحكي بصوت هؤلاء الغرباء والموتى الذين يُخبرون في فضاءاتها حكاياتهم التي أهملها التاريخ.

الملاحظة المهمة أنّ الحرب الأهلية اللبنانية هي التي شكّلت الولادة الحقيقية للرواية اللبنانية. ولا يَفهم خوري هذه الحرب بمعزل عن صيرورة الجدلية التاريخية منذ منتصف القرن التاسع عشر، وما أفضت إليه من تأسيس لدولة العسف والقمع العربية- التي يسمّيها دولةَ المماليك الجدد- فتاريخنا الحديث هو نتاجٌ مباشرٌ لهذه الفترة التي ما زالت مستمرة حتى اليوم. إنّ أسئلة الحرب اللبنانية تبدأ هناك، كما أسئلة السقوط التي تتوالى انفجاراتٍ لا قعرَ لها، فالحروب ليس فيها منتصر- كلنا مهزومون في الحروب وكلنا قتلى وغرباء، والغربة هي معنى الإنسان.

في القلب من هذه الأسئلة الوجودية التي تطرحها نصوص خوري تغدو فلسطين- المحاصرة بالدم والعهر والخيانة- هي السؤال المركزي والقضية التي يمكن أن تصهر كلّ الشعوب وكلّ الغرباء في بحثهم عن المعنى والحرية والكرامة الإنسانية.

يقف إلياس خوري متميزًا بين سائر أبناء جيله، وهو يُعدّ بحق بين الأسماء الكبيرة في العالم العربي وأدب العالم الثالث في استراتيجياته ما بعد الكولونيالية، يحاور الرواية العالمية ويُعتبر من أعلامها المعاصرين.



«العربي الكوبي»
حياة فيّاض خميس وشعره

مارو پابون

جامعية. تُعدّ رسالة دكتوراه في الأدب المقارن، في جامعة ييل الأميركية، عن نموّ منظور عالمثالثي في أعمال كتّاب فلسطينيين وجزائريين وكوبيين خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. تمارس الترجمة من الإسبانية والفرنسية والعربية

ترجمة فيفيان عقيقي

كنت أتصفّح بسرعة كتاب «مختارات من الشعر الكوبي في القرن العشرين» عندما فوجئت باسمٍ عربي دفعني إلى إعادة القراءة- فيّاض والأصل فَيْض، وهو اسمٌ يدلّ على الفيضان والطلاقة، من تدفّق المياه والخطابيّة. في ذلك الوقت، كنتُ في المراحل الأولى من البحث لإعداد أطروحتي عن شبكات التبادل الثقافي التي نشأت بين المثقّفين العرب والأميركيين اللاتينيين خلال الستينيات من القرن الماضي، بحيث أثار اهتمامي ظهور كاتب تكشّف - عبر بحث سريع على الإنترنت - أنه من أصول لبنانية، فألهاني لفترةٍ عن قراءاتي الأخرى. أدركتُ الأمر سريعًا عندما اطّلعتُ على سيرة حياته: كنت أعيش من دون أن أدري في عالمٍ فكريّ شكّله فيّاض خميس بطرق غير مباشرة ولكن مهمّة. شارك مع روبرتو فرنانديز ريتامار عام ١٩٥٩ في تحرير أولى المختارات الشعرية التي نُشرت في أعقاب الثورة الكوبية. كان رسّامًا وشاعرًا وصحافيًّا، وصمّم أيضًا غلاف رواية «الجنّة» (Paradiso) لخوسيه ليزاما ليما عام ١٩٦٦. وفي باريس، رعى الكاتب السوريالي أندريه بريتون معرضَه الأول للرسم. أتذكّر سعادتي باكتشافه في تلك اللحظة تحديدًا. عندما عدت إلى المختارات الموجودة أمامي، قرأت قصيدة خميس، وتحوّلت مفاجأتي المسلّية إلى دهشة:

> ينبوعُ اللغة، رجلٌ، فقدَ النطق،
> حَفرَ على الطاولة، في الواقع، واللاواقع،
> تذكّر محادثةً بين السمك،
> أولى كلمات طفل، خطابًا مؤثّرًا،
> لوائح الشريعة، رسالة حُب،
> فقدَ النطق.

نُشرت هذه القصيدة للمرّة الأولى في العام ١٩٦٨، وكانت عن إعادة تعلّم كيفيّة التحدّث كاستعارة لعمليّة تحرر من الاغتراب؛ الرجل ينبوع لغة تتفجّر في التاريخ:

> وفجأة، في اندفاعة مطلقة للحياة العاديّة
> بدأ يتكلّم بطريقة منطقيّة مثل المجنون
> عن كلّ ما كان يريد التحدّث عنه
> وامتلأ العالم بأمور عديدة جديدة
> أصبحت الأمور القديمة أحدث
> والأمور الجديدة أصبحت أقدم وأحدث[١]

التضامن أو بناء الجسور

كان العام ١٩٦٨، بالطبع، عام المؤتمر الثقافي في هافانا، وهو لقاء يجمع مثقّفين من جميع أنحاء العالم لمناقشة المشاكل التي تطرحها الكولونيالية والنيوكولونيالية في وجه التطوّر الثقافي، وكيفية التغلّب عليها. طوال العقد الماضي، بدأ المفكّرون المناهضون للاستعمار والإمبريالية في جميع أنحاء العالم يجادلون بأنّ التحوّل الاجتماعي والاقتصادي لن يكون كافيًا لإلغاء الموروثات الأيديولوجية والأخلاقية للمجتمع البرجوازي، وبالتالي لا بدّ من السماح بتشكّل مجالات أخرى مثل اللغة والثقافة والوعي. في تلك اللحظة، وفي ذاك الظرف، كتب خميس قصيدة أعادت وضع اللغة في مركز الإبداع البشري، وهي قصيدة يصوّر فيها الإبداع البشري كطوفان تحويلي.

أنشطة خميس الثقافية والسياسية في فرنسا وكوبا، واستثماره في مشروع العالم الثالث، وحتى اسمه المستعار «إل مورو» (العربي)، سوف أكتشف كلّ ذلك لاحقًا، وعلى مدى سنوات، عيّنتُ خلالها لنفسي مهمّة التعرّف إلى حياته وأعماله. ما تعلّمته يستحقّ المشاركة لأسباب عدّة. لا يزال خميس مجهولاً خارج كوبا، حتّى عند المهتمّين بأدب أميركا اللاتينية في القرن العشرين. ربّما يعود بقاؤه في الظل، بشكل جزئي، إلى وفاته عن عمر الثامنة والخمسين بالسرطان، وإنّما أيضًا إلى حالات التهميش المختلفة التي خضع لها طوال حياته: بصفته ابن مهاجر لبناني في ريف كوبا، ونازح ريفي

إلى هافانا، وفنّان كوبي فقير في باريس لاحقًا. لكنّ البعد عن العالمية قدّم دروسًا خاصّة، كان خميس منتبهًا لها. تعلّم، مرارًا وتكرارًا، التعرّف إلى جيوب الحياة البشرية المشتركة التي استُبعِدت من الروايات الكبرى والثقافة الرسمية. وربما الأهم أنّ موقع خميس الهامشي وزوايا النظر التي توفّرها إلى عالم منظّم من خلال العنف، شكّلت الالتزامات الأمميّة والمناهضة للاستعمار التي طوّرها في خمسينيات القرن الماضي وستّينياته. كانت حياته مكرّسة لمهمّة التضامن، لبناء جسور جديدة قد توصله إلى جسور أخرى، سواء عبر الشعر أو الترجمة أو السياسة. هذه من أهمّ الموروثات التي تركها لنا خميس، وتستحقّ العودة إليها اليوم.

وُلد فياض خميس في ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٠ في أوخوكالينتي، بلدة صغيرة في ولاية زاكاتيكاس في المكسيك، لأب لبناني شيعي يُدعى يونس خميس، وأم مكسيكية اسمها كونسبسيون برنال. وكما لاحظ العديدُ من دارسي الهجرة، تميّزت الفترة التي أعقبت العام ١٨٨٠ مباشرةً بزيادةٍ في عدد العرب المسيحيين الذين هاجروا من بلاد الشام إلى أميركا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي. تنوّعت أسباب الهجرة، لكن يُنظر إلى أزمة السلطنة العثمانية، وازدياد التوترات بين الدروز والموارنة، واستقرار الجاليات العربية في الشتات، على أنّها ساهمت في قرار العديد من الأفراد بعبور المحيط الأطلسي[٢]. على الرغم من أنّ الأسباب الفعلية لوصول يونس إلى المكسيك (أو سفر العائلة إلى كوبا في العام ١٩٣٦) لا تزال غير معروفة، من الواضح أنّ يونس، مثله مثل كثيرين قبله، انتقل بحثًا عن رخاء اقتصادي. في بلدة أوخوكالينتي، حيث التقى يونس بكونسبسيون، اعتمدت الأسرة على براعة الأب اللبناني في تجارة الماشية. وبمجرّد استقرار العائلة في غوايوس، المكان الذي بقي خميس مرتبطًا به طوال حياته، اشترى يونس محلّ بقالة. يروي شقيقه مصطفى، في مقابلة أجريت بعد وفاة الشاعر، أنّ المتجر أصبح مكانًا مهمًّا لنموّ العلاقة الوطيدة بين يونس وفيّاض. ففي حين أُرسِل الأبناء الآخرون للعمل في قصّ قصب السكر، كُلِّف فيّاض بمساعدة الأب على إدارة المحل؛ هكذا، كان للصبي متّسع من الوقت للقراءة، أو الرسم بأي مواد متاحة. وفقًا لمصطفى، كان يونس - الذي امتلك عادةَ ارتجال الأغاني بالعربية - سعيدًا بمهارات فيّاض الفنية اللامعة. كان يقول: «ابني يشبهني».

من هافانا إلى باريس

في الواقع، تحوّلت مساعي خميس الإبداعية إلى موهبة في غوايوس. في العام ١٩٤٩، نشرت مطبعة صغيرة في البلدة مجموعته الشعرية الأولى «البوصلة» (Brújula)، التي كتبها بأسلوب الكتّاب الرومانسيين الكوبيين. بعدها بوقت قصير، انتقل خميس إلى هافانا ليبدأ دراسة الرسم في أكاديمية سان أليخاندرو للفنون الجميلة. كطالب مهتمّ بكلٍّ من الشعر والفنون البصرية، انخرط خميس مع مجموعة طليعية عُرِفت باسم «الفريق الحادي عشر» (Groupo Los Once)، الذي تأثّر بالتيّارات الأوروبية المعاصرة في الفنّ التجريدي، وبمجلة «الأصول» (Origenes) الأدبية الحداثية التي يديرها الكاتب خوسيه ليزاما ليما. قاده الانتماء إلى هذين المحورين من الابتكار الجمالي والأدبي إلى وضع مدينة باريس نصب عينيه، بحيث انتقل إليها في العام ١٩٥٣. انغمس في ما تقدّمه المدينةُ للثقافة العالميّة وهو بلا أيّ مورد مالي. عمل في مشغل النحّات المجري لاسلو سابو مقابل استخدامه للمنامة في الليل. ربّما كانت هذه أكثر فتراته إنتاجيّة كرسّام، فاقترب أكثر من الأسلوب التعبيري التجريدي، الذي نقل إحساسًا بالمعاناة والتشريد.

في الواقع، أدرك خميس خلال سنواته في باريس الطرقَ التي بَنت بها تلك الحاضرة صورتها عبر مصادرة وقمع الأجانب والمستعمَرين والمهمّشين. فأدرك، بعبارة أخرى، أنّ الجمال الرائع والانتصارات الجمالية العظيمة غالبًا ما تتشارك في الاحتمالية نفسها: العنف الفظيع، عنف المصادرة والاحتلال. شكّل ذلك تحصيصًا محاولة لتجاوز التناقضات التي طبعت تجربته في باريس، إذ بدأ خميس، خلال إقامته في المدينة، في كتابة «الجسور» (Los Puentes)، كتابه الأول من الشعر الملتزم.

على الرغم من نشرها في العام ١٩٦٢، إلّا أنّ قصائد هذه المجموعة كُتبت بين العامين ١٩٥٠ و١٩٥٧، وبيّنت وجود ارتباط عميق ليس فقط مع التيّارات الفرنسية الطليعية - وأبرزها أعمال شارل بودلير، وبول إلوار، وأپولينير - بل أيضًا مع الانقلابات الجيوسياسية الكبرى في تلك الفترة. كما ذكر خميس مرارًا خلال حياته، فإن النفاذ إلى العلاقة بين الحداثة والاستعمار التي تميّز قصائد «الجسور» كانت نتاج الأدوات الإنسانية التي قدّمتها له فرنسا لفهم العالم - كتب جديدة، ومفاهيم جديدة، ومساحات جديدة للأسئلة الفكرية. وفي الوقت نفسه، كانت القصائد نتاج ردّ فعله على كلّ أعمال العنف التي تتناقض مع الدافع الأخلاقي لتلك الأدوات. أشار خميس مرة، إلى نوعين مختلفين من الثقافة السياسية التي تلقّاها في باريس: «تحدّث معظم من تواجد منّا في باريس عن السياسة فقط، حتى أننا أنشأنا مجموعات قراءة بعد العام ١٩٥٥. ثم اندلعت حرب الاستقلال في الجزائر. وقعت سلسلة من الأحداث التي لم تجعلنا نطوّر وعينا السياسي فحسب، بل أجبرتنا أيضًا على تبنّي مواقف من الأحداث الجارية»[٣].



الثورة وبناء الإنسان الجديد

منحته الثورة الكوبية فرصًا كثيرة للعمل وتوسيع التزاماته السياسية. بعدما أطاح فيدل كاسترو وحركة ٢٦ يوليو الحكم الدكتاتوري لفولغينسيو باتيستا في العام ١٩٥٩، عاد خميس إلى كوبا على عجل، مصمّمًا على المساعدة في تقوية «الإنسان الجديد» الذي تنبأ بوصوله في «الجسور»:

غدًا سنمتلك جميعًا الوجه البرونزي نفسه
وسنتحدث اللغة نفسها
غدًا، حتى لو لم ترد ذلك سيدي الجنرال،
يا أيها السيد التاجر، السيّد بالنظّارتين المصنوعتين
من أسلاك ورماد
قريبًا، ستكون الحياة الجديدة، سوف يبني الإنسان
الجديد مدنه
فوق عظامك، وأنا سوف أبني مدينتي فوق رماد
كاتدرائية نوتردام[٤].

بعد الثورة مباشرةً، تبنّى خميس مهمّة التنمية الثقافية إلى جانب مجموعة من الكتّاب والمثقفين من بينهم روبرتو فرنانديز ريتامار، ونيكولاس غولن

بعد الثورة مباشرةً، تبنّى خميس مهمّة التنمية الثقافية إلى جانب مجموعة من الكتّاب والمثقفين من بينهم روبرتو فرنانديز ريتامار، ونيكولاس غولن، ونيفاريا تيجيرا، وخوسيه باراغانيو. إذا تجلّى الفهم الجماعي للثقافة في الاتحاد السوفييتي بوضع الفنّ في متناول «الشعب»، فقد أصبحت الأولوية في كوبا لتثقيف «الشعب» ليتمكّن من إنتاج الفنّ بنفسه. هذه هي رؤية الذات التي طرحتها الثورة - كان كلّ كوبي مثقفًا محتملاً وفنانًا محتملاً. كرّس خميس نفسه لتجسيد هذه الرؤية عبر جعل شعره وسيلة لـ«صوت» الشعب الجديد، والواقع الكوبي الجديد، فكتب بالعامية بانتظام مبتهجًا بالنصر، وهو ما مثّل خروجًا عن الصور المحكمة والنبرة اليائسة لقصائده السابقة. كانت مجموعته الشعرية «من أجل هذه الحرية» (Por Esta Libertad)، التي نُشرت في العام ١٩٦٢، تتويجًا لمحاولاته ربط الأهداف الإنسانية للثورة باللغة العامية:

إننا نصنع الشعر معًا.
من كلّ شجرةٍ مزروعةٍ في الشارع
من كلّ جدارٍ يرتفع لحماية حلم المنبوذ
من كلّ قطرة عرقٍ لفلّاح
ينظر بعينيه الدامعتين
إلى الأرض الشاهدة على ألمه الشديد،
من كلّ انتصارٍ جديد
يولد الشّعر[٥]

لا يُعرَّف الشعر هنا على أنه تعبير عن تفكّر فردي، بل هو نتاج النشاط المادي الاجتماعي للإنسان. يخبرنا خميس أنّ الشعر ينبثق من الآليّات نفسها التي ينبثق منها العمل. إنهما شبيهان لأنهما فعلاً إبداع.

على الرغم من حصول مجموعته «من أجل هذه الحرية» على جائزة Casa de las Americas الافتتاحية في العام نفسه الذي نُشِرت فيه، إلّا أنّ بعض النقّاد اعترضوا بسبب ما اعتبروه إفراطًا باللغة البرنامجية للمجموعة الشعرية؛ شاع انتقادٌ مماثلٌ يقول إنّ القصائد كانت أقرب إلى الشعارات من الأدب. (خضع أسلوبه الجديد في الرسم لتقييم مماثل، بعد أن أصبح أكثر رمزية: أصبحت الزهور والنجوم من الأفكار المهيمنة، وظهرت الصورة الطوطميّة لتشي غيفارا). لكنّ خميس ونظراءه دافعوا عن المجموعة، بحجّة أنّ تطوير شعر حبور وشعبي ضروري للشعوب التي مُنعت طوال تاريخها من التحدث بصوتها، والتي نادرًا ما كانت تملك فرصةً لممارسة كيفية إنتاج تعبيرات الفرح. كما كتب فرنانديز ريتامار في مقالٍ عن خميس: «المهمّ هو أن يكون لديك الاستعداد لعبور تلك الجسور والوصول إلى شاطئ جديد».

في الستينيات، وجد خميس المزيد من الجسور ليعبرها من خلال انخراطه في أنشطة «الاتحاد الوطني للكتّاب والفنّانين الكوبيين»، ومجلته الثقافية «الاتحاد» (Unión). تأسّس الاتحاد الوطني في العام ١٩٦١، وسرعان ما أصبح مكانًا لتطوير التماثل النامي لدى المثقفين الكوبيين مع مواقف التيّارات المناهضة للاستعمار في جميع أنحاء العالم، وترجمة ذلك التماثل إلى تجارب عامّة وجمالية، وأيضًا إلى فهم جديد لأسباب تشابه الآداب لدى شعوب مختلفة. بعبارة أخرى، تولّد فهمٌ جديدٌ للتعاون الأدبي كطريقةٍ لتسخير الإمكانات السياسية للتضامن. لا يوجد دليل أفضل على الدور الذي لعبه «الاتحاد الوطني» في تشكيل هوية المثقفين الكوبيين مع الحركات الأجنبية المناهضة للاستعمار خلال منتصف الستينيات، أكثر من

التغييرات الجمالية والتحريرية التي خضعت لها مجلّة «الاتحاد» في فترة تولّي خميس إدارة تحريرها.

بدءًا من العام ١٩٦٥، أعاد خميس توجيه تركيز المجلّة إلى العالم الثالث الناشئ والكتلة الاشتراكية. لئن شكّل شعر خميس في الستينيات دعوة إلى الثورة لترسيخ نفسها في التحوّل الثقافي، فإنّ عمله مع مجلة «الاتحاد» وضع هذه الدعوة قيد التنفيذ. كتب بيانات افتتاحية تشدّد على أممية الثورة الكوبية بشكل أساسي، وجعلها المهمّة الأساسية للمجلة ليكشف للشعب الكوبي عن رؤيةٍ للثقافة الثورية التي ولدت من استقبال الثورة في الخارج – في فيتنام والجزائر – والسماح لهذا الفهم الجماعي للثقافة والانتماء الوطني أيضًا، بتشكيل هدف البنية التحتية الجديدة للأدب الكوبي.

لئن شكّل شعر خميس دعوة إلى الثورة لترسيخ نفسها في التحوّل الثقافي، فإنّ عمله مع مجلة «الاتحاد» وضع هذه الدعوة قيد التنفيذ

في معرض تركيزه على هذه المهمّة، نشر خميس لكتّاب ثوريين مثل ليوبولد سنغور، ماريو دي أندرادي، أتيلا يوجيف، وولي سوينكا، للمرّة الأولى ربّما باللغة الإسبانية. وقد ترجم بنفسه أعمال الشاعر الجزائري الفرنكوفوني جان سيناك إلى الإسبانية، كدعم ثقافي وتعاون يحلم بهما منذ عقد عندما كان في باريس. ارتحل كثيرًا خلال تلك الفترة. قصد الصين حيث كتب مجموعة قصيرة بعنوان «أربع قصائد في الصين». وزار المجر حيث التقى الفيلسوف الماركسي جيورجي لوكاش وأجرى معه مقابلة صحافية. وفي العام ١٩٧٣، دُعي خميس لعرض لوحاته من قبل «الاتحاد الوطني للفنانين التشكيليين» في الجزائر، وهي مؤسّسة تشكّلت جزئيًّا وفق نموذج «الاتحاد الوطني للفنانين الكوبيين». خلال تلك الرحلة، ألّف قصيدة عن رحلته بعنوان «حوليّات في الجزائر» (Crónica en Argelia)، عبّر فيها عن دهشته من التشابه التاريخي بين كوبا والجزائر، كما دهش لتمكّنه من الوصول إلى التراب الجزائري، والتحديق في سمائها، وعبوره جسرًا جديدًا.

ثمّة حدثان مهمّان آخران في حياة خميس في العام ١٩٧٣: الأول، نشر مجموعة «فتحت البوابة الحديدية» (Abrí la verja de hierro) الشعرية وهي الأكثر تمثيلاً لتطوّر خلاصاته عن التيارات السوريالية والعامية، والثاني عودته إلى مسقط رأسه. بعد أن عُيِّن ملحقًا ثقافيًّا بالسفارة الكوبية في المكسيك، انتقل خميس إلى تلك البلاد لمدة ١١ عامًا. كانت هذه الفترة الأهدأ في حياته؛ كتب الأصدقاء والرفاق أنّ المسؤوليات الدبلوماسية تناسب خميس وإن ظلّ يجدها مرهقة. على الرغم من أنّ الكثير ممّا أنتجه خميس خلال هذه السنوات لم يُنشر، إلا أنه استمر في الكتابة والرسم بشغف، وطوّر اهتمامًا خاصًّا بالثقافة الشعبية في غوايوس، البلدة التي نشأ فيها. عاد إلى تاريخ وتقاليد شعبها كمصدرٍ لعمله، وعندما عاد إلى كوبا في العام ١٩٨٤، بدأ التخطيط لافتتاح متحف فنّي في البلدة. للأسف، لم يعِش خميس ليرى المتحف؛ توفي في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٨ بعد صراعٍ مع السرطان. مع ذلك، استمرّ في عبور الجسور حتّى بعدَ وفاته: في السنوات القليلة الماضية، تمّ إحياء مشروع المتحف من قبل جيل أصغر من الكوبيين المتحمّسين لبث روح خميس الإبداعية في غوايوس. بالإضافة إلى ذلك، بدأت العلامات التي تركها خميس على المشاهد الفكرية التي سكنها تحمل اسمه بشكل متزايد من خلال أعمال الباحثين والمعجبين الذين عاصروا «إل مورو».

في القصيدة عن رحلته الجزائرية، عبّر خميس عن أمله بأن تؤسّس كلماتُه «علاقة عميقة، وإن كانت غير مرئية، مع جمال الأحجار البيضاء في الجزائر»[٦]. يمكننا اليوم تأريخ رغبته في ذلك التواصل بل وإعطاؤه اسمًا – التضامن بين شعوب العالم الثالث – باعتباره من الموروثات المشروعة لخميس، ونتاج الالتزامات التي تمسّك بها، والمؤسّسات التي ساعد في إنشائها. لا شكّ أنّ إقامة الروابط أمر جميل، لكنها لم تبقَ محجوبة، لصالحنا جميعًا.

الهوامش

١ Fayad Jamís, “Fuente de la palabra”, *La Pedrada* (Havana: Editorial Letras Cubanas, 1985), 163-64.

٢ See Rigoberto Paredes Menéndez, “Los árabes en Cuba”, in *Los árabes en América Latina: Historia de una emigración*, ed. Abdeluahed Akmir (Madrid: Siglo XXI, 2009).

٣ Orlando Castellanos, “Las palabras del Moro”, *La Gaceta de Cuba*, May-June (1992), 21-23.

٤ Fayad Jamís, “Vagundo del alba”, *La Pedrada* (Havana: Editorial Letras Cubanas, 1985), 43-46.

٥ Fayad Jamís, *Por esta libertad* (Havana: Casa de las Américas, 1962), 13.

٦ Fayad Jamís, “Crónica en Argelia”, *La Pedrada* (Havana: Editorial Letras Cubanas, 1985), 150-59.



ناظم حكمت وفياض خميس في فندق «هابانا ليبر».





قصيدتان لفيّاض خميس

أجمل قصائدي

يومًا بعد يوم
سأكتب القصيدة
كلمة كلمة
بيتًا بيتًا
ونارًا بعد نار.
هذه هي شهادتي للمستقبل.
هذه هي الصفحات حيث يؤشر
محمومًا
تاريخ بلدي الجميل
الذي ينطلق بسرعة مذهلة
نحو الغد.
ستكون كلمات جافة
مُرّة وعارية وقاسية
كلمات يغطّيها الندى الحنون
وكلمات تختبئ في الليل
كخناجر غاضبة.
كلمات مثل شظايا حلم صافية
مثل شلالات صاخبة زرقاء
تنهمر على الأرض
ولسوف يخفق دمي في كلّ كلمة
وليلة بعد ليلة، سأملأ الصفحات
معلنًا مع شعبي الحقيقة
دون هوادة.
وستكون تلك أجمل قصائدي.

(من أجل هذه الحرية، ١٩٦٢)

صوت جريح من الوطن

الموت يمرّ مصفرًّا.
تهوي أشجار ورجال؛
تهوي طائرات وحيوانات
تهوي أزهار ونوافذ
وخونة وجواسيس
يهوي أطفال وقنابل يدوية.
الموت يمرّ مصفرًّا.
وأنا تحاصرني جبالٌ من الدخان والنار.
نيسان يفجّر في عيوني عيده الملوّن،
الربيع الجميل استحال حريقًا.
حلّ البارودُ محلّ الهواء في رئتي.
ودمي ذاته له رائحة البارود.
الموت يمرّ مصفرًّا.
أصوات تتصاعد من أعماق النهار
ويخفت صفير الموت.
لم أعد أسمع سوى الصوت الآخر،
الأعمق والأقوى،
الصوت الأقرب من العظام:
الوطن ينشد في أحشائي.
يا وطني الجريح الباسل!
يا وطني الجميل الباسل!
يا وطني النبيل الباسل!
يا وطنًا فيَّ وفي أخوتي.
يا وطنًا في دمي وفي عظامي!
يا وطني الحرّ أبدًا!
يا وطني، الوطن الأبدي!
إني جريح من جرحك
وعيونك ترى من خلال عيوني
وانتصارك سيكون انتصاري.
الوطن يغنّي في أحشائي!
ونيسان يفجّر في عيوني عيده الملوّن
الأرض تتشقق وتقفز وتتنفس
وكل شجرة مشعل.
وأنا تهدهدني الأناشيد والبروق.
بالقرب منّي يهوي جسد أثقل أكتافه المجد.
دبابات ومدافع وانفجارات،
مطر من النجوم الحالكة
على العشب الشديد الاحمرار!
جميلة يا زهرة جرحي
للشعور المتمازجة
لأمي وخطيبتي!
جميلة يا زهرة جرحي
للوطن المشعشع!
الحياة تغنّي في أحشائي!
ونيسان يفجّر في عيوني عيده الملّون
ويدي تقبض مجددًا على البندقية

(انتصار بلايا خيرون - خليج الخنازير، ١٩٦١)



الاقتصاد السياسي لكاتب نهضوي قراءة في أرشيف أحمد فارس الشدياق[1]

رنا عيسى

باحثة وكاتبة ومترجمة لبنانية مقيمة في النروج. تعمل على ترجمة كتاب الشدياق «الواسطة إلى معرفة أحوال مالطة» إلى الانكليزية مع سونيلا موباي. يصدر كتابها «الإنجيل العربي الحديث» قريبًا عن دار إدنبرة الجامعي

خلال إقامتي في لبنان بين عامَي ٢٠١٧ و٢٠٢١، توطّدت علاقتي بفواز طرابلسي وهالة البزري، الباحثَين الكبيرَين المهتمّين اهتمامًا خاصًّا بأحمد فارس الشدياق. ومن النتائج الإيجابية لهذه الصداقة أنني حصلت على أرشيف خاصّ للشدياق لا يزال الباحثون محرومين من الاطّلاع عليه. تولّى جمعَ معظم الأرشيف عماد الصلح، الذي حصل على الرسائل من أفراد عائلة الشدياق الذين بقوا على قيد الحياة، والمقيمين في بلدة الحدث جنوب بيروت. ونشر الصلح هذا الأرشيف في كتاب لم يُوزَّع منه إلا عدد قليل من النسخ لم تتجاوز الخمسين. وجاءت بضع رسائل ونصوص أخرى ضمن هذا الأرشيف من الاهتمام الشديد الذي أولاه كلٌّ من طرابلسي والبزري للشدياق طيلة عقود. فرض عليّ الحظ السعيد واجبًا بنشر هذا الأرشيف ليعرف الباحثون بوجوده ويطّلعوا على بعض كنوزه، على أمل أن يجدوا طريقة لأرشفتها رقميًّا وإتاحتها للباحثين والقرّاء.

يضمّ هذا الأرشيف رسائل كان الشدياق قد أرسلها لأهله في لبنان ونسخًا من رسائل أرسلها إلى مسؤولين وسياسيين في الدول التي سكن فيها. يتضمّن الأرشيف أيضًا ملاحظات ومسوّدات أولية لبعض نصوصٍ وردت في أعماله المنشورة، خصوصًا كتب «الساق على الساق» و«الواسطة إلى معرفة أحوال مالطة» و«كشف المُخبَّأ عن فنون أوربا». كما نجد نصوصًا غير منشورة منها قصيدة هجائية طويلة ومقامتان ورسائلُ أخرى تورد معلوماتٍ عن أحواله الشخصية، وتسجّل حسرته، أو تعطي فكرةً مقتضبةً عن أشغاله وأحواله المادّية. كان الكاتب يدرك تفاوت مستوى نصوصه، وقد تجنّب نشرَ الكتابات التي لا تتوافق مع طموحاته الأدبية، وإن ظلّت هذه النصوص محفوظةً على شكل ملاحظات ورسائل في أرشيف شخصي.

تعود رسائل الأرشيف إلى عام ١٨٢٩ عندما كان الشدياق في مالطة، وتنتهي برسالة أخيرة إلى ابن أخيه في بيروت كان قد أرسلها عام ١٨٨٦، وتتناول تدهور وضعه الصحّي، والعمى الذي أصابه، ورغبته بزيارة لبنان. بعد أشهر قليلة، عام ١٨٨٧ توفّي الشدياق، ورجع جثمانه إلى لبنان حيث دُفن في مقبرة الباشوات في الحازمية، في قبرٍ أصبح اليوم محاذيًا لطريق سريع ومغبر، متروكًا للنسيان والاندثار. نويتُ في هذه المقالة أن ألقيَ الضوء على موضوعين: الأول هو التعريف بهذا الأرشيف المهمّ، والثاني هو انتقاء رسائل تسمح لي بأن أؤرّخ للكتابة كمهنةٍ ترضخ للاقتصاد السياسي وهيمنته في حقبةٍ ما. قليلا ما يتناول الباحثون موضوع الكتابة كمهنة وذلك لتعذّر الوصول إلى مراجع تسجّل الأوضاع الاقتصادية للكتّاب. في هذه المقالة أقدّم سردية تستند إلى بعض هذه الرسائل وتربطها بما نَشر الشدياق من نصوصٍ عن الاقتصاد السياسي للبلدان التي سكنها.

الشدياق: عاملٌ ثقافي

اخترتُ من هذا الأرشيف تلك الرسائل التي تسجّل ترنّح الوضع الاقتصادي للشدياق، العامل المهاجر، ورسائلَ تكشف عن التزاماته العائلية طوال حياته. تسمح هذه المختارات أيضًا بتحليل اعتماده على شبكات الرعاية التي كانت ضرورية لمواصلة عمله وطموحه الثقافي وإيفاء واجباته المادّية أمام عائلته. تمنح هذه اللمحات دليلاً يمكن أن يُثري وصف صبري حافظ السوسيولوجي للشدياق (وغيره من كتّاب القرن التاسع عشر) بأنه «عامل ثقافي تحوّل إلى رائد أعمال، كسب المال من بيع سلع ثقافية لجمهور مجهول»[٢]. يقترح حافظ أنّ الكتابة كمهنةٍ في القرن التاسع عشر لم تعُد تعتمد لمزاولتها على راعيين ذوي سلطة، وأنّ الكتّاب استفادوا من التطورات التكنولوجية في صناعة كتابٍ رخيصٍ وسهل المتناول ومطروح بأعداد كبيرة في سوق حرة كأيّ سلعة أخرى. كان الشدياق بلا شكّ رائد أعمال يبيع سلعًا

لجمهور مجهول ولكن، وبالنظر إلى هذه الرسائل، علينا أن نحبك سرديّةً أكثر دقةً وقادرة على استيعاب تعقيدات الكتابة كمهنة حديثة بقيت خاضعة من أجل مزاولتها للمموّلين النافذين. حتى عندما أصبح الشدياق مالكًا لوسيلة إنتاج وافتتح مطبعة «الجوائب» الخاصّة به عندما انتقل إلى اسطنبول عام ١٨٦٠، بقي بحاجة إلى دعم مالي متواصل من الدولة ووسطائها. فهو من أيّامه الأولى ككاتب، يعتمد على مصادر دخل ثابتة وغريبة عنه وعن قيَمه. عندما بدأ عمله كاتبًا، كان راتبه يأتي في الغالب من وظيفة ثابتة لدى المرسَلين البريطانيين. وكلّ ما نشره من نصوص مستقلّة في تلك الحقبة من حياته، من كتاب القواعد «اللفيف في كل معنى ظريف» إلى كتاب «الساق على الساق»، لم يكن يكفي قوتَ يومه الذي كان يأتي منتظمًا من المرسَلين الإنكليز حيث كان يعمل مترجمًا ومعلّمًا للّغة العربية.

يمكن القول إنّ حياة الشدياق المهنيّة تشبه، من أوجهٍ، حياة الباحثين المهنيّة في العالم المعاصر، الذين يعملون ويعيشون في كنف دولٍ قوية أو مؤسساتٍ خاصة، في حين أنّ الأرباح الناتجة من إقبال القرّاء مغفلي الهوية على نصوصهم تتراكم عند الناشر والموزّع وغيرهم ممّن يعمل في سوق الكتب. يكتشف القارئ، في هذه الرسائل، أنّه حتى الجريدة التي كان الشدياق يحرّرها لم تعد تدرّ عليه بمبالغ مادّية تسمح له بالاستقلال عن مراكز السلطة. لم تكن «الجوائب» كغيرها من الدوريات. كانت تتمتّع بتوزيع واسع في شمال أفريقيا وأوروبا والمشرق ممّا جعلها وسيلة إعلامٍ نافذة تورّطت مرارًا بمنافسات سياسية كبيرة بين الدول ورؤسائها. يكتب فواز طرابلسي وعزيز العظمة في مقدمة كتابهما من مختارات الشدياق عن تلك الحقبة من حياته ويشدّدان على اشتباك أعماله بأوضاع سياسية عريضة تعزّز صفة العامل الثقافي الهشّ المرتبط باقتصاد سياسي يغرّبه عن نتاجه الفكري:

> مارس الشدياق الصحافة قرابة ربع قرن. وفي احترافه تلك المهنة، تحوّل من أديب إلى مثقف بالمعنى الدقيق للكلمة: أي ذلك الذي لا يحترف العمل الذهني وحسب وإنما يملك أيضًا مدخلاً إلى جمهور واسع نسبيًّا ويمارس دورًا في تكوين «الرأي العام» وفي التأثير في السياسات من خلال كتاباته ومواقفه. على أنّ الصحافة المموّلة رسميًّا - إذا كانت وسّعت دائرة جمهور الشدياق وألزمته الكتابة السياسية المنتظمة - إلا أنها طرحت عليه بإلحاح قضية حرية التعبير. فلم يكن ليستسلم أمام مصدر التمويل السلطاني بل سعى إلى «تنويع مصادر التمويل»[٣].

كانت آراء الشدياق السياسية تعرّض أحيانًا التمويل للخطر، خصوصًا عندما كان يرفض الانصياع لأوامر ورغبات أصحاب النفوذ، فيعاقب. أحيانًا، كانت جريدته تُمنع أو تخضع لرقابة مشددة ممّا يضعه في وضع مالي هش، كما حصل معه بعد إصدار العدد ٣٦ من «الجوائب» وتعرّضه لضائقة مادية مدة سنتين عندما أوقفتها السلطات العثمانية عام ١٨٧٩ لرفض الشدياق نشر بيان يحرّض فيه على خديوي مصر[٤]. لعبت هيكلية الرعاية الدورَ الأكبر في معاش الشدياق واستمرار عمله، حيث جاء التمويل من تونس ومصر واسطنبول، وغالبًا ما كان ذلك يتمّ عبر صلات خاصة بموظّفين وسياسيين متنفّذين، الأمر الذي اضطر الكاتب إلى التعامل مع ساحة دبلوماسية معقّدة، لاسيّما حين كان بعض الأطراف التي ترعاه تخوض صراعًا في ما بينها. وفي حالات التوتر السياسي الشديد، كان يحدث أن يكتب الشدياق نصًّا يثير غضب أحد رعاته، ما يؤدي إلى وقف الدعم المالي منه، الأمر الذي يترك أثرًا على عائلته برمّتها.

وكثيرٌ من الرسائل في هذا الأرشيف كَتبها الشدياق تحت وطأة التقلّبات المالية التي عاشها. معظمها موجّهٌ إلى أخيه وأبناء أخيه في بيروت، وقد أشار فيها مراتٍ عدّة إلى الصعوبات الاقتصادية التي يواجهها، كما كان يعطي توجيهات بكيفية توزيع التحويلات المالية التي يرسلها على أفراد عائلته. ومثل العديد ممّن يقيمون في المنفى، في ذلك الزمن وفي الوقت الحالي، واصل الشدياق الإنفاق على عائلته في لبنان طيلة حياته[٥].

بداية الشدياق كناسخ

ينحدر الشدياق من عائلة مارست مهنة النسخ لأجيال عدة[٦]، إذ قدّمت العائلة للكنيسة والجهاز الدولة البيروقراطي العثماني عددًا من موظفي السكرتارية والكتابة. وقد سعى والد الشدياق إلى مواصلة هذا التقليد عبر تدريب أبنائه كافّة على فنون الكتابة والقراءة والرياضيات، إذ درّسهم بنفسه وأرسل بعضهم إلى مدرسة «عين ورقة». في إطار تلقّيهم التدريب على عمل النساخة، تعلّم طلَبة مدرسة «عين ورقة» اللغات السريانية والإيطالية والعثمانية، إلى جانب العربية، وبعض علوم عصر النهضة الأوروبية التي لاقت رواجًا في إيطاليا وتُرجِمت إلى العربية في المدرسة المارونية التي درَس فيها العديد منهم[٧]. عمل إخوته جميعًا نُسّاخًا لدى جهات راعية متعددة، بينها الكنيسة والأمراء المحليون والجهاز البيروقراطي العثماني، وأدّوا مهمات سكرتارية متنوعة لأربابهم، بينها الترجمة وتدبيج الرسائل أو الوثائق، وأحيانًا التعليم. ولعلّ



بعضهم كَتب قصائدَ في مدح رؤسائه، لكنّ عملهم، في جوهره، ظلّ بعيدًا عن الإبداع الأدبي. وحدهما الشدياق وشقيقه الأكبر أسعد، عملا لدى مبشّرين بروتستانت ناطقين بالإنكليزية. وبرغم شهرة شقيقه طنّوس، الذي كتب كتاب تاريخ شاملاً عن أعيان جبل لبنان[٨]، وأسعد الذي كسب شهرةً لاعتناقه البروتستانتية وموته في سجن الكنيسة المارونية في قنوبين[٩]، كان فارس الوحيد بين إخوته الذي نجح في التحوّل من ناسخ إلى أديبٍ ومترجم. بقي اسمه معروفًا لم يطوِه النسيان، وخلّفَ وراءه إرثًا أدبيًّا اشتمل على عدة أعمال أدبية رائدة وجريدة استمرّ نشرها زمنًا طويلاً. إلا أنه لم يكن الناسخ الوحيد الذي تحوّل إلى أديب في أوائل عصر النهضة.

عمل إخوته جميعًا نُسّاخًا لدى جهات راعية متعددة، بينها الكنيسة والأمراء المحليون والجهاز البيروقراطي العثماني، وأدّوا مهمات سكرتارية متنوعة لأربابهم

من أبرز العوامل التي ساهمت في هذا التحوّل لدى الشدياق من ناسخٍ إلى أديب، خلال القرن التاسع عشر، مهارتُه العالية في الترجمة في زمنِ تحوُّلٍ واسعٍ وكبير. «كان جيله هو جيل المثقفين الجديد الذي كسب قوت يومه من الترجمة والصحافة والتعليم، وكان على صلة وثيقة بالمبشّرين البروتستانت من إنكلترا والولايات المتحدة»[١٠]. هكذا بدأت مسيرته المهنية مع مُبشّرين أميركيين وإنكليز، حيث علّمهم العربية، ومن خلال ذلك العمل، أتقن الإنكليزية والفرنسية.

كان للمبشِّرين تأثير «مُهَيمِن» على هؤلاء الشباب السوريين اللبنانيين، الذين تحوّلوا من النساخة إلى الكتابة الأدبية، وساعدهم على ذلك دعم رعاة أوروبيين وأميركيين. وينطبق مفهوم غرامشي للهيمنة على هؤلاء الرعاة، من حيث كونهم مارسوا «قيادة فكرية وأخلاقية»[١١] زرعت التعاون أو العمالة في هؤلاء الرجال، التي يصفها أسامة مقدسي بأفضل صورة بقوله إنّ «العمالة ليست مجرد خيانة بضعة أفراد «للأمّة»، بل هي أوسع انتشارًا وأكثر تعقيدًا، فهي العُرف لا الاستثناء على المستوى الفردي»[١٢]. تمتّع النُسّاخ الشباب بمهارات جديدة اكتسبوها مع المبشِّرين، وبمعرفة اكتسبوها من ترجمة أعمال من اللغات الأوروبية. من خلال عملهم هذا، كان هؤلاء الكُتّاب جسرًا انتقلت عليه الهيمنة الثقافية للمبشِّرين، فساعدتهم على التأثير في السكان المحليين. كلٌّ من الشدياق ومعاصره بطرس البستاني، وغيرهما ممّن تلقوا تدريبًا مشابهًا، بدأوا مسيرتهم المهنية بترجمة الأعمال الأدبية والدينية الغربية بتكليفٍ من المبشرين[١٣]. ولسوف يتبيّن أنّ هذه العلاقة بين النسّاخ والمبشرين لعبت دورًا جوهريًّا في الأعمال الأدبية التي كتبوها بعد انتهاء عملهم لدى المبشِّرين، كما بيّنتُ في أبحاثٍ أخرى[١٤].

الهجرة والبحث عن الدخْل

سمح الشدياق لنفسه بأن يتأثّر بالمبشّرين الذين عمل معهم، لا لأنّ المعرفة التي حملوها معهم كانت المعرفة المهيمنة في القرن التاسع عشر فحسب، بل لأنّ العائد المالي لهذا العمل كان كبيرًا أيضًا. كان الكسب المالي أحد دوافعه الأساسية للعمل مع المبشّرين، إذ تلقّى أجرًا سنويًّا بلغ ١٥٠ جنيهًا استرلينيًّا حين عمل مترجمًا لدى البريطانيين في كامبريدج، في حين كان بطرس البستاني يتقاضى، في الفترة نفسها، ربع هذا المبلغ في بيروت مع الأميركيين. أمّا المشرف على الشدياق والمتعاون معه، جورج بادجر، فكان يتقاضى ٤٠٠ جنيه استرليني لقاء عمله في نفس المشروع مع الشدياق[١٥].

في كتبه ورسائله، يتحدث الشدياق عن غربته عمّن يعمل لصالحهم، وعن ظروف عمله غير المستقرة. وفي فصل الشدياق من كتابي، ركّزتُ على شعوره بالغربة عن المبشّرين[١٦]، لكن الرسائل تكشف أنه شعر بالدرجة نفسها من عدم الارتياح في اسطنبول. في إحدى الرسائل التي يذكر فيها احتمال أداء خدمة ليساعد ابن أخيه في الحصول على وظيفة، يكتب إلى ابن أخيه بالكتابة التي يسمّيها اللبنانيون «الكرشوني» كي يتجنّب أن تُكتَشف حقيقة مشاعره نحو الحكومة، التي يقول عنها: «ليس لي تعلّق بهذه الدولة أصلاً لأني لستُ في خدمتها، وأكبر أعدائي هو ناظر الخارجية فإذا كان هذا المتصرّف من حزبه وعَرف أنّ في خدمة الحكومة بعضًا من أقاربي لطردَهم لا محالة»[١٧]. حكم هذا التقلّب في علاقته بالسلطة مسيرتَه المهنية كاملة، ولا بدّ من دراسة تأثيره على كتاباته.

من الأحداث الدراماتيكية التي تذكرها الرسائل، المنافسة التي خاضها الشدياق مع المطران الحلبي أتناسيوس التوتنجي[١٨]. تنافس الرجلان على ترجمة «كتاب الصلوات العامّة» إلى العربية، وتمكّن التوتنجي من الحصول على التكليف بتقديمه نموذجًا رديئًا وبشنّه حملة تشويه ضد الشدياق. في كتاب «الساق على الساق»، يغتنم الشدياق الفرصة ليسخر من الرجل، ويصف أسلوبه بالركيك، ويكتب عدة صفحات في هجائه، ويفلت قلمه للنعوت فيكتب:

المطران أتناسيوس التوتنجي حلبي البُشكاني الشلّاقي الشَوْلقي الإنقافي النشّافي المقسقسي اللطّاعي النَظّاعي المُصنوي الحتُفلي الأَرْشمي الثُرْتمي القَدِيحي التخمّمي الإمّعي[١٩].

كما جادل كريستيان يونغي عن أسلوب «الساق» الجمالي. رَبَط الشدياق القيمة المالية بالقيمة المعنوية الكامنة في الكلمات: «كلّما كثرت الكلمات الدالة على الشيء كلّما زادت قيمته»، فلذلك أمعن الشدياق في تعديد مفردات الأشياء في كتاباته[٢٠]. وفي الرسائل، نقرأ عن تردّي الوضع الاقتصادي للشدياق في مالطة بسبب حملة التوتنجي ونجاحه في الحصول على مهمّة الترجمة التي كان يرغب فيها. ردّ كاتبُنا بالطريقة التي يتقنها، وهي كتابة قصيدة هجاء طويلة أرسلها إلى أخيه مع تعليمات له بأن يرسل بضعة أبيات منها كلّ أسبوع إلى التوتنجي بالبريد من دون ذكر اسمِ مُرسِل، وذلك ليسخر منه علنًا، «فقال الشاعر إذا لا تنفع فضر... ثم إن جميع ما نظمته في حق الحمار وصل ليده إلا بعض التواريخ وذلك بأن أبعثه على يد رجل بغير خطي فيقول له الرجل أن رجلاً قدِم من الشرق وسلّم لي هذا المكتوب باسمك»[٢١]. فالشدياق كان على ثقة بأنّ خصمه لا يتقن العربية ولن يجد كلمات فعّالة يردّ بها.

كان الشدياق حساسًا للتفاوت بين الطبقات وانتقد زيف الازدهار في الاقتصاد الغربي وربطه بالتوسع الاستعماري، فقدّم نموذجًا يختلف عن كتّاب عصره

ترجمةُ هذه القصيدة معروفة للباحثين، وهي موجودة في أرشيف الإنجيل في كامبريدج. أمّا النسخة العربية للقصيدة الكاملة فموجودة فقط في هذا الأرشيف الشخصي وتمتدّ على عشرين صفحة، ويتضمّن الأرشيف أيضًا الترجمة الكاملة مع مقدّمة للمترجم. ترك نجاح التوتنجي في إزاحة الشدياق والحصول على التكليف بالترجمة أثرًا على وضعه المالي الذي تدهور سريعًا، فاضطر إلى طلب الدعم من والد زوجته في الإسكندرية[٢٢]. وفي رسالته لأخيه، يطلق العنان لمرارته، لكنّ الشدياق عاد، في المحصلة، إلى عمله السابق، وكُلِّف بترجمة «كتاب الصلوات العامة»، ثم بترجمة الإنجيل. بشهادة من كلّفه بذلك، فإن «السيد فارس من العالم مبحرٌ في العربية»[٢٣]. كانت ملَكته في اللغة ثمينة جدًّا[٢٤]، يقدّرها أصحاب السلطة بقدر ما كان يضعها الشدياق في خدمة مصالحهم. أمّا حين تقوده براعته الأدبية إلى ما هو خارج عن إطار خدمة السلطة، فكان الشدياق يتعرّض إلى انقطاع الدخْل ليجد نفسه في عوَزٍ مالي.

تؤكد كثرةُ تنقّل الشدياق بين البلدان في النصف الأول من حياته الصعوباتِ التي واجهها في تأمين دخل، وعدم قدرته على الحفاظ على عمله لمدة كافية لإنشاء علاقات مستقرة في المدن التي عمل فيها[٢٥]. وتركت الرأسمالية المتسارعة التي وجدها في لندن الأثر الأكبر في تكوين الشدياق نظرته للاقتصاد السياسي، حيث كتب نصوصًا طويلةً عن آلية سير الرأسمالية في لندن واسطنبول وغيرهما من المدن التي أقام فيها. كان الشدياق حساسًا للتفاوت المجحف بين الطبقات فكتب ينتقد زيف الازدهار في الاقتصاد الغربي وربطه بالتوسع الاستعماري، وبذلك قدّم نموذجًا فريدًا يختلف عن كتّاب عصره الذين اعتبروا الغرب قدوةً في الحضارة والحداثة. قد تكون دقة الملاحظة إزاء الشؤون الاقتصادية نابعةً من انخراطه في القطاعات التي كان يصفها وهو يفتّش عن أعمال تساعده في تحسين وضعه المادي. فها هو يكتب في وصف مركز لندن المالي، «سيتي»، في «كشف المُخبَأ عن فنون أوربا»:

> قد تقدّم الكلام على هذا الخط من حيث اشتماله على أعظم المباني الكائنة في لندرة... إنّ هذا الخط الفريد هو مركز الأشغال العظيمة والمبايعات الجسيمة لأغنياء تجّار الإنكليز. فما من بناءٍ فيه إلا وهو مصدرٌ للحركة والعمل، وما أحدٌ يخطو فيه إلا للكسب والشغل، ولا يتحرك به لسانٌ إلا للنفع والفائدة، ولا تطلع عليه شمس ولا يوقد فيه نور إلا للسعي، ولا يخلج صدر مخلوق خاطر إلا للتحصيل والاقتناء. فترى كلّ واحد من أهله فاتحًا عينيه وفمه لأكل الدنيا وما فيها[٢٦].

تأتي هذه الملاحظات من جرّاء احتكاكه المباشر مع العاملين في قطاع التجارة حيث كان يعرض خدماته اللغوية على التجّار فيكتب لهم الصكوك والرسائل لقاء أجر يحسّن دخله العام ويسمح له بمزاولة عمله الكتابي. كان الشدياق مرهف السمع لكلام التجّار والموظفين العاملين في الأسواق المالية وأسلوبهم في الكتابة، ولم يكن يصغي لهم فقط للسخرية منهم وإنما أيضًا كي يروّج لنفسه ككاتب فذّ يسعى إلى كسب رزقه من خلال مزاولة أعمال سكرتاريا وترجمة ونسخ. يوجد في الأرشيف رسالة واحدة تبرهن أنه مارس العمل السكرتاري الحرّ، وهي صكّ تجاري مُرسَل من ليفربول. يسجّل هذا المكتوب نيةَ الأخوين عرقتنجي في الإقدام على التّجارة مع الشرق. الرسالة مصوغة بعربية سليمة تتبع أعراف قواعد اللغة وفي الأسلوب المنمّق لذلك



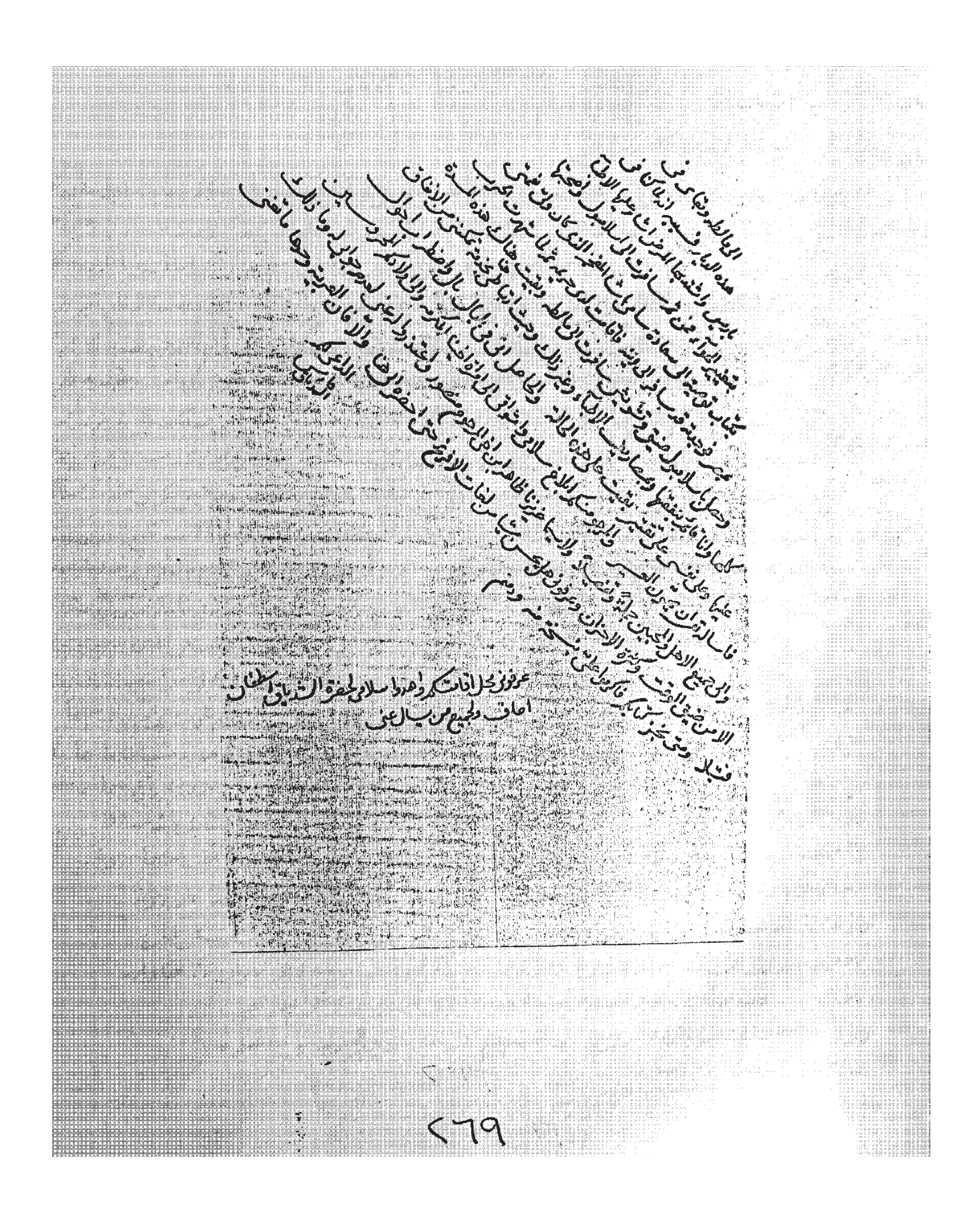
محـ ٨ ب ٥٥

جناب اخينا الاعز المحترم دام بالخير

عقب السؤال عن سلامتكم العزيزة اعرض اني حظيت بكتابكم المؤرخ في ٥ تموز وسررت جدا بتلاوته
لاطلاعي منه على وجودكم بخير وعافية غير انه ساءني منه جريكم على عادة اهل البلاد من الاختصار
والايجاز فلم تخبروني فيه عن شيء حادث فكاني لست من اهل البلاد فكان ينبغي ان تذكروا
لي فيه من مات ومن ولد من المعارف والاصحاب ومن سعد ومن شقي ومن نبغ في مأثرة
وما اشبه ذلك حتى ارتوي من العلم باحوال البلاد وهذا الذي يغريني بقطع الكتابة
من جميع الاحباب فالمرجو منكم من الان فصاعدا اذا كتبتم لي ان تسهبوا في المقال
ما استطعتم فاني ارتاح الى اخبار البلاد واحوال اهلها وان يكن في نفس الامر ما لا يعبأ به
اما ما ذكرتم بخصوص استيلاء افندينا الشام على ارض البقاع فقد بلغني من الشيخ
رشيد الدحداح المقيم هنا ان هذا الاستيلاء هو عام لا على ارضنا فقط فاذا كان كذلك
فلا علاج له وقد عجبت من قولكم ان استعمل واسطة للباب العالي حالة كوني في لندره
فانكم تعلمون طباع الترك حيث لا يفعلون شيا الا اذا ارتشوا والغاية ان هذه
المظلمة ان كانت عامة كان لنا بغيرنا اسوة والا فعرفوني اما ان سألتم عن
احوالي فاني الان في غاية الحيرة والبلبال فانه ورد الي مكتوب من ولدنا سليم
في مالطه منذ خمسة عشر يوما يخبرني فيه بان امه في النزع وانه خائف من ان
يبقى يتيما وحيدا ولا يخفى عنكم ان امراتي اعتلت بداء الخفقان والاستحاضة من
مدة طويلة وقد استعملت جميع الوسائط النافعة لصحتها من تغيير الهواء واتخاذ
الادوية فلم يغن ذلك شيا هذا وان ولدنا فايز الذي هو الان معي كان معتلا
بداء الخنازير في عنقه ثم شفي منها ثم راجعته وقد مضى الان عليه اكثر من سنة
وهو يعاني الما ولم يجده الدواء هنا شيا فاضطررت الى ان اسفره الى بعض
البلاد الحارة فها انا الان اجهزه الى السفر الى مالطه فاذا وجد امه حية بعد
اقام معها والا فاني اضطر ثانيا الى السفر بنفسي الى هناك لاري طريقة
معيشة له ولاخيه ومن جرى هذه الحوادث الاليمة لم يمكن لي اسعافكم بشي
وانا خجل من ذلك لانه من الواجب علي فارجو قبول العذر اما سفر اوراق

٢٠٦٨

من أرشيف أحمد فارس الشدياق.





الزمن. يكتب الشدياق في «كشف المُخبّأ» عن ركاكة عبارة التجار العاملين في «سيتي»، خاصةً العرب منهم الذين ليسوا قادرين على صياغة أبسط العقود التجارية التي على أساسها تنتقل السلع بشراهة من إنكلترا إلى الأقاليم العربية:

> ولا شكّ أن تجّار لندرة عمومًا، وتجّار هذا الصقع خصوصًا، أغنى من جميع تجّار أوروبا، إلا أنهم دونهم في الظرف والكياسة وعباراتهم ركيكة، بخلاف تجّار فرنسا فإنهم مشاركون لذوي العلم والدراية، وعباراتهم وإن تكن دون عبارة علمائهم، إلا أنها بالنسبة إلى كلام تجّار الإنكليز عالية. كما أنّ عبارة هؤلاء بالنسبة إلى عبارة تجّار بلادنا في غاية الفصاحة، ولعمري إنّ تاجرًا يكتب: لق، أي لا[٢٧].

ويعدد بعدها أخطاء اللغة التي يرتكبها التجّار العرب الذين احتكّ بهم في سوق لندن. ليس مؤكدًا أن الرسالة من كتابة الشدياق، أو أنه تقاضى مقابلها أجرًا، ولكن نظرًا إلى أنها بخطّ يده وإلى أن محتواها لا يبدو موجهًا إلى أيّ من أفراد عائلة الشدياق، أو يشير إلى أيّ من أعمالهم أو أعمال غيره من الأشخاص الذين كان الشدياق يتواصل معهم عادة، أستنتج أن هذه الرسالة عيّنة من عمل إضافي مارسه الشدياق في بحثه المستمر عن عملٍ كناسخ ليتمكن من الإنفاق على نفسه ليكتب ما يرغب في كتابته (كان في تلك الفترة منكبًا على كتابة «الساق على الساق»)، ولعلّه كان يفكر في تلك الفترة بقطع علاقته بالمُبشّرين[٢٨].

أشرف ابنه سليم، الذي كان قد أرسله إلى رئيس وزراء تونس الأمير مصطفى، على شحنة أسلحة من فرنسا لصالح الأمير

من كتاب «الساق على الساق» نعرف أنّ الشدياق جرّب التجارة بضع مرات في المناطق السورية. بعد سفره إلى مالطة، يبدو أن شقيقه طنّوس طلب مساعدته في بعض المشاريع التجارية. لا نجد في الرسائل إشارةً إلى اهتمام الشدياق بطلب أخيه في مجال التجارة، حيث يخبر شقيقه بأنه لا يملك رأس المال اللازم ليكون ضامنًا لمغامرة أخيه التجارية[٢٩]. ولكننا نجد إشارةً إلى أن ابنه سليم، الذي كان قد أرسله إلى رئيس وزراء تونس الأمير مصطفى، كان قد أشرف على شحنة أسلحة من فرنسا لصالح الأمير، ما يسمح لنا بالتخمين بأن مهمّات كهذه كانت بين المهمّات التي ينتظرها منه رُعاتُه الذين كان يخدمهم في أعمال سكرتارية بين وقت وآخر. كان الشدياق يردّ جميلاً من خلال توظيف ابنه في خدمة خطيرة كهذه لكون الأمير أحد الراعين الكبار لكتاب «سرّ الليال في القلب والإبدال» (١٨٦٨)، حيث منحه ١٠ آلاف فرنك للتفرّغ للكتابة[٣٠].

في رسالة تعبير عن الامتنان، يُبلِغ الشدياق الأمير بأنه أرسل ابنه سليم ليكون تحت تصرّفه، وبأنه سيوزّع مائة نسخة من الكتاب على الجمعيات العلمية والمكتبات الأوروبية، وبأنّ النسخ جميعها ستذكر في الصفحة الأولى هبةَ الأمير الكريمة. وخُصِّصت مئتا نسخة من الكتاب للتوزيع في تونس وحدها[٣١]. ويبدو أنّ الباي قد أرسل المبلغ على دفعات أرفقها أحيانًا بهدايا ثمينة، مثل المزهرية المرصّعة التي تلقّاها الشدياق منه في إحدى المناسبات الرسمية. كانت هذه الهبات بالغة الأهمية لكتابات الشدياق، وأدّى انقطاعها إلى تعطّله عن الكتابة.

مشاكل جريدة «الجوائب»

تعرّضت جريدة «الجوائب» على وجه الخصوص للمشاكل والعوَز. في هذا الأرشيف الشخصي، نكتشف البدايات المبكرة لفكرة نشر الجريدة. بدأ المشروع كخدمة سكرتارية. كان الشدياق يومها في باريس وهو بالكاد قادر على تدبير أموره بنفسه. فكتب لباي تونس «أعرض أني قد بعثت سابقًا لجنابكم الرفيع بما رأيت تعريبه من الأخبار جديرًا بأن يعرض على مسامعكم الفرصة فبادرت إلى تعريب ما وجدته في عدة جرنالات راجيًا أن يصادف وصوله ساعة رضى»[٣٢]. بدأت فكرة «الجوائب» كعرض قدّمه الشدياق لرؤساء تونس بأن يترجم لهم التقارير الإخبارية من الفرنسية والإنكليزية بشكل منتظم مقابل أجر محدد. ولكن عندما حصل على تمويل من اسطنبول شرَع بإنشاء إحدى أهم الدوريات العربية في ذلك العصر. بعد انتقال الشدياق إلى اسطنبول بدأ ينشر لجمهور واسع ومجهول الهوية وليس لأعيان معروفين كما كان قد خطط. في السنين الثلاث الأولى من نشأتها، كانت «الجوائب» عبارة عن ترجمات من الصحافة الفرنسية والإنكليزية والطليانية والتركية، كما نشر بعد العنوان على الصفحة الأولى فلم يكن فيها محتوى أصلي إلا في السنوات اللاحقة وذلك إلى جانب ما كان يترجم من صحف ولغات أخرى.

حظيت «الجوائب» بانتشار واسع، وامتدّت دائرة قرّائها من شمال أفريقيا إلى بريطانيا وفرنسا وألمانيا ومصر والمشرق. لكنّها وبالرغم من أهمّيتها وشهرتها، لم تكن دائمًا مشروعًا ماليًّا رابحًا. فالسوق لم يحلّ مكان التمويل ولم يسمح للشدياق بتخفيف وطأة سحب الدعم المالي. لم يكن الموزعون دائمًا

أمينين في تعاملهم مع الشدياق، ولم يحوّلوا له المبالغ المتّفق عليها، أو حوّلوا أقلّ ممّا كان الشدياق يتوقع. يشير آمي أيالون إلى هذه الحالة الاقتصادية حين يكتب أن «العقبات والأداء السيئ وغيرها من العوامل المادّية والتنظيمية كانت من المعالم الأساسية في نتاج الشدياق الأدبي» بما ترك أثرًا في عمله وفي إرثه الأدبي[٣٣]. لم يترك الباعة الجوّالون ووكلاء التوزيع صورةً واضحةً عن عائدات هذه المنتجات المنشورة، وفي بعض الحالات، لم يتقاضَ الشدياق أيّ أجر على كتاباته[٣٤].

كما كتب الشدياق إلى أولاد أخيه القلقين على أحوال عمّهم المادية، أنّ أمواله الشحيحة ليس سببها زوجة مسرفة، وإنما مهنته الصحافية المتقلّبة هي السبب «فإن قلت لأيّ سبب تكتبها إذًا قلت إنْ هي نعمة في النفس كنظم الشعر وغيره»[٣٥]. أدّت هذه الانتكاسات الاقتصادية إلى صعوبات كبيرة في وجه الشدياق وأهل بيته، بالإضافة إلى عائلة الشدياق عمومًا في لبنان. رسائل الأرشيف تكشف أيضًا عن حاجة الشدياق للتفاوض والتلفيق المستمرّ بين سلطات مختلفة من أجل تقوية وضعه الاقتصادي الهشّ. وفي رسالة بعثها إلى الدولة المصرية قبل أشهر من وفاته، نجده يعدد المرات التي تسلم منحًا من ديوان الخديوي والسؤال عن سبب توقف هذه المنح في شيخوخته وعندما لم يعد قادرًا على العمل[٣٦].

مسؤولياته العائلية

على الرغم من مغادرته وطنه من دون عودة في سنّ الخامسة والعشرين، حافظ الشدياق على تواصل منتظم مع عائلته في لبنان، ودعم شقيقه بالإشراف على شؤون أبنائه، حيث ناقش معه تفاصيل المدارس واحتمالات العمل في المستقبل، وحدّث شقيقه طنّوس، الذي كان الطرف الأساسي في مراسلاته العائلية حتى مماته، عن شكوكه بأن زوجته الأولى تقيم علاقة خارج إطار الزواج مع خادم مالطي، وشكى له من إنفاقها المال على الترّهات[٣٧]، وعبّر له عن قلقه من أن أبناءه لا يتحدثون العربية بطلاقة[٣٨]. تتجلّى هذه المخاوف، التي يعرفها قارئ كتاب «الساق» في سياق محاولة الكاتب مواجهتها وفهمها والتعامل معها، بحالتها الأصلية في الرسائل، وهي مخاوف سبّبتها حالة الاقتلاع من الجذور والترحال الدائم.

يشير كشفه عن هذه التفاصيل الحميمة لطنّوس عن علاقتهما الوثيقة برغم البعد الجغرافي، وأن الخلافات بين الشقيقين لم تُفسِد هذه العلاقة، مثل تأنيب الشدياق لطنّوس لأنه لم يذكر شقيقهما الشهيد أسعد في كتابه عن أعيان جبل لبنان[٣٩]. أدرك الشدياق أنّ طنّوس لم يذكر شقيقه بسبب اعتناقه البروتستانتية، ولذلك، يؤنّبه على إغفال ذكره، ويعدّد إنجازات أسعد[٤٠]. كما انتقد الشدياق شقيقه بسبب مبالغته في وصف إنجازات زعماء الجبل المحليين، وإغفاله ذكر ترجمة الشدياق للإنجيل، وهو العمل الذي افتخر به كما قال لشقيقه. لا يصل الأمر بالشدياق إلى التشكيك في دوافع طنّوس ويمتنع في الرسائل عن التعبير عن الغضب[٤١]، بل يحافظ على موضوعيته ويتعامل مع شقيقه بالاحترام الذي تفرضه الزمالة في العمل، من دون أن يخفي خيبة أمله من عيوب الكتاب. وعند وفاة شقيقه، كلّف الشدياق نفسه مسؤولية العناية بأرملته وأبنائه، وأرسل لهم المال بانتظام، وحوّل عائدات «الجوائب» في جبل لبنان إلى دخلٍ ثابت لهم[٤٢].

وحين أشار أبناء شقيقه إلى احتمال أنّ زوجته الثانية مُبذّرة، أنّبهم بلطف على ذلك ولكن من دون اللغة القاسية التي كان معروفًا بها بين قرّائه. أظهر الشدياق رقّة شديدة في التعامل مع عائلته، ودعم أبناء أشقائه وتوسّط لهم في وظائف عدة داخل جهاز الدولة العثمانية البيروقراطي. يكشف هذا العطف الثابت لعائلته عن توقه لمصير أقل اغترابًا طيلة حياته. نادرًا ما يواجه القارئ شعور الفَقدان المصاحب للمنفى في كتابات الشدياق، إذ يبرع الكاتب في إخفائه وراء لغته المرِحة. إلا أنّ الحنين الناتج من الغربة هو ما غذّى، باستمرار، اهتمامه بالحالة السياسية في جبل لبنان، وهو ما يمكن أن يفسّر نشره لتقارير من المتصرّفية، بين وقتٍ وآخر، في «الجوائب».

كتبتُ في مكان آخر أنّ الشدياق ينتمي إلى لغةٍ لا إلى مكان، وما زلتُ على قناعة بذلك إلى حدّ بعيد. ولكني، بعد قراءتي لرسائله، أتساءل عن مدى قطع الشدياق حقًّا لصلاته مع وطنه[٤٣]. لقد منحته الصلات العاطفية التي حافظ عليها، والتي تعزّزت بالتزاماته المالية تجاه أفراد عائلته، حقّه في أن يكون له رأي بحوادث بلده الأصلي. فخروجه من بيروت ما كان إلا هروبًا من موت- كان قد لحق بأخيه الأكبر أسعد، وبقاؤه في المنفى كان إلى حدّ بعيد مرتبطًا بتحصيله معاشًا وظروف عمل أفضل ممّا كان متاحًا في سورية في ذلك الوقت، فكان له تأثير إيجابي في معاش العائلة الباقية في بلده الأصلي. بهذا المعنى، يقدّم لنا الشدياق مثالاً على البعد السياسي للتحويلات المالية من الجاليات المغتربة، ومثالاً مبكرًا على عمل المثقف المنفي في زمن تغيُّر كبير في الاقتصاد السياسي للعمل الثقافي.

اخترتُ ظروف الشدياق الاقتصادية المتقلّبة موضوعًا لهذه الورقة للإضاءة على ارتباط مسيرة المثقفين المهنية بانعدام الأمان الاقتصادي، وهو موضوع لا تبحثه الدراسات الأكاديمية الحالية للنهضة العربية إلا لمامًا. ومن شأن دراسة الأوضاع الاقتصادية للمثقفين أن تساعدنا على فهم نصوصهم على نحوٍ أفضل وأوضح، وفهم التغيّر في توجهات كتاباتهم خلال



عملهم لكسب قوت يومهم. ويُتيح أرشيف الشدياق الشخصي لمحة نادرة عن هذا الموضوع، ويمكن أن يساهم في الإصرار على أنّ دراسة الشدياق وأعماله ليست «ملهاة» كما وصفها ذات يوم اسطفان شيحا[٤٤]، بل من شأنها المساهمة في تحليل الاقتصاد السياسي للنهضة العربية والتدقيق بالعمل الثقافي كمهنة مرتبطة بسوق رأسمالي متسارع وشديد التنافس.

المراجع

- إسكندر، رينيه. **مدرسة عين ورقة ودورها التربوي في لبنان.** بيروت: ناشر غير معروف، ١٩٧٢.
- أيالون، أمي. **ثورة الطباعة بالعربية: الإنتاج الثقافي وانتشار القراءة.** كامبريدج: منشورات جامعة كامبريدج، ٢٠١٦ (بالإنكليزية)
- بيتس، غراهام أومان. «المنظومة الحيوية للهجرة: التحويلات في جبل لبنان خلال الحرب العالمية الأولى». **نشرة الدراسات العربية.** ٢٦،٢ خريف ٢٠١٨ ص ص ١٠٣-١٣٠ (بالإنكليزية).
- جونغ، كريستيان. «الحديث عن الأشياء بالقوائم: التعداد في النثر العربي». **نشرة الأدب العربي.** العدد ٥٠. ٢٠١٩. ص ص ٧٨-٢٩٧. (بالإنكليزية).
- حافظ، صبري. **تحولات الخطاب السردي العربي: دراسة في سوسيولوجيا الأدب العربي الحديث.** لندن: دار الساقي، ١٩٩٣ (بالإنكليزية).
- خير الله، ستيفن. «**أول مدرسة مارونية في جبل لبنان: صورة تاريخية**»، تحرير: الجامعة السورية الأمريكية. نيويورك، ١٩٢٣ (بالإنكليزية)دي طرازي، فيليب. **أصدق ما كان في تاريخ لبنان وصفحة من أخبار السريان.** بيروت: دار الكتب اللبنانية، ١٩٤٧ (جزءان).
- ديفيس، همفري. «الملاحظات الختامية في الشدياق، أحمد فارس». **الساق على الساق في ما هو الفارياق.** ترجمة: همفري ديفيس. نيويورك: منشورات جامعة نيويورك، ٢٠١٣ (جزءان) (بالإنكليزية).
- الشدياق، أحمد فارس. «مذكّرات رحلات أحمد فارس الشدياق»، ترجمة: رنا عيسى وسونيلا موباي. **فضاء عام،** العدد ٢٧ (٢٠١٩)، ص ٣٦-٥٧ (بالإنكليزية).
- **الساق على الساق فيما هو الفارياق.** ترجمة: همفري ديفيس. نيويورك: منشورات جامعة نيويورك، ٢٠١٣ (جزءان((بالإنكليزية).
- **الواسطة إلى معرفة أحوال مالطة وكشف المُخبَّأ عن فنون أوربا** (بيروت: كتب، ٢٠٠٢)
- الشدياق، طنوس. **أخبار الأعيان في جبل لبنان.** بيروت: الجنان، ١٨٥٩ (جزءان).
- شيحي، ستيفن. «نحو نظرية نقدية للإبستيمولوجيا والإيديولوجيا ورأس المال». **نشرة الأدب العربي،** ٤٣، عدد ٢ - ٣ (٢٠١٢)، ص ص ٢٦٩-٢٩٨ (بالإنكليزية).
- الصلح، عماد. **أحمد فارس الشدياق: آثاره وعصره.** بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٧.
- طرابلسي، فواز. «أحمد فارس الشدياق: ١٨٠٤-١٨٨٧: (البحث عن حداثة أخرى». في جنس هانسن وماكس فايس) محررين. **الفكر العربي بعد عصر التحرير: نحو تاريخ فكري للنهضة العربية.** كامبريدج: منشورات جامعة كامبريدج، ٢٠١٧ (بالإنكليزية).
- طرابلسي ، فواز وعزيز العظمة. **أحمد فارس الشدياق** (بيروت: رياض الريس، ١٩٩٥).
- طيباوي، عبد اللطيف. **المصالح الأميركية في سوريا: ١٨٠٠-١٩٠١ دراسة للعمل التعليمي والأدبي والديني.** أوكسفورد: كلارندون ب، ١٩٦٦ (بالإنكليزية).
- العريس، طارق. **تجارب الحداثة العربية: المشاعر الأدبية والمفاهيم السياسية الجديدة.** نيويورك: منشورات جامعة فوردهام، ٢٠١٣ (بالإنكليزية).
- «حول الطباخين والنصّابين: أحمد فارس الشدياق والمستشرقون في إنكلترا وفرنسا في أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر» **في استقبال المسلمين للاستشراق الأوروبي.** تحرير: سوزانا هيشيل وعمر رياض. لندن: روتليدج، ٢٠١٨ (بالإنكليزية).
- عيسى، رنا. **الإنجيل العربي الحديث: الترجمة والانتشار والأثر الأدبي في القرن التاسع عشر.** إدنبرة: منشورات جامعة إدنبرة، ٢٠٢٢ (بالإنكليزية).
- «نسخة الشدياق-لي (١٨٥٧) نموذج عن إنجيل عربي غير مطابق من القرن التاسع عشر» في ميريام هجالم، محررة، **معاني النص الديني وكنوز التقاليد: الإنجيل بالعربية بين اليهود والمسيحيين والمسلمين.** ليدن: أبريل، ٢٠١٧ (بالإنكليزية).
- «تحولات وقرابات: بيبليا أرابيكا والترجمة في النهضة العربية» في: سامية محرز، محررة. **على خطى الآخر: دراسات الترجمة بالعربية اليوم.** القاهرة: الكتب خان، ٢٠٢٠ (بالإنكليزية).
- غرامشي، أنطونيو. **مختارات من دفتر ملاحظات السجن.** ترجمة: كوينتين هور وجفري ويل سميث. نيويورك: إنترناشونال ببلشرز، ١٩٧١ (بالإنكليزية).

- فغالي، أنطوانيت جوزيف. **مدرسة عين ورقة: قضايا ملكية وإدارية**، (الجامعة اللبنانية، ١٩٧٨).
- لي، ساموبل وآخرون. «محاضر اجتماعات لجنة الترجمة الأجنبية» في **أرشيف لجنة الإنجيل**، تحرير: لجنة نشر المعرفة المسيحية، كامبريدج: لجنة نشر المعرفة المسيحية، SPCKMS A16/2, 1844 47 (بالإنكليزية).
- مقدسي، أسامة. **مدفعية السماء: المُبشّرون الأميركيون وفشل تحويل الشرق الأوسط إلى المسيحية**. ترجمة ريما العيسى (بيروت: دار الآداب، ٢٠١٩).
- **ثقافة الطائفية: المجتمع والجاليات والعنف في لبنان القرن التاسع عشر تحت الحكم العثماني**. أوكلاند: كاليفورنيا ديجيتال ليبراري، ٢٠٠٣ (بالإنكليزية).

الهوامش

١ أتوجه بالشكر لياسر الزيّات والعاملين في دوك ستريم لمساعدتي في نقل نسخة أولية من هذا المقال إلى العربية، ولباربرا وينكلر لإصرارها أن أنشر مقالة تستند على هذا الأرشيف في كتاب من تحريرها عن الشدياق قيد النشر.

٢ صبري حافظ، **تحوّلات الخطاب الروائي العربي: دراسة في سوسيولوجيا الأدب العربي الحديث** (لندن: دار الساقي، ١٩٩٣)، ص ٥٧ (بالإنكليزية).

٣ فواز طرابلسي وعزيز العظمة. **أحمد فارس الشدياق** (بيروت: رياض الريس، ١٩٩٥)، ٢٣.

٤ المصدر السابق، ٢٤.

٥ بدأ موضوع التحويلات مؤخرًا بحيازة الاهتمام. انظر مثلاً: غراهام أومان بيتس، «المنظومة الحيوية للهجرة: التحويلات في جبل لبنان خلال الحرب العالمية الأولى»، نشرة «الدراسات العربية»، ٢٦,٢ (خريف ٢٠١٨)، ص ١٠٣-١٣٠ (بالإنكليزية).

٦ فيليب دي طرازي، **أصدق ما كان من تاريخ لبنان وصفحة من أخبار السريان**، في جزءين، ج (بيروت: دار الكتب اللبنانية، ١٩٤٧)، ص ٧٠-٧٦.

٧ أنطوانيت جوزيف فغالي، **عين ورقة: قضايا ملكية وإدارية** (جامعة لبنان، ١٩٧٨). رينيه إسكندر، **مدرسة عين ورقة ودورها التربوي في لبنان** (بيروت، ناشر مجهول، ١٩٧٢). ستيفن خير الله، **أول مدرسة مارونية في جبل لبنان: صورة تاريخية**، تحرير: الجامعة السورية الأمريكية (نيويورك، ١٩٢٣) (بالإنجليزية).

٨ طنوس الشدياق، **أخبار الأعيان في جبل لبنان** (بيروت: دائرة المعارف، ١٨٥٩) في جزءين.

٩ أسامة مقدسي، **مدفعية السماء**. ترجمة ريما العيسى (بيروت: دار الآداب، ٢٠١٩).

١٠ فواز طرابلسي، «أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧): البحث عن حداثة أخرى»، الفكر العربي بعد عصر التحرير: نحو تاريخ فكري للنهضة، تحرير: جنس هانسن وماكس فايس (كامبريدج: منشورات جامعة كامبريدج، ٢٠١٧)، ص ١٧٥-١٨٦. (بالإنكليزية).

١١ أنطونيو غرامشي، **مختارات من دفتر ملاحظات السجن**، ترجمة: كوينتين هور وجفري ويل سميث (نيويورك: إنترناشونال ببلشرز، ١٩٧١)، ص ٥٧ (بالإنكليزية).

١٢ أسامة مقدسي، **ثقافة الطائفية: المجتمع والجاليات والعنف في لبنان القرن التاسع عشر تحت الحكم العثماني** (أوكلاند: كاليفورنيا ديجيتال لايبراري، ٢٠٠٣) (بالإنكليزية).

١٣ رنا عيسى، «**تحولات وقرابات: بيبليا أرابيكا والترجمة في النهضة العربية**»، تحرير: سامية محرز، على خطى الآخر: دراسات الترجمة بالعربية اليوم (القاهرة: الكتب خان، ٢٠٢٠)، ص ٢٠١-٢١٠ (بالإنكليزية).

١٤ رنا عيسى، **الإنجيل العربي الحديث: الترجمة والانتشار والأثر الأدبي في القرن التاسع عشر** (إدنبرة: منشورات جامعة إدنبرة، ٢٠٢٢) (بالإنكليزية).

١٥ «لقاء لجنة الترجمة الأجنبية»، في محاضر لجنة الترجمة التابعة لجمعية نشر المعرفة المسيحية، تحرير لجنة نشر المعرفة المسيحية (كامبريدج: أرشيف جمعية الإنجيل في كامبريدج. ملف رقم SPCK.MS A(١٦/٢, ١٨٤٧) (بالإنكليزية). فاوض على زيادة راتبه، حيث تقاضى في البداية ١٠٠ جنيه. أنظر ع. ل. طيباوي، **المصالح الأمريكية في سوريا ١٨٠٠-١٩٠١: دراسة للعمل التعليمي والأدبي والديني**، أكسفورد: دار أكسفورد الجامعي، ١٩٦٦) ص ٢١٠ (بالإنكليزية).

١٦ انظر: رنا عيسى، **الإنجيل العربي الحديث: الترجمة والانتشار والأثر الأدبي في القرن التاسع عشر** (إدنبرة: منشورات جامعة إدنبرة، ٢٠٢٢) (بالإنكليزية). رنا عيسى، «نسخة الشدياق- لي (١٨٥٧): نموذج عن إنجيل عربي غير مطابق من القرن التاسع عشر» في: ميريام هجالم (محررة)، **معاني النص الديني وكنوز التقاليد: الإنجيل بالعربية بين اليهود والمسيحيين والمسلمين** (ليدن: بريل، ٢٠١٧). (بالإنكليزية).

١٧ ٦ شهر محرم الحرام، ١٢٩٠. (٦ آذار ١٨٧٢). الأرشيف الخاص. أتوجه بالشكر للباحث سلام الراسي الذي ساعدني على ترجمة النص الكرشوني.

١٨ كتب ديفيس حاشية جيدة عن خلافهما في الجزء الثاني من ترجمته لكتاب الساق. أحمد فارس الشدياق، «**الساق على الساق فيما هو الفارياق**»، ترجمة: همفري ديفيس (نيويورك: منشورات جامعة نيويورك، ٢٠١٣)، ج٢، الحاشية ٦٦، ص ٤١٥ (بالإنكليزية).

١٩ المرجع السابق، ج٢، ٦٨-٦٩

٢٠ كريستيان جونغي، «الحديث عن الأشياء بالقوائم: التعداد في النثر العربي»، **نشرة الأدب العربي**، العدد ٥٠ (٢٠١٩)، ص ص ٢٧٨-٢٩٧، ص ٢٩٣. (بالإنكليزية).

٢١ ١٣ تموز/ يوليو ١٨٤٤. الأرشيف الخاص.

٢٢ ١٣ تموز/ يوليو ١٨٤٤. الأرشيف الخاص.

٢٣ ساموبل لي وآخرون، «محاضر اجتماعات لجنة الترجمة الأجنبية» في أرشيف لجنة الإنجيل، تحرير: لجنة نشر المعرفة المسيحية، كامبريدج: لجنة نشر المعرفة المسيحية، SPCKMS A١٦/٢, ١٨٤٤ - ٤٧ (بالإنكليزية).

٢٤ عيسى، «**نسخة الشدياق-لي**»، سبق ذكره. انظر أيضًا: طارق العريس، «**حول الطباخين والنصّابين: أحمد فارس الشدياق والمستشرقون في إنكلترا وفرنسا (في أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر)**» في: سوزانا هيشيل وعمر رياض، استقبال المسلمين للاستشراق الأوروبي (لندن: روتليدج، ٢٠١٨) (بالإنكليزية).

٢٥ انظر، على سبيل المثال، «رسالته إلى باي تونس» التي يسأله فيها حول إمكانية استمرار باي في الإنفاق على دراسته في باريس، في ٦ أيار/ مايو ١٨٥٣. الأرشيف الخاص.

٢٦ أحمد فارس الشدياق، **الواسطة إلى معرفة أحوال مالطة وكشف المُخبَّأ عن فنون أوربا** (بيروت: كتب، ٢٠٠٢)، ٣٣٣.

٢٧ المصدر السابق، ٣٣٣.

٢٨ الرسالة ممهورة بالتوقيع «ليفربول ٥٧» والخطّ هو خط الشدياق، ولكن ليس بطريقته المعتادة بالكتابة بخط صغير. الأرشيف الخاص.

٢٩ ٢ نيسان/ أبريل ١٨٥٢. الأرشيف الخاص.

٣٠ ١٤ صفر الخير ١٢٨٦. (٢٦ أيار/ مايو ١٨٦٩) الأرشيف الخاص. انظر أيضًا مقالة الشدياق التي يذكر فيها دور رشيد الدحداح في حصوله على هذه الدفعة لإكمال كتاب «**سرّ الليال في القلب والإبدال**»، جريدة الجوائب (إسلامبول: ١٨٦٨)، ص ٦.

٣١ ١٤ صفر الخير ١٢٨٦، مصدر سابق. نُشِرت رسائل تونس أيضًا في: محمد السواعي، رسائل أحمد فارس الشدياق في الأرشيف الوطني التونسي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤).

٣٢ رسالة تاريخ ١٦ كانون الأول ١٨٤٧. الأرشيف الخاص.

٣٣ آمي أيالون، **ثورة الطباعة بالعربية: الإنتاج الثقافي وانتشار القراءة** (كامبريدج: منشورات جامعة كامبريدج، ٢٠١٦)، ص ix (بالإنجليزية).

٣٤ يشير أيالون إلى كتاب الصلح حول الشدياق في معرض حديثه عن خلافات الشدياق مع الموزعين. عماد الصلح، أحمد فارس الشدياق: آثاره وعصره (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٨٧).

٣٥ ٧ شعبان ١٢٨٤ (٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٦٧). الأرشيف الخاص.

٣٦ رسالة بدون تاريخ. الأرشيف الخاص.

٣٧ ٢٥ آب/أغسطس ١٨٤٦. الأرشيف الخاص. ترِد هذه النقطة أيضًا في الساق، حيث يفكّر الفرياق في سبب خيانة زوجته له، ويعترف بوجود الرغبة لدى الأنثى. انظر كتاب الساق، ج ٣، ص ٣٢١.

٣٨ ١٧ أيار ١٨٤٣. الأرشيف الخاص.

٣٩ طنوس الشدياق، **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، في جزءين (بيروت: الجنان، ١٨٥٩).

٤٠ ٢٠ نيسان/ أبريل ١٨٥٦. الأرشيف الخاص.

٤١ ٧ نيسان/ أبريل ١٨٥٩. الأرشيف الخاص.

٤٢ ٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٦٧، الرسالة الموجهة إلى زوجة طنوس. الأرشيف الخاص.

٤٣ عيسى، **الإنجيل العربي الحديث**، سبق ذكره. (بالإنكليزية).

٤٤ ستيفن شيحي، «نحو نظرية نقدية للإبستيمولوجيا والإيديولوجيا ورأس المال»، نشرة الأدب العربي، ٤٣، عدد ٢ - ٣ (٢٠١٢)، ص ٢٦٩-٢٩٨، ص ٢٩٠. (بالإنكليزية).



رؤوف مسعد عن عبد الحكيم قاسم
جمعَنا السجن... وفرّقتنا الحرية

رؤوف مسعد

كاتب مسرحي وروائي وصحافي، مصر. من أعماله «صانعة المطر» (١٩٩٧)، «إيثاكا» (٢٠٠٧) و«لمّا البحر ينعس: مقاطع من حياتي» (٢٠١٩) ويعمل حاليًا على الجزء الثاني منه

قبل رحيل عبد الحكيم قاسم بوقت قليل، دعانا صنع الله إبراهيم إلى عشاء وشراب في بيته. كنا قد نشرنا بالفعل آنذاك أهمّ أعمالنا؛ نحن «مجموعة الواحات»، كما أطلق الرفاق علينا أيامها حيث التقينا جميعًا في «سجن الواحات». لم أكن أعرف صنع الله ولا كمال القلش، ولا هما كانا يعرفان عبد الحكيم الذي زاملني شهورًا طوالاً في سجني («القناطر»، القريب من القاهرة، و«الحدره» في الإسكندرية حيث تمّت محاكمتنا). وكنا قد أصبحنا في وقت العزومة رجالاً متزوّجين: كان كمال القلش يعمل حينها صحافيًا في جريدة «الجمهورية» بعد غربة بضع سنوات في الكويت مع زوجته المصرية. وعبد الحكيم قد رجع من تغريبة إحدى عشرة سنة في ألمانيا حيث عمل حارسًا ليليًا معظم الوقت؛ وأنا عدتُ من تغريبة طويلة بلغت اثنتي عشرة سنة بين أوروبا وبغداد ولبنان تزوجتُ خلالها وطلّقتُ مرتين! أما صنع الله فكان يكتب ويقيم في شقة بالطبقة السابعة من دون مصعد في مصر الجديدة.

الرفاق في «سجن الواحات»

بعدما تعرّفت إلى كمال القلش، رفيق زنزانتي في «الواحات»، عرّفني إلى صنع الله، وقدّمتُ لهما عبد الحكيم. كوّنا مجموعة تلتقي بشكل شبه منتظم قبل «التمام، أي إغلاق السجن والزنازين»، في حوش سجن الواحات الواسع. نتناقش في ما يشغلنا من قضايا الأدب، وقد كتب صنع الله معظم ما دار بيننا من نقاش وتمّ تهريبه خارج السجن ونشره بعد ذلك في كتاب بعنوان «يوميات الواحات». كان مشروعنا الأول بعد الإفراج الذي كنا نحلم به أن نذهب أربعتُنا إلى أسوان ونكتب عن تجربة بناء السدّ العالي من الناحية الإنسانية. وبالفعل، ذهبنا لكن من دون عبد الحكيم الذي تحجّج بعدم إمكانية مرافقتنا لأسباب عائلية.

بعد ذلك بسنوات حصلتُ على منحة من «اتحاد الكتّاب البولنديين» لتعلّم اللغة البولندية وترجمة الثقافة البولندية إلى العربية، واقترحتُ على عبد الحكيم التقدم إليها معي. وبالفعل تقدّم إليها لكنه تخلّف أيضًا عن السفر بعد قبوله بالبعثة فسافرتُ بمفردي.

بعد انتهاء مدة المنحة تجوّلتُ في الأرض. سافرت من مصر في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٠ ورجعت إليها في تموز/ يوليو ١٩٨٢ لأؤسس «دار شهدي» للنشر. وهناك زارني في الدار عبد الحكيم مع الصحافية والكاتبة الصديقة سهام بيومي. كنت قد عرضت عليه أن يعطي الدار حق نشر رواية «المهدي» (وهي رواية بديعة عن تغلغل الإخوان المسلمين داخل القرى المصرية وإقناعهم «نجار سواقي» قبطي باعتناق الإسلام كي يجد عملاً يعيل به أسرته)، لكنّ عبد الحكيم رفض عرضي غاضبًا ثائرًا.

كان عبد الحكيم قد رجع من ألمانيا بعد تغريبته الطويلة. وفي لقائنا الأول بـ«دار شهدي» بعد اختفاء كلّ منا عن الآخر وجدته أكثر عصبيةً مما كان عليه سابقًا. بعد ذلك، كنتُ ألتقيه صدفةً من دون مواعيد مسبقة على الرغم من أنّ علاقتنا كصديقين كانت وثيقة في السجن قبل المحاكمة وأثناءها ثم في «الواحات». وكنتُ في بدايات عهدي بالقاهرة قد خرجت من «سجن الواحات» إلى الإسكندرية التي انتقلتْ إليها عائلتي الصغيرة بعد حبسي لأرجع منها مرةً أخرى إلى القاهرة أبحث عن صداقات وعمل. وكنت أحيانًا أبيت ليلتي أو بضع ليالٍ عند عبد الحكيم في غرفته أشاركه فراشه أو أنام على مرتبة صغيرة في أرضية الغرفة. كان عبد الحكيم يبحث أيضًا في القاهرة عن استقرار ما بعد الإفراج.

وكنتُ وجدت عملاً في «وكالة نوفوستي» السوفيتية للأنباء بمساعدة صنع الله. وقد ساعدني قبل ذلك أن أتعرف إلى السيدة «روكساني»، زوجة رفيقنا شهدي عطية الشافعي التي قدمت لي عملاً في مكتبة تملكها بالزمالك لبيع الكتب

الأجنبية اسمها Tout Les Livres ، وحين وجدتُ العمل في «نوفوستي» اقترحتُ على السيدة روكساني أن تقدّم مكاني في العمل لعبد الحكيم، وهذا ما حصل فعمل عبد الحكيم في المكتبة بضع سنوات. كما اشترى غرفةً على سطح عمارة قريبة من المكتبة بثمن زهيد. وكانت الغرفة بالأساس «تتبع شقةً من شقق العمارة» وتُستخدم مخزنًا، وبالكاد تتّسع لسرير وكرسيَّين. أما المرحاض فجماعيّ، أي لكلّ الغرف المتشابهة على السطح التي يقيم فيها عبد الحكيم وبوّابو العمارة.

وكانت القاهرة أيامها أيضًا ملاذًا هامًّا وضروريًّا لمن مرّ بتجربتنا، تجربة جيلنا الذي سَرق منه [جمال] عبد الناصر سنواتٍ من شبابه وأُلقي به في سجون صحراوية قاسية رطبة وحارة من دون غذاءٍ كافٍ أو ثيابٍ ملائمة. كما لم يكن يستطيع أهلنا البسطاء والمعوزون تحمّل أعباء سفر شاقة في دروب غير مسفلتة بين أسيوط و«الواحات» تقطعها السيارات في حوالي ثماني ساعات!

وكانت القاهرة المكان الإنساني البشري الذي نبحث فيه عن الحب والعمل والمأوى، ومن ثم عن توصيل كتاباتنا إلى المجلات المتاحة أيامها مثل مجلة «المجلة» التي كان يرأس تحريرها يحيى حقّي.

حين أخبرتُ صنع الله عن لقائي الأخير بعبد الحكيم في «دار شهدي»، اقترحَ أن نجتمع أربعتنا في بيته على «قعدة» لطيفة. وبالفعل، جئتُ وعبد الحكيم وكمال للاحتفال بعودة عبد الحكيم من «تغريبته» والنظر في أحوالنا جميعًا. ونحن في «الواحات»، كان عبد الحكيم أكثرنا تمردًا على أسلوب الكتابة المصري والعربي السائد، المتاح والمقبول من الرقابة الناصرية. لكنه أيضًا كان ينفق طاقته في نقاشات شفاهية طويلة وصادمة للرفاق الذين يكتبون طبقًا للقواعد المألوفة والسائدة أيامها. وكنا ثلاثتنا الباقون نمارس «التقية» معظم الوقت في عدم التصريح بما يعتمل داخلنا أو بما نرغب بالإفصاح عنه من انتقادات

كان عبد الحكيم معي في قضيتي التي كان المتهم الأول فيها أبو سيف يوسف، سكرتير «الحزب الشيوعي المصري» المنشقّ آنذاك عن «حركة التحرر الوطني الديمقراطي - حدتو» التي كان سكرتيرها زكي مراد والذي انشقّ عنه «المصري»*، الذي كان سكرتيره فؤاد مرسي. وأعتقد أنّ عبد الحكيم كان منتميًا تنظيميًّا إلى «الحزب» لأنه كان أحد مسؤولي الاتصال، وقد تمت مراقبته واعتقاله خاصةً أنه كان يؤمّن الاتصال بين أبو سيف وإسماعيل المهدوي، المتهم الثاني في القضية.

هكذا التقيتُ عبد الحكيم للمرة الأولى في سيارة الترحيل من قسم الشرطة حيث جمعت المباحثُ معظمَنا لتوْدعنا سجن القناطر «تحت التحقيق» الذي استمرّ حوالي سنة ونصف السنة إضافةً إلى سبعة أشهر قضيناها في المحكمة العسكرية بالإسكندرية، وكنّا ستة عشر متهمًا.

حين تمّ ترحيلنا من الإسكندرية إلى «الواحات» وأبلغنا بالأحكام الصادرة بحقّنا، كان عبد الحكيم مصابًا بالروماتيزم في عضلات القلب، لذا لم يقبع طويلاً في ذاك السجن الذي خلا من أيّ طبيب لمعاينة المرضى، فنُقل مرةً أخرى إلى سجون بعيدة تتمّتع بإمكانات طبية مثل «أسيوط» و«القاهرة».

لقد كان السجناء في «الواحات» يتلهفون للخروج من هذا السجن الصحراوي لمجرّد الرغبة في سماع أصوات غير أصوات السجّانين والحرّاس: أصوات ممرضات إناث، ولو من البعيد، أو الالتقاء ببعض أفراد الأسرة الذين كانت ظروفهم المادية تمنعهم من الاتصال بسجنائهم في «الواحات».

لقد قضى عبد الحكيم وقتًا في بلدته بالقرب من طنطا بعد الإفراج عنه؛ ولعلّ رجوعه إلى بيت الأسرة قدّم له مادة كتابه «أيام الإنسان السبعة»، وهو في الحقيقة كتاب عن والده المتصوّف الذي كان عبد الحكيم يحبّ ويجلّ.

قدَر التراجيديا في «الغرف المقبضة»

«قدر الغرف المقبضة» هي النوفيلا الثانية لعبد الحكيم، وقد كتبها في برلين عام ١٩٨٠. أعتقد أنّ هذه النوفيلا أهمّ من «أيام الإنسان السبعة» لأنها عن رؤية عبد الحكيم لنفسه والحياة التي يراها غير عادلة. وبقراءتي لها، شعرتُ كيف تحوّل حكيم إلى إنسانٍ غاضب. كنتُ ألاحظ غضب صنع الله إبراهيم أيضًا في «تلك الرائحة» ثم في «نجمة أغسطس» التي كتب معظمها في تغريبته بين ألمانيا الشرقية وموسكو وجمع مادتها حين كنّا معًا في أسوان نريد الكتابة عن السدّ العالي. ومن المدهش أني انحزت بالسليقة إلى الجانب المضيء لنا جميعًا بعد الإفراج عنّا، على العكس من حكيم وصنع الله، أحاول إيجاد شيء أتمسك به في صحراء ما بعد الإفراج. كنّا نبحث عن الحب والجنس، والأنثى التي افتقدناها في سنوات السجن، بل في سنوات ما قبله أيضًا، وحين خرجنا أخذنا نبحث عنها وكأنها كانت تنتظرنا! لكنّ تراجيدية عبد الحكيم تلبّسته، على العكس من صنع الله الذي كانت أحواله العائلية أسوأ بكثير من ثلاثتنا. لكمال القلش أسرة متماسكة رجع إليها في بيتهم بمصر الجديدة. وكانت لعبد الحكيم عائلته. ولي أيضًا عائلتي التي استقبلتني بترحاب مؤقت! لكنّ صنع الله لم تكن له عائلة يعود إليها فاستأجر غرفةً في مصر الجديدة وهناك كتب «تلك الرائحة»، وهي «نوفيلا» غاضبة لشخصٍ خرج من السجن يبحث عن أمه التي اكتشف أنه تمّ إيداعها في مستشفى

* عند انشقاق الحزب الشيوعي المصري، احتفظ كل طرف بالاسم الأصلي للحزب فسمّي الحزب المنشق «المصري» والأصلي «الحزب».



الأمراض العقلية! وكانت شوارع القاهرة في «النوفيلا» تفوح برائحة عطنة نتيجة انهيار البنية التحتية للمجاري.

ونلقى بسهولة غضب حكيم في «الغرف المقبضة» كما نلقاه في «المهدي». كما أنّ إحساسه بقدراته الإبداعية كان مساويًا لإحساس صنع الله بذلك، ولعلّه أكبر. على أنّ الأحد عشر عامًا في ألمانيا الغربية لم تقدّم لحكيم ما كان يتمنّاه من كتابة أطروحة الدكتوراه عن أدباء جيله، أو أن تُنشَر ترجمات لكتاباته، لكنّها ألهمته تلك الرسائلَ الشخصية الهامة التي استطاع الصحافي والكاتب محمد شعير جمعها في كتاب ونشرها بعنوان «رسائل نوبة الحراسة» في «دار ميريت».

كنّا نبحث عن الحب والجنس، والأنثى التي افتقدناها في سنوات السجن، بل في سنوات ما قبله أيضًا

لكني بعد قراءاتي السابقة واللاحقة لأعمال عبد الحكيم ورسائله، أجزم أنه لم يستطِع التخلّص من غضبه المقيم عميقًا داخله، فالنظام الناصري بتركيبته الطبقية استطاع أيضًا أن «يلعب» على مشاعر الأنانية عند الشيوعيين المصريين بتعيين القادة الماركسيين في مناصب عليا (ولو لفترات محددة مقصودة) وإهمال الكوادر الأخرى عبر تعيينها في أعمال بسيطة. وقد عُيّن عبد الحكيم موظفًا في «هيئة المعاشات»، أي تلك المصلحة التي تدفع تعويضات التقاعد للموظفين العمّال إلخ، فيما عُيّن كاتبٌ مثل يوسف إدريس، ولأكثر من مرة، في منصب قيادي ثقافي، وكذا بعض الصحافيين أمثال صلاح حافظ وفيليب جلاب وأمير إسكندر وغيرهم.

لعلّ أسباب الغضب تكمن أيضًا في الحالة السياسية التي وصل إليها أمثال عبد الحكيم، فقد وجدنا أنفسنا في العراء، لم يهتمّ أحد من الرفاق «الهامّين» بإرشادنا نحو طريق الانضمام إلى «التنظيم الطليعي» مثلاً، وهو التنظيم الصغير القوي الذي أسّسه عبد الناصر وآخرون من دائرته الضيقة بديلاً سرّيًّا للاتحاد الاشتراكي الفاشل! هكذا وجد عبد الحكيم الطموحَ نفسه في العراء أو في «غرف مقبضة» كقدرٍ لا فكاك منه. لذا، حين جاءته فرصة السفر إلى ألمانيا الغربية لمدة شهر، أراد أن يبذل كل جهده للبقاء فيها وأن يطالب الآخرين بمساعدته في كتابة أطروحة دكتوراه عن جيله. وهكذا بقي في ألمانيا أحد عشر عامًا كتب خلالها معظم أعماله الهامّة مثل «المهدي»، وقد عمل معظم الوقت حارسًا ليليًّا في قصر ألماني، كما أحضر زوجته زينب وولديه إليه واستطاع الحصول على شقة صغيرة ووضع طفليه في الحضانة.

وتجدر الإشارة هنا إلى شكوى عبد الحكيم من علاقة زوجته بوالدته حينما كانا يعيشان في أفقر أحياء القاهرة. وكان يحلم، حسب قوله، بأنهما سيصبحان «مثل الملائكة»! ثمّ شكواه من زوجته بعد استقرارها معه في ألمانيا من أنها تراقبه وتجعل حياته صعبة ومريرة. لكنّ الملاحظة الأكثر دلالة أنه «أخفى» أسرته الصغيرة عنّا وعمّن اعتبر نفسه قريبًا منه، مثلي ومثل كمال وصنع الله! فلم يدعُنا إلى حفل زفافه أو بيته ولم نعرف شيئًا عن أولاده.

تناقض

خلال عهد مبارك، قرّر عبد الحكيم خوض انتخابات «مجلس الشعب» عام ١٩٨٧ على قائمة «حزب التجمّع». لكنّه عقب خسارته أصيب بنزيف حادّ في المخّ دخل على أثره المستشفى، ليخرج بعد أربعة أشهر مصابًا بشلل في يده اليمنى أعاقه عن الكتابة بنفسه، فظلّ يملي على زوجته ما يريد كتابته، حتى وفاته في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٠ بعد رحلة طويلة مع المرض. ويبرز هنا تناقضٌ واضحٌ بين موقفين أساسيّين لعبد الحكيم؛ فهو قد بدأ الكتابة في صحيفة «الشعب» الأسبوعية التي كان يرأس تحريرها الشيوعي السابق عادل حسين والذي تحوّل إلى إسلامي متشدّد، في حين كتب رواية «المهدي» ليكشف التشدد الإسلامي في أقاليم مصر والأرياف، ثم فاجأنا بأنه ترشّح عن «حزب التجمّع اليساري الناصري» في انتخابات «مجلس الشعب»!

ولعلّ تفسير هذين الموقفين المتناقضين يعطينا لمحةً لا بأس بها عن شخصية عبد الحكيم التراجيدية، أي الشخصية المحكوم عليها مسبقًا وتحاول أن تتمرد بلا جدوى على هذا الحكم النهائي المسبق.

وفرّقتنا الحرّيّة!

خرجنا من السجن لنجد أنفسنا «أيدي سبأ» نحاول إيجاد مكانٍ لنا في حياة مختلفة تمامًا عن الحياة داخل السجن. ببساطة، أن نصبح مسؤولين كليًّا عن أنفسنا. السجن الذي يحرمك من الحرية لكنه يقدّم لك ثلاث وجبات في اليوم وروتينًا «عسكريًّا قاسيًا» لساعات الصحو والنوم هو نقيض الهامش المعطى للسجين مطلق السراح. عندما تخرج، تجد أن بعض الرفاق «تبوّأ» مراكز هامّة، بينما أنتَ تبحث عن غرفةٍ للسكن في سطح عمارة، وعملٍ يضمن لك يومًا كريمًا تأكل

فيه ما يأكله ملايين المصريين الفقراء أمثالك، أي سندويتش فول وفلافل! وتسأل نفسك دهِشًا، حتى من دون انفعالات، «هل هذا ما وصلنا إليه؟» هذا ما يلقاه من يقرأ رواية «تلك الرائحة» لصنع الله إبراهيم وبعدها روايته الأخرى عن الهزيمة التي لحقت بمصر وسورية والأردن عام ١٩٦٧، ورواية بعنوان «٦٧»، وهي رواية غاضبة تنتهك الأعراف حيث يمارس الراوي الجنس مع زوجة شقيقه كتعبير عن هزيمة خاصة.

وتكمن أهمية نوفيلا «قدر الغرف المقبضة» في أنها تؤسس رؤيةً شخصيةً/ بشريةً وإنسانيةً عن ريفيّ قدِم من بلدة صغيرة إلى الإسكندرية في محاولة لدراسة الحقوق في جامعتها، ونتيجةً لفقره لا يجد مكانًا يأوي إليه سوى أفقر أحيائها. هي الإسكندرية التي يحبها الريفي لكنه يكره «فقرها و«المسبغة» (الكفاف) وتوحّش فقرائها».

لقد قدّمت الحركة الشيوعية المصرية في الخمسينيات والستينيات تضحيات جسيمة وصلت إلى حدّ التضحية بالأرواح، لكنها أيضًا لم تكن «إنسانية» بما يكفي لكي تقدّم لكوادرها الوسطى والأساسية زادًا يكفيها المسبغة. فقد خرجنا من السجن بثياب مهلهلة ولم نكترث بذلك لنجد أننا سنعيش حياةً مهلهلة هي أيضًا لا تعتمد على ما وعدتنا به دولة عبد الناصر قبل الإفراج، وما تلاه من حلّ التنظيمات الماركسية، بل على ما يعتدّ وقتها في مزاج «أولي الأمر». تغلّب البعضُ منّا على هذه الهلهلة بأنواعها، والبعض الآخر سقط في «جبّ أسود كافكاوي» كما يكتب عبد الحكيم ناقمًا.

هي تراجيديا كاملة وقاسية بامتياز حملها «القدر» إلى قروي مصري وألقى بها على كاهله ليتساءل في السطور الأخيرة من «الغرف المقبضة»، حين يكتشف أنه أصبح مريضًا بالسكّر بالكاد يستطيع الرؤية، حول ما إذا كان المرض أصابه من الجدران الكالحة أو من غضبه ذات مرة من زوجته وأمّه فحطّم بساعده العاري زجاج الباب؟

ملاحظات ختاميّة

لقد توخيتُ الحذر هنا في الكتابة عن عبد الحكيم قاسم، الإنسان والروائي وزميل السجن والصديق، فأنا لا أريد أن أتطوّع لتقديم تحليلات نفسية أو سياسية لأني لست من المتخصصين في علوم النفس وعلوم السياسة، لكنّي حاولت قدْر الإمكان- وبموضوعية قدر الإمكان أيضًا- أن أتتبّع حياته عبر معرفتي الشخصية به وعبر قراءاتي لكتاباته التي بالتأكيد تكشف شخصيته وإبداعه.

بعد قراءتي السريعة الأخيرة لـ«قدر الغرف المقبضة»، التي ذكرتُ آنفًا، أستطيع أن أقول بثقة إنها جزء أساسي من سيرة ذاتية لعبد الحكيم، وإن كانت تحوي بعض المراوغات في عدم ذكر الأسماء كاملة (مثل «شوقي»، وهو الشاعر شوقي خميس الذي زاملني زنزانة «سجن الحضرة» في الإسكندرية طوال سبعة أشهر خلال محاكماتنا). كما أنّ نكوص عبد الحكيم عن وصف المحاكمة إلا من نافذة قاعة المحكمة وسقفها العالي يمنحني إحساسًا بنكوصه أيضًا عن الدخول في تفاصيل هامّة حول كيف كانت المحاكمة عسكريةً، وكيف أنّ المكان الذي زجّتنا به إدارة السجن كان بالأساس المكان المخصص للمحكوم عليهم بالإعدام، فالسجن هو أحد السجون المصرية التي تتمّ فيها الإعدامات شنقًا ولا يزال.

كذلك إنّ رسائل عبد الحكيم التي جمعها محمد شعير في كتاب بعنوان «نوبة الحراسة» هي رسائل كاشفة لمن يريد أن يتفهم الجوانب الأخرى من شخصية الرجل لناحية اهتمامه بتفاصيل الحياة اليومية بهدف تسجيلها، حياته وحيوات الآخرين البعيدين عنه مكانيًّا والمقرّبين إلى قلبه.

كما أنّ عبد الحكيم تجاهل تمامًا أن القضية التي حوكم وسُجن خمس سنوات على أساسها- نفّذ من حكمه أربعين شهرًا- هي قضية شيوعية. وهذه أيضًا مراوغة في الكتابة لم أجد لها تفسيرًا ولا أعرف لها سببًا. بل إنّ كلّ اتصالاته قبل سفره إلى ألمانيا كانت محصورة في «شوقي»، وبعد سفره لم يكتب لرفاق سجنه، وأنا واحدٌ منهم، خطابًا واحدًا! حتى أني أقمتُ حوالي أربع سنوات في بولندا وذهبت إلى برلين تحديدًا لمقابلة صنع الله، ثم إلى كمال القلش أكثر من مرة خلال إقامتي تلك ولم أكن واثقًا من وجود عبد الحكيم في ألمانيا، ولعلّي لم أهتمّ بالتدقيق في البحث عنه.

ما كتبته هنا هو تلخيص، إلى حدّ ما، لشخصية بالغة التعقيد والتركيب، شخصية تراجيدية ومبدعة في آن، شخصية تتطلب دراسةً من متخصصين في النقد الأدبي وعلم النفس معًا.

لكنها رحلة قمتُ بها عبر الزمان والمكان. وأنا الآن في الخامسة والثمانين من العمر (وقد أمضينا في السجن من عام ١٩٦٠ حتى ١٩٦٤) ما زلت أرى عبد الحكيم في توتّراته وضحكاته وعبثه وغضبه وصراخه حاضرًا قويًّا في غرفتي الأمستردامية. بل إني منذ سنوات طوال، قدّمت له تحية خاصة في مفتتح روايتي «غواية الوصال»، وقدِم هو لي في رؤيا ليلية شبه نبوئية- كما رأيتُها آنذاك في غرفتي بأمستردام- بعد رحيله عن دنيانا بسنواتٍ طوال- وكنتُ مهمومًا إلى حدّ المرض لستُ أعرف كيف أنهي السطور الأخيرة من تلك الرواية فساعدني على كتابة ما عصيَ عليّ!



مقهى «ريش» في القاهرة روّاده، أدواره، أسطورته

محمد الحجيري

كاتب وناقد لبناني

لطالما تخيّلتُ في زمن الطفولة، ولأسبابٍ ساذجة، أنّ اسم مقهى «ريش» في القاهرة يرتبط بريش النعام والمقاعد الوثيرة. ولطالما توهّمتُ أنّ المقهى يشبه الصورة التي رسمها لها الشاعر أحمد فؤاد نجم في قصيدته أو هجائيّته «التحالف»، وغنّاها الشيخ إمام:

يعيش المثقّف على مقهى ريش
يعيش يعيش يعيش.
محفلط مزفلط (يقصد متقعّر)
كثير الكلام..
عديم الممارسة عدوّ الزحام.
وكام كلمة فاضية
وكام اصطلاح.
يفبرك حلول المشاكل أوام.
يعيش المثقّف...

كتب أحمد فؤاد نجم، صاحب اللسان السليط والقلب الطيّب، قصيدته، في هجاء «مثقفي ريش». نحن الذين نعيش في بيروت أو لبنان ونسمع أغاني الثنائي ونُعجب بتمرّدهما، وصلت إلينا الصورة السلبية عن المقهى من دون أن نعرفه. هذا نتاج سرّ الكلمة وسحر الإلقاء. لم أكن أعرف تاريخه ومحطاته، وأنّه يمثل «جزءًا مهمًّا من سياق تاريخي اجتماعي، سياسي، ثقافي، أعطاه حكايته وأسطورته»، كما يقول الفنان محيي الدين اللبّاد. وهو يحمل بين جدرانه السياسةَ والثورةَ والموسيقى والشعرَ والقصةَ والفلسفةَ والقانونَ والفنونَ التشكيلية منذ إنشائه في العقد الأول من القرن العشرين.

وفي السنوات القليلة الماضية، صدرتْ مجموعة من الدراسات والأبحاث تبيّن أن «ريش» كان مقهًى بثوراتٍ كثيرة، أو هو مقهًى بأدوارٍ كثيرة، ليست بمنأى عن المزاجية المتقلّبة، على مدى أكثر من مائة عام، وفي مرحلة امتدّت من ثورة ١٩١٩ التي قادها سعد زغلول، إلى ثورة ميدان التحرير في العام ٢٠١١.

فعندما ضرب القاهرة زلزال العام ١٩٩٢، ظهرت صدوعٌ في مبنى مقهى «ريش» التاريخي والقديم وجاذب المثقفين والشعراء والفنانين والسياسيين في وسط البلد، فتحتّم ترميمه. وفي أثناء عمليه الترميم، وبالمصادفة، اكتُشف قبو يؤدي إلى غرفة سرّية عُثر فيها على ماكينة طباعة يدوية قديمة، يعود تاريخها إلى العام ١٨٩٨- لا تزال موجودة في المقهى حتى الآن. وقيل إنّ هذه الغرفة هي المقرّ السرّي لبعض خلايا ثورة ١٩١٩. وما يرجّح هذا التخمين أنّ القبو الذي اكتُشف كان له باب سرّي دوّار تصعب رؤيته لأنه كان محمّلاً بأرففٍ لإخفائه وستره، وخلفه سلّم يؤدي إلى ممرّ صغير يصل إلى بئر مصعد العمارة. «قيل إنّ هذا الباب كان لخروج الثوّار أو القادة من باب العمارة الأساسي الموجود في شارع هدى شعراوي، دون ملاحظة أحد»، ممّا جعل مجدي عبد الملاك، صاحب «ريش»، يؤكد أنّه ربما كان أغلب قيادات ثورة ١٩١٩ تتردد على المقهى. ويؤكد ذلك المؤرخ عبد الرحمن الرافعي، فيقول في كتابه «ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومي من ١٩١٤ إلى ١٩٢١» (دار المعارف): إنّ «ريش» كان ملتقى الأفندية من الطبقة الوسطى ومقرًّا يجتمع فيه دعاة الثورة والمتحدّثون في شؤون البلاد، وجميع الأطياف الحزبية التي تجتمع في المقهى لتصدر بياناتها الوطنية، ولذلك ظلّ هذا المكان مقصدًا للبوليس السياسي، ولرجال المخابرات، الباحثين عن أخبار الشارع المصري بجميع فئاته وأطيافه.

«نافذة مشرّعة على رياح الثورة»

وربما كان ميخائيل بوليتس، اليوناني صاحب «ريش» في تلك الفترة، ناشطًا سياسيًّا. يردُ في كتاب «عين على مصر»[1] للشاعرة ميسون صقر أنّ اكتشاف القبو السرّي ولغز المطبعة عزّزا الكثير من التكهنات حول طبيعة الدور الذي لعبه المقهى في خدمة ثورة ١٩١٩، ومنها ما يُقال عن أنّ أصحابه أنفسهم بدأوا في استخدام هذه المطبعة منذ الاحتلال الإنكليزي لمصر،

وأنّ منظمة «اليد السوداء»[٢] المسؤولة عن الجناح المسلّح للثورة كانت أيضًا تلتقي فيه. لكن وبعيدًا من التكهنات والتخمينات، فقد انطلقت من مقهى «ريش» أكبر الأجهزة السرّية لثورة ١٩١٩ بقيادة عبد الرحمن فهمي، وكانت وظيفته المحافظة على استمرار اشتعال الثورة، و«تنفيذ رغبات الأمّة». وفيه جلس طالب الطبّ عريان يوسف منتظرًا مرور موكب رئيس الوزراء يوسف وهبة باشا في شارع سليمان باشا (طلعت حرب حاليًّا)، ليلقي عليه قنبلتين يدويّتين، إلا أنّ رئيس الوزراء نجا من الحادث. أما سبب محاولة الاغتيال فهو قبول وهبة باشا تأليف الوزارة، في الوقت الذي كانت مصر ملتفّة حول الزعيم سعد زغلول. وبعد رفض القوى السياسية التورّط وتنفيذ أمر الاحتلال- وقد تدخّلت الكنيسة المصرية وطلبت من وهبة باشا الاعتذار لكنه رفض- تمّ تكليف قبطيّ باغتياله تجنبًا لحدوث فتنة بين الأقباط والمسلمين (نجح العقيد طيّار مجدي عبد الملاك، صاحب المقهى، بعد عقود، في ترتيب لقاء ودّي بين حفيدة وهبة باشا، الكاتبة د. فوزية أسعد، وحفيد عريان يوسف، وحضر اللقاء عددٌ من الكتّاب والفنانين).

صحيح «فشلت محاولة الاغتيال لكن بقيت رمزيّتها، كما بقي مقهى (ريش) عالقًا في الأذهان وفي أوراق المحاكم كنافذة مشرّعة على رياح الثورة»، على ما تروي ميسون صقر، وبقيت أعين الأجهزة الأمنية في الوقت نفسه مسلّطة على المكان أيضًا لعقود بعدها. وبعد سنوات، وتحديدًا عام ١٩٤٥، جلس في مقهى «ريش» الشاب محمود العيسوي الذي احتسى قهوته في صباح أحد الأيام، ثم توجّه إلى مبنى البرلمان واغتال أحمد ماهر باشا، رئيس الوزراء. وفي هذا السياق يذكر المؤرخ المصري يونان لبيب رزق أنّ مقهى «ريش» كان «منذ عام ١٩١٩ وحتى ١٩٥٢ الحلقةَ الوسطى الصغيرة في القضايا المشهورة التي تُسمّى الاغتيالات السياسية، هكذا كان يُطلِق عليه البوليس».

لا شكّ أن موقع «ريش» في وسط البلد بالقرب من مراكز الحكم أسهمَ في أن يحتلّ تلك المكانة. يذكر بعضُ المصادر مثلاً أنّ جمال عبد الناصر قبل تموز/ يوليو ١٩٥٢ كثيرًا ما كان يتردّد عليه. كما أنّ حاشية الملك فاروق اختارت «ريش» لانتظار الملك الذي اعتاد السهر للعب القمار في نادي السيارات، وهو على مرمى حجرٍ من المقهى.

ملعب أدبي

في العام ١٩٦٣، طلبت أجهزة الأمن من الروائي نجيب محفوظ فضّ الندوة التي اعتاد أن يعقدها صباح يوم الجمعة من كلّ أسبوع في «كازينو أوبرا»، بدعوى تنفيذ قانون منع التجمهر في العهد الناصري، فانتقل إلى «ريش»، وكان يعلم أنّ عددًا من الكتّاب والفنانين الشباب اعتادوا التردّد عليه، لكنه غيّر الموعد الأسبوعي إلى مساء الجمعة. وعلى مدى سنواتٍ وسنوات، كان بوسع من يحضرون ندوته المفتوحة أن يضبطوا ساعاتهم على الساعة الخامسة تمامًا.

يروي الروائي جمال الغيطاني، أحد أبرز أصدقاء محفوظ، قائلاً: «في أحد أيام ١٩٦١ كان الرئيس جمال عبد الناصر ذاهبًا لصلاة الجمعة في الأزهر، وكان موكبه يأتي من شارع الجمهورية ويتّجه إلى ميدان الأوبرا، ثم إلى ميدان العتبة فشارع الأزهر. ولتأمين الموكب كان بعضٌ من ضبّاط الحراسة في الشارع. وقد لاحظوا أناسًا بالنظّارات يدخلون مقهى الأوبرا، الذي يقع في شارع جانبيّ صغير ويتكوّن من ثلاثة طوابق وفيه سُلّم حلزوني، كما لاحظوا أنّ مرتدي النظّارات يدخلون هذا المكان واحدًا وراء الآخر، فشكّوا في الأمر. فصعد ضابطٌ إلى المقهى ووجد الأدباء مجتمعين حول الأستاذ نجيب فتقدم ناحيته وسأله: من أنت؟ فعرّفه نجيب محفوظ بنفسه وقال له: نحن أدباء نجلس هنا منذ عام ١٩٤٣. فطلب منه الضابط بطاقة تحقيق الشخصية، فأعطاها له نجيب. وفي الأسبوع الثاني حضر ندوة محفوظ ضابطُ أمن وجلس خلف الأدباء، وبعد أن انتهت الندوة ذهب إلى نجيب محفوظ وقال له: أنتم تتكلمون كلامًا غريبًا وترددون أسماء أغرب، مثل تولستوي، وأنا أريد منكَ تلخيص هذه المناقشات حتى نأخذ فكرة عنها. وفي الأسبوع التالي اتّخذ محفوظ قراره بإنهاء علاقته بمقهى الأوبرا، وانتقل إلى مقهى «ريش» الذي صار المقرّ الأول لمحفوظ»، حتى أنّ المثقفين والكتّاب الأجانب كانوا يرسلون الخطابات إلى محفوظ على مقهى «ريش»، وليس على عنوان بيته.

ويروي الروائي المصري محمد البساطي ذكرياته مع مقهى «ريش» قائلاً: انتقلنا إلى مقهى «ريش» مع انتقال أديبنا نجيب محفوظ إليه، فقد كانت جلساته في بداية الستينيات في كازينو صفيّة حلمي بميدان الأوبرا في ذلك الوقت، وكنتُ قد قصدت هذا المكان لأول مرة لأرى نجيب محفوظ، ولم أكن قد نشرت أول أعمالي بعد، وعلمت أنه يذهب إلى هناك كلّ يوم جمعة، فأخذت أتردد على المقهى وألفّ إلى الناس. وبعدها بدأتُ بنشر أولى قصصي في ملحق جريدة (المساء) التي كان يُشرف عليها عبد الفتّاح الجمل، وكان دائمًا ما يحصل على القصص والأشعار من أصحابها أثناء جلوسنا في المقهى. ويأخذنا النقاش وننتقل إلى مقهى الريحاني في شارع عماد الدين ونقابل هناك يحيى الطاهر عبد الله، وأمل دنقل، وإبراهيم أصلان.

ويكمل البساطي: انتقل نجيب محفوظ إلى «ريش»، وكانت له جلسة كلّ خميس هناك يرافقه فيها ثروت أباظة،



وكان أجمل ما في هذه القهوة أنها مفتوحة على الشارع من خلال ممرّ طويل، وإذا أراد أيّ شخص رؤية أيّ كاتب أو شاعر فعليه أن يسأل عنه في «ريش»، فإن لم يكن موجودًا دلّوه على مكانه، فأصبح مقهى «ريش» بمثابة بيت للمبدعين، وأصبح العاملون بالمقهى من أهلنا. ومن الطريف أنّ الكتّاب والأدباء الجدد لم يتشجعوا على الدخول إلى «ريش» قبل أن تُنشر لهم بعضُ الأعمال، فكان بعضهم يقترب من بعيد لينظر خلسةً إلى الجالسين في المقهى ويراقبهم، فإذا ما نَشر أول أعماله تشجع لدخول المقهى، ومن هؤلاء جار النبي الحلو وسعيد الكفراوي. ولم يكن «ريش» قاصرًا على الرجال فقط، فكان هناك عدد من المثقفات أيضًا يأتين إليه خاصة يوم الخميس عندما كان يأتي نجيب محفوظ، ومنهنّ عطيّات الأبنودي والناقدة وداد حامد الباحثة في الفنون الشعبية.

في «ريش» وُلدت موهبة يحيى الطاهر عبد الله وعبد الرحمن الأبنودي ومحمد عفيفي مطر وأمل دنقل

وفي مقهى «ريش» وُلدت موهبة يحي الطاهر عبد الله وعبد الرحمن الأبنودي ومحمد عفيفي مطر وأمل دنقل الذي كان يقف في قلب المقهى يقرأ قصيدته «الكعكة الحجرية» على مرتاديه كأنّه في محفلٍ للشعر. ويقول الروائي محمود الورداني[٣]: «أتذكر جيدًا أنّ صديقي الكاتب الراحل يحي الطاهر عبد الله اصطحبني إلى (ريش) عام ١٩٦٩ على الأرجح، وكان عمري آنذاك لا يتجاوز التاسعة عشرة. لم أذهب معه أصلاً من أجل نجيب محفوظ، بل من أجل أن أعيش وأرى هؤلاء الذين كنت أسمع الحكايات عنهم، بل وقرأتُ بعض أعمالهم في جريدة (المساء)، التي كنتُ قد نشرت فيها قصتي الأولى (كرنفال) عام ١٩٦٨. كنتُ طالبًا في معهد الخدمة الاجتماعية بالقلّلي، ومبناه قريب من مبنى دار التحرير، حيث جريدة (المساء). وكان أصدقاء شقيقي الأكبر الراحل، عبد العظيم، قد قرأوا القصةَ وشجعوني على الذهاب إلى عبد الفتّاح الجمل بقصّتي لنشرها. لم يكن الجمل موجودًا، فتركتها له، وقام بنشرها بعد يومين فقط من دون أن يراني».

شهد المقهى كذلك ولادة العديد من المشروعات الأدبية مثل مجلة «الكاتب المصري» التي صدرت عام ١٩٤٥ ورأس تحريرها العميد طه حسين، وبمشاركة مجموعة من الكتّاب حتى احتجبت في ١٩٤٨؛ و«المجلّة الجديدة» التي كانت «حركةَ الفن والحرية»، وتولّى تحريرها رمسيس يونان، وهو

مقهى ريش.


RICH



من أبرز روّاد التجديد في الفن المصري؛ وفي أحضان المقهى أيضًا وُلدت مجلّة «غاليري ٦٨» في أعقاب نكسة ١٩٦٧، والتي هدفت إلى إجراء تجديد كامل في الأدب المصري.

وخرجت إبداعاتٌ كثيرة كُتبت عن «ريش»، منها رواية «الكرنك» لنجيب محفوظ، ويردّد البعض أنه أخذ اسم الرواية من إعلانٍ مكتوبة عليه كلمة «الكرنك» كان معلقًا فوق «ريش». ويروي الغيطاني أنّ فكرة الرواية راودت نجيب في المقهى، حين رأى حمزة البسيوني- قائدَ السجن الحربي، قبل أن يعزله جمال عبد الناصر ويحاكمه- يدخل المقهى في خشوعٍ وانكسار من دون حرّاس. وقد سرد فيها محفوظ بعضَ ما تعرّض له المثقفون في سنوات حكم عبد الناصر من ممارسات الدولة البوليسية آنذاك. وتحوّلت الرواية إلى شريط سينمائي عُرض في العام ١٩٧٥ لنخبةٍ من النجوم أبرزهم سعاد حسني ونور الشريف.

ويؤكد السيناريست أسامة أنور عكاشة أنّ شخصيات مسلسل «ليالي الحلمية» اقتبسها من شخصيات واقعية كانت تجلس في «ريش»، إذ اقتبس شخصية سليم باشا، التي جسّدها الفنان يحيى الفخراني، من ملامح شخصية محمد عفيفي باشا، والفتوّة صاحب المقهى في المسلسل اقتبسه من ملامح سليم حداد، وهو لبناني الأصل. أما شخصية العمدة التي جسّدها الفنان صلاح السعدني، فهي عمدة القرية المجاورة لقريته. ويضيف عكاشة أنّ جاذبية المقهى تكمن في أنه يضمّ تشكيلةً من البشر يصعب تجميعها أو معرفتها في مكان آخر.

وملعبٌ سياسي ونضالي

يُقال إنّ «ريش» كان مقرًّا لتجمّع لاجئين سياسيين عرب خلال العقد السادس من القرن العشرين وغيرهم من الوافدين للدراسة والزيارة، والكثير من صنّاع الأحداث في العالم العربي. يذكر بعضُ الروايات أنّ الرئيس العراقي الراحل صدّام حسين كان من بين المتردّدين على «ريش»، ويقول محمد حسين صادق الشهير بـ«العم فلفل»، وهو أقدم نادل في المقهى، عمل فيه منذ العام ١٩٤٣، إنّ صدام كان زبونًا دائمًا للمقهى طيلة فترة دراسته ولجوئه في القاهرة. وكان المقهى أيضًا مكانًا لجلوس قحطان الشعبي، الذي أصبح أول رئيس لجمهورية اليمن الشعبية عام ١٩٦٧، وكان يلتقي يفغيني بريماكوف، عندما كان مراسلاً لجريدة «برافدا» الناطقة بلسان «الحزب الشيوعي السوفييتي»، وعبد الفتاح إسماعيل الذي أصبح رابع رئيس لليمن العام ١٩٧٨، وقائد الثورة اليمنية عبدالله السلّال، والرئيس الفلسطيني ياسر عرفات وكذا صلاح خلف (أبو إياد)، والشاذلي بن جديد، والسياسي اليمني محمد أحمد نعمان، و الشاعر العراقي عبد الوهاب البيّاتي، والفلسطيني معين بسيسو، والسوداني محمد الفيتوري.

وشارك «ريش» أيضًا في انتفاضة الطلاب عام ١٩٧٢، وكان مقرًّا لكتابة البيانات المؤيّدة لمطالبهم ليلة ٢٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٧٢ بعد أن فضّ الرئيس أنور السادات اعتصام جامعة القاهرة واعتقل قرابة ألف طالبةٍ وطالب، فخرج زملاؤهم في اليوم التالي بتظاهرات صاخبة انتهت باحتلال ميدان التحرير. وهكذا خرج أول بيانٍ لمساندة الطلاب من «ريش» الذي كان على مرمى حجرٍ من الميدان. وفي رواية «مالك الحزين» لإبراهيم أصلان مشاهد عديدة يتوجه فيها بعضُ الكتّاب إلى المسارح القريبة لجمع توقيعاتٍ من الممثلين والفنانين لمساندة انتفاضة الطلاب. كما خرج منه البيان الشهير عام ١٩٧٣، الذي وقّعه توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وغالي شكري ولطفي الخولي وإبراهيم منصور وبهاء طاهر وعشرات غيرهم، يتضمّن رفض حالة اللاسلم واللاحرب التي استمرت ست سنوات متواصلة، وهو البيان الذي ردّ عليه السادات بفصل ١١١ كاتبًا وصحافيًّا من أعمالهم ومنعهم من الكتابة.

من «ريش» أيضًا خرجت أول تظاهرة في ظل قانون الطوارئ، وقادها يوسف إدريس في تموز/ يوليو ١٩٧٢ احتجاجًا على اغتيال الموساد للأديب الفلسطيني غسان كنفاني في الحازمية شرق بيروت. ويروي محمد البساطي أنه يوم قرّر السادات عقد معاهدة السلام مع إسرائيل كتب إبراهيم منصور على جدران المقهى «شعب مصر لا يؤيّدكم في الذهاب للقدس»، وكانت التظاهرات تملأ الجامعات، ويقول «في ذاك اليوم قابلتُ إبراهيم فتحي وتوجّهنا لنجلس بالمقهى، وهنا وجدنا الشرطة بانتظارنا بسبب ما كتبه إبراهيم منصور». ويكتب محمود الورداني أيضًا أنه في ليلة زيارة السادات المشؤومة للقدس، كتب إبراهيم منصور لافتةً ضد السادات احتجاجًا على الزيارة وجلس في «ريش»، لكنّ المخبرين أحاطوا به وبمن يجلس معه، وحملوا الجميع إلى الداخلية. وهناك أفرجوا عن إبراهيم فتحي ومحمد البساطي وسيد موسى ومصطفى عبد العزيز، بينما اعتقلوا إبراهيم منصور الذي أمضى ثلاثة أشهر قبل الإفراج عنه[٤].

و«ريش» في معنًى من المعاني، «ملعبٌ سياسي صغير أحيانًا وكبير أحيانًا أخرى». يقول كبير المراسلين الأجانب في مصر ومراسل مجلة «دير شبيغل» الألمانية فولكهارد فيندفور (١٩٣٧- ٢٠٢٠)، الذي أجرى ما يزيد على ١١ حديثًا مع السادات وكان من روّاد المقهى القدامى ويُعدّ شاهد عيانٍ على التاريخ الثقافي والسياسي لـ«ريش» وكان عاشقًا لطبق

الـ«سباغيتي» الذي يقدّمه: «ريش ليس مكانًا وليس مقهى، بل جزيرة للحوار الحرّ». ولا توجد أماكن مماثلة لها نفس هذا التاريخ، ففي هذا المقهى كان يلتقي محمد حسنين هيكل ومصطفى أمين.

من «ريش» خرجت أول تظـــــاهرة في ظل قـــــانون الطوارئ عام ١٩٧٢ احتجـــــاجًا على اغتيال الموســـــاد لغسان كنفاني

وقد حاول المقهى استعادة بعضٍ من ألقه القديم مع الشرارة الأولى لثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ حيث فتح أبوابه للجميع محاكيًا تاريخه السابق الذى كان فيه فضاء للحرية. وتكرّر الأمر نفسه في ٣٠ حزيران/ يونيو ٢٠١٣ حيث عقد المثقفون اجتماعات مهمة فيه ونظموا وقفات احتجاجية وبيانات تمّت كتابتها بالكامل داخل جدرانه. في العام ٢٠١٦، قدّم الشاعر محمود خيرالله دراسة «بارات مصر: قيام وانهيار دولة الأنس» (دار روافد)، وفي الفصل الذي يحمل عنوان «كافيه ريش.. مائة عام من الثورة»، يقول إنّ كثيرين يتحدثون عن دورٍ لـ«ريش» في الربيع العربي، يحكون عن ثوّار تلقّوا الغذاء والدواء على نفقة المكان، واضطروا إلى استعمال الأبواب السرية التي يتمتع بها القبو، تحدّثوا عن علاجٍ تلقاه بعضهم من الإصابات، خلال الأحداث التي لحقت في السنوات الثلاث الماضية، وعن دور وطني كبير لا يزال موصولاً من رفاق سعد زغلول إلى رفاق ثورة يناير، الذين مروا بدورهم من هنا.

التأسيس والملْكيّة

يعود تأسيس مقهى «ريش» إلى عام ١٩٠٨ في عمارةٍ يملكها محمد أفندي الجوهري، وقد أنشئ على أنقاض قصر محمد علي توفيق بعد انتقاله إلى منطقة المنيل. وأول من أسسه كان رجل أعمالٍ نمساوي، وقد باعه لاحقًا إلى الفرنسي هنري ريسينييه الذي منح المكان نكهةً أوروبيةً جعلته أوّلَ المقاهي الإفرنجية في القاهرة. ويُعتقد أنّ ريسينييه جاء بالاسم عام ١٩١٤ من لغته الفرنسية بمعنى «الفاخر» أو المنتمي إلى الطبقة العليا، وربما استمدّ اسمَه من اسم المقهى الباريسي الشهير في ذلك العصر «غراند كافيه ريش»، ليتشابه بهذا الاسم مع أشهر مقاهي باريس والذي احتضن أشهر شخصيات الثقافة والفكر الفرنسيين على غرار ألكسندر دوما وإميل زولا والرسام پول غوستاف دوريه.

ونجح «ريش» المصري في الحفاظ على سمات المقاهي بطابعها الأوروبي الغربي الفرنسي. وساعده على الرواج الذي حظي به وقوعُه في قلب المنطقة الحيوية في وسط القاهرة، التي تضمّ مباني فخمة ومهمة أنشئت في بداية القرن العشرين بخبرات معمارية أوروبية، وكان يُنظر إليها على أنها «باريس التي تُطلّ على النيل». تعددت جنسيات أصحابه من فرنسيين ويونانيين ومصريين ومجريين ما يعطينا إشارةً كيف كانت القاهرة مدينةً كوزموبوليتانية. وتعاقب على إدارته العديد من الشخصيات ذوي الجنسيات المتباينة، والذين نتعرف إليهم من خلال التسلسل الآتي:

- برنارد ستينبرغ (شتاينبرغ)، من ١٩٠٨ إلى ١٩١٣، مجَري الجنسية.
- هنرى ريسينييه من ١٩١٤ إلى ١٩١٦، فرنسي الجنسية.
- ميشيل نقولا بوليتس ١٩١٦ - ١٩٣٢ يوناني الجنسية، انتقلت إليه ملكية المقهى فى بداية أيار/ مايو ١٩١٦.
- واسيلي مانولاكيس من ١٩٣٢ - ١٩٤٢، يوناني الجنسية، وهو المالك الرابع للمقهى.
- جورج واسيلي ١٩٤٢ - ١٩٦٠، إنكليزي/ يوناني.
- أخيرًا عائلة المالك المصري عبدالملاك ميخائيل صليب، وهو أول مصري يدير مقهى ريش، ثم تعاقب عليه كلٌّ من ولديه ميشيل ومجدي.

«ريش» والفنّ

يؤكد كتاب ميسون صقر أنّ قصة «ريش» مع الفنّ بدأت عندما اشترى اليوناني بوليتس المقهى من صاحبه الفرنسي ريسينييه عام ١٩١٦. كان بوليتس محبًّا للآداب والفنون، بل وصاحب خبرة في إدارة النشاط الفنّي بحكم إدارته لمسرح الحمراء بالأزبكية، فقرر إدخال تعديلات على المقهى ليدخل الموسيقى، فصار يمتدّ من مكانه الحالي حتى ميدان سليمان باشا (طلعت حرب) بحديقةٍ واسعة ضمّت «تياترو» وكشكًا للموسيقى. من هنا بدأ النشاط الفني لمقهى «ريش». وكانت هناك فرقة تعزف الموسيقى الكلاسيكية والعسكرية كلّ يوم استمرّت حتى عام ١٩١٩، وقد تحقق هذا الإنجاز بعد صراع طويل مع بيروقراطية الاحتلال الإنكليزي.

منذ ذلك الحين أصبح لـ«ريش» بُعدٌ ثقافي وفنّي ملحوظ، فتحوّل من مجرد مقهى أرستقراطي غربي، إلى مكان حميم يتجمع فيه أبناء الطبقة الأرستقراطية والفنّانون والمثقفون الأجانب، ليصبح ملتقًى فنيًّا ذائع الصيت يحفل بالعروض



المصرية والأجنبية. وقد عُزفت فيه الأعمال الموسيقية الكلاسيكية، ثم تدفقت الفرقُ الشعبية. وتناوب على مسرح مقهى «ريش» الفنانون المصريون ومشاهير الطرب منهم: صالح عبد الحي، وعلي عبد الباري، ومحمد السبع، وأحمد إدريس، ثم منيرة المهدية، كما مثلت فيه روز اليوسف مع المخرج عزيز عيد. وشهد بدايات ظهور أم كلثوم، إذ أحيت حفلاً في المقهى عام ١٩٢٣ وكان ثمن التذكرة ١٥ قرشًا، بعدما سبقها أستاذها الشيخ أبو العلا محمد. وعندما نتصفح عدد ٣٠ أيار/ مايو ١٩٢٣ من جريدة «المقطم» نجد الإعلان الآتي: «تياترو كافيه ريش. تطرب الجمهور يوم الخميس مساء ٣١ مايو بلبلة مصر صاحبة الصوت الرخيم الآنسة أم كلثوم. هلمّوا واحجزوا محلّاتكم الآن. كرسي مخصوص ١٥ قرشًا ودخول عمومي ١٠ قروش».

وأُطلقت من «ريش» أول نقابة للموسيقيين خلال فترة الأربعينيات، وذلك بعد أن احتشد عددٌ كبيرٌ ممّن يعملون في مجالَي الموسيقى والغناء داخل المقهى من أجل إيجاد طريقة لحلّ مشكلاتهم المهنية المتفاقمة، وكان على رأس المجتمّعين أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، ونتج من هذا التجمع الاتفاق على إنشاء أول نقابة للموسيقيين في مصر، وانتُخبت أم كلثوم أول نقيبةٍ لها.

أُطلقت من «ريش» أول نقابة للموسيقيين خلال فترة الأربعينيات

«تثير الأماكن فكرةَ الانتماء»، من هذا المنطلق تُقلّب ميسون صقر صفات تاريخ المقهى، وتتفرّس في وجوه مرتاديه. تقول: «وأنت تجلس إلى إحدى الطاولات في مقهى ريش، ستجد نفسك محاطًا بعشرات الصور لأهل الثقافة والفكر والفن الذين كان معظمهم من مرتادي المكان طوال تاريخه». تتأمّل صورة نجيب محفوظ، وكانت له صورةٌ أخرى كبيرة تنتصب في الأعلى مكتوبٌ في أعلاها «نجيب محفوظ - ١٩٨٨»، مع إهداءٍ بخطّ يده «تحياتي لمقهى ريش وأهله، باقين وراحلين ١٠/٣/١٩٨٩». إضافةً إلى صورٍ كثيرة تشكّل جدارًا آخرَ للمقهى بحجمٍ معيّن؛ للشاعرين فؤاد حداد وصلاح جاهين، ولشيخ القصة يوسف إدريس، والملحّن رياض السنباطي والممثل نجيب الريحاني ويوسف وهبي وأمل دنقل وصالح جودت، ومن الممثلين أيضًا: عبد المنعم إبراهيم وتوفيق الدقن ومحمود المليجي وأنور وجدي وإسماعيل ياسين. تتوسط هذه الصور الفوتوغرافية رسومٌ كاريكاتورية لرسّام نسيَ أن يرسم نفسه في زحمة انشغاله بالآخرين رسمًا. كان يمزج ملامحَ الوجه لصاحب الصورة بملامح الشكل الذي يتخيّله، كجسم طائرٍ أو حيوان. رسَمَ توفيق الحكيم، كتبَ أسفل اللوحة «عصفور من الشرق»، والمعروف أنّ «عصفور من الشرق» هي إحدى روايات الحكيم. وهو رسَمه على هيئة عصفورٍ له ملامح وجهه. يوسف السباعي رسَمَه بجسد سمكة. إبراهيم ناجي بجسد سنجاب. طه حسين بجسد كروان ثم كتب تحت الرسم «دماء الكروان»، والمعروف أيضًا أنّ لطه حسين رواية بعنوان «دعاء الكروان» لكنه حين عَبّر عنه بالرسم أبدل العين ميماً. أم كلثوم رسمها بجسد طاووس. هذه الصور تعطي للمكان طابعه الذي له تجليات عديدة، فعودةٌ إلى زمنٍ جميلٍ حين صدحت أم كلثوم بأعذب الألحان والكلمات على مسرح حديقته، وشاركت منيرة المهدية والعديد من المغنين هذا المسرح، وغنّى عليه صالح أفندي عبد الحي وزكي مراد وعزيز عيد والشيخ أبوالعلا محمد، وآخرون.

«بروتوكولات حكماء ريش» وجيل الستينيات

و«ريش» كان حاضرًا في الكثير من الكتب والروايات ودواوين الشعر، منها كتاب «الجنوبي» (دار الشروق) - وهو سيرة بقلم عبلة الرويني التي تقول:

«كان مقهى ريش هو بداية الطريق إلى أمل دنقل.. إنه الملامح والمكان والهوية الذي بدأت منه رحلة البحث عن شاعرٍ لا أعرف ملامح وجهه.

الزمان أكتوبر ١٩٧٥.. رحتُ أبحث عن «مقهى» ريش في الزمان الذي أعرفه. مررتُ أمام مقاهي شارع طلعت حرب أسأل حتى وصلتُ إلى مقهى ريش.. لم يكن يختلف كثيرًا من حيث الشكل عن باقي مقاهي القاهرة.. بل إن شكله الخارجي لم ينمّ عن كونه ملتقى الأدباء.. أو حتى عنوانًا أنيقًا لشاعر..

اسأل الغرسون..

الشاعر أمل دنقل؟

غير موجود.

ترددتُ أكثر من مرة على المقهى.. وفي كلّ مرة كان الزمان صباحًا.. ولا أجد أمل دنقل.. رفَق بي أحد الغرسونات وقال:

الأستاذ أمل لا يأتي إلا مساءً».

لقد شهد المقهى قصة حبٍّ جمعت عبلة مع أمل دنقل وقد تعرّفت إلى الشاعر الراحل عندما التقت به لإجراء حوارٍ صحافي لجريدة «الأخبار».

وهناك نجيب سرور الذي اعتاد في بداية حياته الجلوس في المقهى والاختلاط بالوسط الثقافي المصري، وكان يوم الجمعة هو ميعاد ندوته ويحضرها أمل دنقل ويحيى الطاهر عبد الله

والعديد من الشعراء الناشئين الذين كانوا يتقربون إليه وكان يعاملهم بلطف. لكنه بعد وقت تمرَّد عليهم جميعًا، وكتب فيهم قصيدة طويلة تحت اسم «بروتوكولات حكماء ريش» في كتابٍ نشره عام ١٩٧٧، يقول سرور فيها: «نحن الحكماء المجتمعين بمقهى ريش.. من شعراء وقصاصين ورسامين.. ومن النقاد سحالي «الجبانات».. حملة مفتاح الجنة.. وهواة البحث عن الشهرة.. وبأيّ ثمن.. والخبراء بكل صنوف «الإزمات».. مع تسكين الزاي.. كالميكانيزم.. نحن الحكماء المجتمعين بمقهى ريش.. قرّرنا ما هو آت». كان سرور يعبّر عن رفضه للمدّعين، وحملة الأطنان من الكتب من دون فهم محتواها، ومردّدي الشعارات الجوفاء، الذين اكتظّ بهم ذلك الزمان.

وعلى الرغم من تزاحم الأجيال على المقهى، كان لجيل الستينيات على وجه الخصوص حضورُه الخاص، بل إنّ ذاك الجيل هو من صنع حضور المقهى اللافت بحسب تحليل الكتاب. تقول ميسون إنه – المقهى – يستحق لقب «ملتقى جيل الستينيات» لأنه شهد الميلاد الحقيقي لأبناء هذا الجيل الذي أفرز أسماءً جديدةً في القصة والشعر والموسيقى والسينما، خاصةً بعد نكسة حزيران/ يونيو ٦٧. وقد لعب دورًا مهمًّا في ظهور العديد من تلك الأسماء أمثال إبراهيم أصلان، وصنع الله إبراهيم، ويوسف القعيد، وجمال الغيطاني، وفاروق جويدة وغيرهم. وصلاح عبد الصبور الذي كان يجلس مع صالح جودت ومحمد فتحي المعروف بكروان الإذاعة، وكان صلاح جاهين دائم الجلوس مع عباس الأسواني (والد الروائي علاء الأسواني)، كما كان لطفي الخولي يحضر باستمرار لأنّ مكتبه كان مواجهًا للمقهى.

على الرغم من تزاحم الأجيال على المقهى، كان لجيل الستينيات على وجه الخصوص حضورُه الخاص

وإلى جانب نجوم الأدب هناك نجوم الفنّ كالراقصة تحيّة كاريوكا التي كانت متزوجة من محمد سلطان، أحد رواد المقهى فكانت دائمًا تأتي لاصطحابه. وكان إسماعيل ياسين يأتي مع صديقه اليوناني أمليو ميلوناس. وكان الممثل أنور وجدي يحضر على فترات متقطعة، كما كان يحضر نجيب الريحاني وشقيقه الصغير ورشدي أباظة، الذي تشاجر ذات مرةٍ مع منادي السيارات أثناء إيقافه سيارته أمام المقهى، وأثناء اشتباكهما أصيب رشدي أباظة بجرح صغير في وجهه فالتفت الناس حول المنادي مستنكرين ذلك منه.

سقطات

تقول وثائق «ريش» القانونية إنّ المقهى لم يكن على صورته الحالية، كان يشرف على ميدان سليمان، وله حديقة مضاءة تعزف فيها فرقة أوركسترا كلاسيكية العديدَ من رقصات الفالس زمان الرومانسية. ظلّ المقهى مكانًا لملتقى النخبة المثقفة العائدة من دراستها في الغرب، باريس بالذات، وتقول ميسون إنّ المقهى لم يتمّع بوجود مستقرّ منذ إنشائه عام ١٩٠٨. وتغيّر المقهى بتغيّر ملّاكه، وكان الوضع العام مهددًا في كلّ هذه المراحل بافتقار استقراره وهويّته أو شكله الخاص. وقد مرّ كذلك بتعديلات عديدة؛ من مقهًى، إلى مقهًى وبار، ثم إلى مقهًى و«تياترو»، ثم إلى مقهًى ومطعم، ثم مطعم وبار، واستقرّ في النهاية على مقهًى ومطعم، وظلّ البار مجرّد مشهد أثري مثل البيانو والصور التي تدلّ على ما كان عليه المكان في السابق. وتحت عنوان «إغلاق مقهى ريش انحراف البوصلة» تقول ميسون إنّ المقهى شهد تغيرًا جذريًّا في نوعية روّاده بعد أن تمّ إغلاقه في الفترة التي امتدّت من شباط/ فبراير ١٩٩٠ إلى آذار/ مارس ٢٠٠٠ للترميم، إضافةً إلى حلّ بعض المشكلات الخاصة بالترخيص «فمع خشية أصحاب المكان من حدوث أزمات يمكنها أن تلغي رخصته أو تساعد الراغبين في الحصول عليه، أصبحوا ينتخبون من يدخل إليهم بطريقة أو أخرى، ممّا صنع فجوة بين الروّاد والمكان التاريخي».

ولمّح الكاتب أسامة فاروق[٥] إلى أنه منذ فترة قصيرة انتشرت على مواقع التواصل شهادات تسجّل مواقف صادمة حدثت في مقهى «ريش» الأشهر في مصر، معظمها كان لكتّاب وصحافيين واجهوا مشكلات غريبة وتصرّفات أغرب تصدّهم عن المقهى التاريخي في وسط القاهرة. في المجمل، لم يكن المقهى مرحِّبًا بوجودهم، كان أصحابه يفضلون «انتقاء» نوعية معيّنة من الزبائن! لا أتذكر السبب الذي دفع إلى نشر تلك الشهادات، لكنها كانت جميعها متقاربة ويُفهم منها المعنى نفسه. هناك وجه آخر للمقهى، أدار ظهره لتاريخه الشخصي. المكان الذي بنى سمعته على الانفتاح على العالم، ببساطة لم يعد كذلك.

وفي العام ٢٠١٥ غداة وفاة صاحب مقهى ريش، مجدي عبد الملك، قال الروائي الراحل مكاوي سعيد[٦] إنّ «القول إنّ المكان كان واحة للمثقفين (يقصد مقهى ريش) ينطوي على رِياء، فقد كان مكانًا سلبيًّا من حيث تعامل صاحب المكان مع المثقفين أو من حيث تحويله لمطعم، بما يفرض على مرتاديه إنفاق مبالغ مرتفعة»، وأضاف إنّ «عبد الملك كان يجلس على منضدة بمدخل المحلّ يتفرّس في الداخلين، ويمنع ويسمح، بمزاجه الشخصي، بالدخول إلى والخروج من المحلّ، يصرف



داخل مقهى ريش، ١٧ تموز/يوليو ٢٠٠١.





المحجبات بسرعة وضيق، ويمنع المثقفين الشباب الذين يرى أن ملابسهم وسحناتهم لا تليق بالمكان، وكان يتصرف بعنصرية مقيتة، كما لو أنه يتعامل مع أثر ثقافي ورثه عن الأجانب!».

وقال سعيد إنّ عبد الملك وشقيقه «لم يتحمّلا الضغوط الأمنية للندوة الأدبية الخاصة بالروائي نجيب محفوظ، فأغلقا المقهى يوم الجمعة أمام الندوة، ما دعا محفوظ لعقد ندوته بمقهى سفنكس في شارع طلعت حرب، ثم بكازينو النيل الذي تلقّى فيه خبر فوزه بجائزة نوبل، وقد هنّأه صاحبا ريش بالجائزة وطلبا منه العودة، لكنه رفض». وكتب المؤرّخ والمحاضر في الجامعة الأميركية، شريف يونس، عبر حسابه على فيسبوك: «مع اعتذاري لأصدقائي من محبّي ريش، وصاحب ريش المتوفى، فقد كان ريش بالنسبة لغير الأجانب وأصدقاء صاحب المطعم - القهوة، ومن يبدو عليهم الثراء، تجربةً مهينة تضمنت الطرد لشبابٍ كان شكلهم (منظرهم) ليس لائقًا بالنسبة لصاحب القهوة».

هناك وجــــــــــه آخر للمقهى، أدار ظهره لتاريخـــــــــه الشخصي. المكان الذي بنى سمعتــــــــــه على الانفتاح على العالم، ببساطة لم يعد كذلك

ويقول هشام أصلان[٧]، نجل الروائي إبراهيم أصلان: «دُهشتُ كثيرًا بعد وفاة مجدي عبد الملاك، من رثاء البعض له بكلمات تعبّر عن فقدهم لرجل كان يرحّب بالجميع! تماسكتُ عن إبداء رأي سريع بمنطق احترام الغياب ومشاعر الآخرين، خصوصًا بعد ما عبّر صديقنا الكاتب، محمد خير، عن مشاعري بدقّة، في بوست فيسبوكي طويل متحدثًا عن عنصرية الرجل في اختياره العاملين في المقهى، ومحاولاته انتقاء الزبائن بطريقة غير مفهومة. هل هي طبقية؟ محاولات مَرَضية للحفاظ على روح المكان؟ أنا لا أظن أنه نجح في الحفاظ على روح المكان، ربما حافظ على شكله، غير أنّ روحه كانت تتطلّب بساطة شبيهة بكونه كان مكان التقاء فقراء الكتّاب والفنانين ذات يوم، بحسب الصور المعلقة للراحلين من مرتاديه القدامى.

هل هو صراعٌ بائسٌ مع الوقت، رغبةٌ في تثبيته بشكلٍ أو بآخر عبر الحفاظ على شكل معيّن؟ لا أعرف. لكن ما أعرفه أنه، حتى بالمنطق الطبقي، لم يكن موفّقًا كثيرًا في الاختيار، غير أنّ المدهش حقًّا، هو امتنان بعض المثقفين لصاحب مقهى، لأنه سمح لهم بالدخول! والدخول إلى (ريش) لم يكن يعني غير أن تجلس لتأكل أو لتشرب، مثله مثل أيٍّ من مطاعم وبارات وسط المدينة».

بمعنى آخر شهد مقهى ريش تحوّلاتٍ وأمزجة. ويسأل أسامة فاروق «لكن كيف حدث ذلك التحوّل؟». الإجابة نجدها في ثنايا كتاب ميسون حيث نفهم ببساطة أنها مجرّد مرحلةٍ جديدةٍ من مراحل المقهى، الشاهد الأعظم على التحوّلات في القاهرة، ونفهم أنّ مسألة الانتقاء تلك ليست عشوائية وليست بلا سبب أيضًا، فالمقهى «ترمومتر» شديد الحساسية للواقع، واستمراره حتى الآن في مكانه رغم تغيّر العالم من حوله دليلٌ كافٍ على مدى حساسية ملّاكه وذكائهم وخبرتهم الطويلة في التعامل مع المدينة التي أصبحوا جزءًا من تاريخها السياسي والثقافي. ولم تكن مشكلة «ريش» في فرض نمطٍ محدّدٍ من الزبائن، فصاحب المقهى، بحسب ما ينقل الكاتب نبيل عبد الفتّاح، كان يحول دون تمدّد بعض السوقية في سلوك بعضٍ من روّاد المقاهي الأخرى التي تمارس فيها بعض الثرثرة، ويعود ذلك إلى «حراسته لتاريخ المكان وتقاليده وطقوسه»، وأيضًا لأنّ محمد الفيتوري جاءه ذات مرةٍ قبل الافتتاح الجديد، وسأل عن صديقه يوسف إدريس فقال له مجدي إنه يقاطع «ريش»، ولا يعرف السبب، فذهبا معًا إلى مكتبه بالدور السادس بالأهرام. وقال لهما إنه لا يريد أن يذهب إلى «ريش»، حيث العراك وبعض السابلةِ من مدّعي الثقافة الذين يفرضون ظلّهم السخيف على بعض كبار المثقّفين والكتّاب. من هنا جاء موقف المرحوم عبد الملاك الصارم من الحيلولة دون أن يتحوّل «ريش» إلى مكان يمارس بعضُهم داخله ضغوطًا على روّاد المقهى من كبار الكتّاب والمثقفين، وثمة من يقول إنّ مشكلة يوسف إدريس كانت مع نجيب محفوظ.

يقول الروائي يوسف القعيد: «بشكل عام، يمكن اعتبار المقاهي قبل السبعينيات أماكن مناقشة واحتكاك عقول بعقول. لكنّ الأمر الآن أصبح مختلفًا. أصبحت أماكن «للخناقات» وأيضًا أماكن «للنميمة» وفقدت دورها تمامًا كملتقًى للكتّاب الذين يمكن أن يستفيدوا شيئًا من خلال المناقشات الأدبية الحقيقية. إنّ ما حدث للمقاهي هو جزءٌ من محاولات هدْم القيم التي سادت خلال السبعينيات في عصر الانفتاح المهول. كنتُ منتظمًا في التردّد على المقاهي ومن بينها مقهى «ريش» بالذات أيام ندوة نجيب محفوظ وتوقفتُ بعد خناقة الناقد رجاء النقاش الشهيرة مع الراحل الروائي يحيى الطاهر عبد الله والتي حدثت بعد مجيء السادات للحكم».


داخل مقهى ريش.



وتعكس سيرةُ «العم فلفل» جانبًا مهمًّا من مزاج المكان وناسه وهويته، فهو مصري قدِم من النوبة في النصف الأول من القرن الماضي حينما كان يبلغ من العمر ١٤ عامًا. يتذكر كيف كان نجيب محفوظ يأتي كل يوم عند السابعة مشيًا إلى «ريش» متأبطًا الجرائد اليومية، ويأخذ القهوة الخاصة به مع قرص الأسبرين ويقابل الناس للحديث في الأدب والسياسة،

تعكس سيرة «العم فلفل»، أقدم نادل في «ريش»، جانبًا مهمًّا من مزاج المكان وناسه وهويته

كما كان يقيم ندوته الأسبوعية كل يوم جمعة حتى تم إيقاف هذا النشاط خوفًا من البوليس وقتها. ويضيف أنّ يوم توقيع «اتفاقية كامب دايفد» التي ثار عليها المثقفون المصريون من ذكرياته التي لا ينساها، إذ نظّم أولئك تظاهرة خرجت من المقهى تتزعّمها مجموعة من الكتّاب والصحافيين على رأسهم يوسف إدريس وإبراهيم منصور وغيرهم. ويرى هذا الرجل أنّ الزمن قد تغيّر كثيرًا حيث كان زبائن المقهى أكثر هدوءا ورقيًّا وكان الناس أكثر وعيًا وثقافةً من الآن. ونظرًا إلى الحالة الاقتصادية المتعثّرة التي يمرّ بها المثقفون عادة؛ فقد كان «العم فلفل» يكتفي منهم بكتابة المديونيّات في أجندة خاصة، ليذكّرهم بها «حين ميسرة»؛ لذلك يسمّيه بعض الظرفاء «كاسر عين الأدباء». وهو صاحب حكايات ظريفة عاصرَها، معظمها يرتبط بالحسابات المادية؛ مثل قوله إن «توفيق الحكيم قال لنجيب محفوظ: كلّ واحد يحاسب لنفسه!»، في إشارةٍ إلى بخل توفيق الحكيم. يقول محمد البساطي[8]: أحيانًا لا يكون مع أحدنا نقود فيطلب بعض المشروبات وأطعمة ويسدد ثمنها عندما ينشر قصيدةً أو قصةً أو غير ذلك.

خاتمة

تبدو صورة «ريش» الآن مزيجًا من الذاكرة والأطلال والنوستالجيا. في حواره مع ميسون صقر، يلخّص نبيل عبد الفتّاح المسألة فيقول «نحن أمام مقهًى مكتنز بالتواريخ والشخصيات والأفكار، لكنه يبدو الآن غريبًا وسط الأمكنة الأخرى، وجهُ الغرابة يميل في اكتنازه التاريخي والثقافي، وسط أصواتٍ بلا نضال، وأماكن للبيع والشراء تضجّ بالصخب، هي أصواتٌ تتبادل مع بعض الأصوات الرديئة أو الجيدة بين الأجيال الجديدة الشابة، بها بعض المؤيدين وتيّارٌ كاملٌ من العاطلين من المواهب، يوزّعون الصخب والأكاذيب والرداءة في المكان».

في المقابل، يكتب الشاعر محمود خيرالله دراسة «بارات مصر: قيام وانهيار دولة الأنس»، ويقول فيها: «قد يستغرق الأمر سنوات، قبل أن تعترف الثقافة العربية، المتحفّظة بطبعها، بأنّ حياة بعض البارات في القاهرة، وعواصم عربية أخرى، جسّدت رحلة كفاحٍ طويل، عاشه روّادها، خلال القرن الماضي، وأنّ بعض هذه البارات والمطاعم، مثّلت بوجودها الأصيل في أقدم شوارع القاهرة، مثلاً، رحلةَ نضالٍ ممتعة، لا يلتفت إليها أحد، ضدّ دولة القمع وانتصارًا لدولة الحقوق والحريات. قد يستغرق الأمر سنوات قبل أن نعترف بأن كافيه ريش، يُعتبر أجمل دليلٍ على استمرار الثورة وتألّقها، بوجوده على هذه الأرض لأكثر من مائة عام، كأيقونة سقطت سهوًا من أحد أحفاد محمد علي باشا، أواخر القرن التاسع عشر. كافيه ريش، واحد من المطاعم التي لعبت أدوارًا عظيمة ومُلهمة في تاريخ هذا البلد، عبر انحيازها الدائم إلى جانب الثوّار، في أيام الثورات المصرية الكثيرة، خلال القرنين العشرين والواحد والعشرين، حيث استطاعت هذه المطاعم بالذات أن تكون ملاذًا آمنًا لبعض هؤلاء الثوار، بل وأسهمت في صناعة «شيء» من النجاح لهذه الثورات، وهو ما حدث مع ثورة ١٩١٩ وتكرّر بالوتيرة نفسها وعلى المقاعد ذاتها، قبل ثلاثة أعوام، في ٢٥ يناير ٢٠١١، وتكرّر ثالثًا العام الماضي ٢٠١٣، إبَّان ثورة ٣٠ يونيو».

الهوامش

١ كتاب **مقهى ريش عين على مصر** للكاتبة ميسون صقر، يقع في ٦٥٠ صفحة من القطع الكبير وصدر عن دار نهضة مصر، ٢٠٢١.

٢ «جماعة اليد السوداء» هي جماعة سرّية كانت بقيادة عبد الرحمن فهمي، ظهرت في ثورة ١٩١٩ وتُعرف باسم جماعة الاغتيالات. كانت أولى مهمات تلك الجماعة قتل رئيس مجلس الوزراء محمد سعيد باشا، والذي كان يمثّل خطرًا في ذلك الوقت.

٣ محمود الورداني، «قهوة ريش... سجل سياسي وثقافي لقرن من الزمان»، موقع «مدى مصر»، ١٢ نيسان/ أبريل ٢٠٢٢.

٤ محمود الورداني المرجع نفسه.

٥ أسامة فاروق، «مقهى «ريش»: تاريخ موجز للقاهرة بين ثورتين..وسير مثقفين وفنانين» موقع «المدن»، الأحد ٣١/١٠/٢٠٢١.

٦ خالد محمود، «مثقفون يحلمون ببداية جديدة لمقهى ريش بعد وفاة مالكه»، جريدة «الإمارات اليوم»، ١٥ أيار/ مايو ٢٠١٥.

٧ هشام أصلان، مقهى «ريش» ووهم الحفاظ على روح المكان، موقع «المدن»، السبت ٠٩/٠٥/٢٠١٥.

٨ عبير درويش، «مقاهٍ صنعت أدباء.. أدباء صنعوا مقاهي»، جريدة «الشرق الأوسط» ١٨ آب/ أغسطس ٢٠٠٢، العدد ٨٦٦٤.

رحيل مظفّر النوّاب
الشعر خبز الحريّة وخمرتها الصافية

محمد ناصر الدين

شاعر ومترجم لبناني. صدرت له بالعربية بين ٢٠١١ و٢٠١٩ سبع مجموعات شعرية من بينها «صلاة تطيل اللوز شبرًا» (٢٠١٢) و«رحلة في قرية النمل» (٢٠١٣) و«ذاكرة القرصان» (٢٠١٤)، و«سوء تفاهم طويل» (٢٠١٥)، و«فصل خامس للرحيل» (٢٠١٦). وكتاب بعنوان «سوء تفاهم طويل - أنطولوجيا شعرية» (٢٠١٧). وله عدة ترجمات للعربية منها كتاب «حدادون وخيميائيون»

أنا أنتمي للفداء
ولرأس الحسين
وللقرمطية كلّ انتمائي
وللماركسيين شرطَ الثبات مع الفقراء
وشرط القيام بها بالسلاح كما هي أصلاً
بدون التفاف ودون رياء

بغياب الشاعر العراقي مظفّر النوّاب (١٩٣٤- ٢٠٢٢)، فقدت قصيدة «الغضب» و«الجماهير العربية» أحد أهمّ أركانها، وصوت سخطها المحموم على الحكّام والأنظمة العربية المتخاذلة. لم يكن مظفّر النوّاب أول من يصرخ في وجه الطغاة ولا سيما في بلاد الرافدين، فالشاعر عبد الوهاب البيّاتي عُرف بـ«شاعر الراية» والراية في يده أمميّة حمراء، كما أنّ الشاعر سعدي يوسف طعّم قصائده بثورية تطبعها الجمل المشبّعة هادئة الوقع، لكنّ النوّاب كان العلامة الفارقة في القصيدة الاحتجاجية الحديثة، فبحسب الباحث العراقي سلام عبود «يميل (مظفر) إلى صناعة كلمة ملتاعة، مشحونة إلى حدّ الانفجار، تشبه الألغام الأرضية التي تنفجر كلّما رفعنا أرجلنا عنها، وأنت تقرأه بصوت عالٍ تخشى أن تنفلق جدران الكلمات في فمك، أو تنفجر في وجهك وأنت تقرأ صامتًا أو تقف مستمعًا، وفي دماغك وأنت تمعّن بها متأملاً، متتبّعًا هزّاتها الراعدة في أعماق روحك».

شاعرٌ نموذجيّ

الشاعر الغاضب الذي عُرف بقصائد مثل «وتريّات ليلية» و«القدس عروس عروبتكم» و«تلّ الزعتر» التي حفظتْها جموع الغاضبين والرافضين عن ظهر قلب بمقاطعها الناريّة مثل: «**القدس عروس عروبتكم/ فلماذا أدخلتم كلَّ زناة الليل إلى حجرتها/ ووقفتم تسترقون السمع وراء الأبواب لصرخات بكارتها/ وسحبتم كلَّ خناجركم/ وتنافختم شرفًا/ وصرختم فيها أن تسكت صونًا للعرض/ فما أشرفكم!/ أولاد القحبة هل تسكت مغتصَبة/**» سيثير برحيله كما في حياته الكثير من الزوابع حول طبيعة الشعر ذاته والجدل الذي لا ينتهي حول دوره ووظيفته في الحياة والسياسة والاجتماع، فإذا كان الشعر هو الناطق الرسمي باسم الجماعة والحامل لتطلّعاتها وقلقها وانتصاراتها وانكساراتها كما في ينابيعه الأولى في الشعر الجاهلي والمرحلة الأولى من صدر الإسلام، فإنّ مظفّر النوّاب يبدو ضمن هذه الرؤية الشاعرَ النموذجي لمجتمعات كانت أحوج ما يكون إلى تنفيس غضبها وردّات فعلها على الخيبات المتتالية من الاستعمار إلى النكبة فالنكسة فتخاذل الأنظمة واستباحة التراب العربي من البحر إلى النهر. قلّما جمع شاعرٌ كلّ شرائح المجتمع المتعطّشة إلى نسمةٍ من كرامة كما فعل مظفّر النوّاب، الخارج من كنف أسرة أرستقراطية تعود بنسبها إلى الإمام السابع عند الشيعة موسى بن جعفر الكاظم كانت قد حكمت إحدى الولايات الهندية ثم نُفيت إلى العراق مطالع القرن العشرين لمقاومتها الاحتلال البريطاني، وذاق الأمرّين في حياته تعذيبًا في أعتى السجون البعثية ومشرّدًا في الأهوار بعد أن حفر ومجموعة من رفاقه نفقًا للهرب نحو الأهوار في الجنوب العراقي ثم إلى كل منافي الدنيا.

كان مظفّر النوّاب من قلّةٍ من الشعراء يجتمع به مريدوه في أمسياته فيطربهم ويضحكهم ويبكيهم ويرجّع في صوته كالمراثي الكربلائية ويرفع الأدرينالين في أرواحهم وينفعل هو الآخر مع كلّ لغة جسده ليسقط مغشيًّا عليه بينهم أو يتعتعه الخمرُ الذي لا يفارقه أثناء قراءة الشعر ليعين جسدَه على قوّة الكلمات التي تشبه صاعقة الوحي في جسد الأنبياء. التعريف الآخر للشعر الذي ينفي عنه صفةَ الالتزام ويريد حصره بتجربة داخلية متخفّفة من السياسة والقضايا الكبرى (وهي نظرية تناقَش لأنّ الشعر في أصله شحنٌ للّغة وتحويرٌ للخطاب



السائد، وفي كلّ تحويرٍ للخطاب ضربٌ من السياسة) تستند إلى تجربة السيّاب، أب الحداثة الشعرية العراقية، الذي كانت لديه مناعة عالية ضدّ إغواء السياسة، وهي وليدة انسحاب كليّ من التاريخ المشترك إلى أسطورة عالمه الداخلي، ومملكة موتاه، هذا التعريف الآخر يعيب إذن على النوّاب منبريّته التي جعلت الجماهير تتمغنط حول نبرة صوته الموشّحة بالحزن العراقي الكربلائي، واعتبرت شعره أشبه بالخطب السياسية التحريضية والبيانات الراديكالية البذيئة. إلا أنّ صاحب «وتريات ليلية» لم يكن هذا ولا ذاك، إذ بقيت طبقاتٌ رقيقة الكلمات والمعنى، لا سيّما في الشعر الشعبي لمظفّر النوّاب وحتى في ثنايا بعض القصائد «النارية»، مطمورةً تحت الكتلة الصلبة من الجمل الموجّهة كراجمات الصواريخ من أعلى المنابر في تجربته التي جمعت بين التدوين والمشافهة، فلا بدّ لكلّ دارسٍ لشعر النوّاب من أن يدرس الجانبين، إذ إنّ للشعر العامّي عند النوّاب مزاياه وعالمه، وللشعر الفصيح أيضًا مزاياه وعالمه، وذلك يشبه تمامًا الشغل على مادتين مختلفتين في الخلق، إذ يختلف فعل الشاعر عندما ينحت في الصخر (القصائدَ الفصحى) عمّا يفعله حين يشكّل تكوينات بواسطة الطين (القصيدة العامّية).

قصائدُ من طين

أول ما اشتهر مظفّر النوّاب بقصيدة «للرّيل وحمد» التي لا يزال العراقيون يردّدونها عن ظهر قلب:

مرّينا بيكم حمد واحنا بغطار الليل
اسمعنا دكّ قهوة وشمّينا ريحة هيل

استلّ الأديب علي الشوك قصيدة «للرّيل وحمد» من دفتر النوّاب ونشرها دون علمه

الرّيل يعني في لهجة جنوب العراق القطار، وقد كتبها الشاعر بعد لقاءٍ مع امرأةٍ من قرية أمّ الشامات في مقصورة الدرجة الثالثة في القطار المتوجّه إلى البصرة وأخبرته بقصة هروبها من أهلها ومدينتها لوصال حبيبها في قصة العشق الممنوع والخارج عن تقاليد العُرف والأهل والعشيرة. يقول مظفّر النوّاب في أحد حواراته إنه لم يكن يدور في ذهنه أنه سيطبع هذه القصيدة يومًا ما، أو أنها ستنتشر كالنار في الهشيم لتدخل كلّ بيت في العراق وسيحفظها القرّاء ويطلبون أن يقرأها بصوته في مختلف الأقطار العربية، إذ إنّ القصيدة التي كُتبت عام ١٩٥٦ واستكمُلت عام ١٩٥٨ استلّها الأديب العراقي علي الشوك من دفتر الشاعر ونشرها دون علمه، ثم كتب عنها الشاعر سعدي يوسف بوصفها «زهرة عراقية نادرة في بستان الشعر العربي»:

القصيدة التي كُتبت بروح الشاعر المتأثّرة بالألوان (كان النوّاب رسامًا أيضًا) والأجواء العائلية المشبّعة بالموسيقى (والده كان يعزف على العود وأمّه تعزف على البيانو وتترنّم بالمراثي الكربلائية) فتحت بمفرداتها المتداولة بين الناس أبوابًا جديدةً في لمس الشعر بليونة ويُسر: كان يطيب لمظفّر النواب أن يقارن شعره العامّي أو الشعبي بطمي الفرات أو الطين، لكون اللغة العامية مطواعة وبعيدة عن موضوع النحو والإرث البلاغي الذي يشدّ شاعر الفصحى إلى أثقال الوزن والعروض والبلاغة المتكلّفة، ثم إنّ مرونة العامّية وتراكيبها تمنح الشاعر سعةً وحريةً في اشتقاق المفردات وتشكيلها مثل الطين المختمر الذي اكتشفه النوّاب إثر هربه من سجون البعثيين نحو الأهوار في جنوب العراق، فالهور مائيّ وطينيّ وطبيعته انسيابية والماء فيه يتشكّل، وكذلك الطين بأشكال متعددة. ألهمت لكنةُ نساء الجنوب العراقي وهنّ يتنزّهن في القوارب ولغتُهنّ العامية مظفّرَ النوّاب كثيرًا، كثيرًا، لكنة كان يشبّهها بالموسيقا الرقراقة لا سيّما عند تصغير الأسماء (صاحب وجاسم تتحولان مثلاً في لهجة نساء العمارة إلى «صويحب» و«جويسم») ويجيد التعامل معها برفق ومحبة حتى يتشكل الطين كما نقرأ مثلاً في قصيدة (زرازير البراري):

جفنك جنح فراشة غض
وحجارة جفني وما غمض
يلتمشي بيّه ويا النبض
روحي على روحك تنسحن
حن بويا حنّ

قصيدة النوّاب العامّية باللهجة الدارجة الجنوبية والمطعّمة بلهجة بغدادية أحيانًا غلب عليها الغزل كما في «للرّيل وحمد»، و«زرازير البراري»، أو جمعت بين الغزل والسياسة كما في «سفن غيلان أزيرج»، أو كانت سياسية محضة مثل «مضايف هيل»، أو «عشاير سعود». هذه القصائد العامّية سيظهر طيفها في ما بعد حتى في شعره الفصيح في نسيجه الذي يقترب أحيانًا إلى التركيب العامّي منه إلى النحو المحكم أو الجملة البلاغية، فتعثر مثلاً في الحركة الأولى من «وتريات ليلية» على إحدى العبارات الدارجة في جنوب العراق:

«في العاشر من نيسان بكيت على أبواب الأهواز/ فخذاي تشقّق لحمهما من أمواس مياه الليل»، فعبارة مثل «أمواس الليل» كناية عامية عن شدّة برد الماء، ومن هذا التركيب العامّي قوله في قصيدة أخرى «ملكٌ من يجلس في زاوية يرضع ربعية»، فهو لم يكتفِ بأن يُقحم في الفصحى جملةً تتردد على ألسنة العامّة من المولعين بالخمر، وإنما تعمّد إقحام لفظتهم العامية «ربعية» واستعارتهم الجميلة «يرضع» لوصف أحوالهم في ارتشاف الشراب. دافع النوّاب بقوة عن قصيدته الشعبية بوجه الاتهامات التي اعتبرت العاميّة لغة شعوبية تؤذي جمالية اللغة العربية، فاعتبر أن العاميّة قادرة على التحريك واستثارة الناس لقدرتهم على استذكارها وتداولها أكثر من الفصحى. كما أنه في قصيدة مثل «للريّل وحمد» لم يكن لينقل حديث قرويّة فلاحة تتحدث بهذه اللغة الشاعرية، وإنما الشاعر الذي ينقل مفرداته وعالمه والرّنين الذي أحدثته نبرة الشجن العذبة في صوت الفلّاحة الجنوبية في مخيّلته وروحه.

دافع بقوة عن قصيدته الشعبية بوجه الاتهامات التي اعتبرت العاميّة لغة شعوبية تؤذي جمالية اللغة العربية

قصائدُ خشنة

الجناح الآخر من قصائد النوّاب، وهي القصائد بالفصحى انطلق فيها الشاعر من رؤية شرحها في أحد حواراته: «المفروض بالشاعر طبقًا لتركيبته وحساسيته وحدسه ألّا يتعالى على قضايا الناس. نحن أمّة مهددة بكوارث ونرى ماذا يحدث، فإذا بقي المثقفون جالسين في منازلهم لكتابة قصائد تُقرأ في الليل على ضوءٍ خافتٍ وموسيقى ناعمة، فأين نحن من الصراع، بل أين نحن كأمّة؟»».

إنها قصائد تحريضية بامتياز وإنْ شابتْها نبرة انكسارٍ دائمة بعد وصولها إلى نقطة الذروة في الفتك بالخصم وتقريعه وتوبيخه: صارت قصيدة النوّاب السياسية الخشنة إذن نقيض قصيدة الطين الليّنة، إنها حجر الإدانة، وصلابة اللغم، واحتشاد الرموز الثوريّة التي استلّها النوّاب من قاموس تاريخي حافل بفهرس من العصاة والمشاغبين والخارجين على سلطة الخليفة والحاكم والسلطان، إذ يشير الشاعر العراقي سعد الياسري في التفاتةٍ ذكيةٍ إلى نوعٍ من «الماركسية العراقية الشعبية» التي تظهر في شعر الشعراء الشيوعيين المتحدّرين من بيئة الريف والبادية، ومن عائلات تتعبّد بالإسلام الشيعي، «حيث ستلعب شخصيات بعينها، دورًا حاسمًا في تطور أفكار الإنسان العادي بتلك البيئة... إنّ شخصياتٍ تنمو لتصبح موضوعاتٍ مركّبة، ذات بعدين أو أكثر (ثقافي، اجتماعي، سياسي، إلخ) كالمسيح، يحيى المعمدان، يوشع بن نون، علي بن أبي طالب، الحسين بن علي، عمّار بن ياسر، أبي ذر الغفاري، كفّ وأفعى وعصا موسى، نار إبراهيم، شخصية القرمطي المتخيّلة، ثورة الزنجي المتخيّلة، بعض سور القرآن (مريم، الرحمن نموذجًا)، بعض أسفار الكتاب المقدّس بعهدَيه (المزامير، الأمثال، الجامعة، نشيد الأنشاد، الرؤيا نموذجًا)، المجوس، الوضوء، بابل، سومر، تموز، عشتار، آشور، إنكيدوا، هاشم، أمية... كلّ هذه الموضوعات وسواها تحضر لدى الشاعر العراقي المعاصر، الجادّ، بطريقة لا يكاد يشابهه في طريقة وأسلوب توظيفها شاعرٌ يكتب بالعربية في الشام أو مصر أو شمال أفريقيا أو الخليج. ومظفّر كان أستاذًا في توظيف بعض هذه الموضوعات وأسطرتها لأغراض اليسار الحماسيّة، في لحظةٍ مفصليةٍ كان الخطاب فيها يحتمل هكذا صوت وتعبير، من دون أن يذكر عنه معاشروه والمقرّبون منه في العراق وسوريا أيّ مسحة تديّن فعلي أو مزيّف». فسيظهر الإمام علي مثلاً في البعد الاشتراكي الثوري من شخصيته في المقطع الشهير:

أنبّيك عليا!
ما زلنا نتوضأ بالذلّ ونمسح بالخرقة حدّ السيف
ما زلنا نتحجج بالبرد وحرّ الصيف
ما زالت عورة بن العاص معاصرة
وتقبّح وجه التاريخ
ما زال كتاب الله يعلق بالرمح العربية!
ما زال أبو سفيان بلحيته الصفراء
يؤلّب باسم اللّات
العصبيّات القبَلية
ما زالت شورى التجّار ترى عثمان خليفتها
وتراك زعيم السوقية!
لو جئتَ اليوم
لحاربك الداعون إليك
وسمّوكَ شيوعيّا

أو حين يستحضر حسين الأهوازي، زعيمَ القرامطة في مقطع آخر:

لقد علّمهم ذاك حسين الأهوازي
عشيةَ يومٍ في القرن الرابع للهجري



مظفر النوّاب





وكانت قدمي الملويّة قد تَركت
بقعًا خضراءَ من الدم المخلص
واستجوبت الأشجار فلم ينطقْ حجر
كيف نسينا التاريخ؟
وكيف نسينا المستقبل؟
كان القرن الرابع للهجرة فلّاحًا
يطلِق في أقصى الحنطة نارًا
تلك شيوعيةُ هذي الأرض
وكان اللّه معي يمسح عن قدمي الطين فقلتُ له
اشهدْ أني من بعض شيوعية هذي الأرض.

كما أنّ النوّاب سيوظّف من جديد كلّ مخزون التقاليد الدينية الشعبية في قصيدته بالفصحى مثل قوله: «لكنّ الناموس تجمّع في خيط الفردوس كنذر في رِجلي»، فقد درج أهل الريف في العراق على زيارة أضرحة الأئمة والأولياء، ودرج سدنة هذه الأضرحة على إعطائهم خيوطًا خضراءَ يشدّونها كالسوار حول المعصم أو كالخلخال حول الكاحل وهم يسمّونها كما في قصيدة النوّاب «خيوط النذر»، ومن المعتقدات الشعبية ما نراه أيضًا في الحركة الثانية في «وتريات ليلية»:

لم يرتضِ للغته السياسية أن تكون مقعّرة بالأساطير وبالماركسية الشعبية فحسب، فكان أن ضمّن قصائده جملَ البذاءة النارية

وهبّت نسمات أعرف كيف أفيق عليها
بين الغيبوبة والصحو تماوج وجه فلسطين
فهذي المتكبّرة الثاكل
تحضر حين يعذّب أي غريب
أسندني الصبر المعجز في عينيها
فنهضت، وقفت أمام الجلّاد، بصقت عليه من الأنف إلى القدمين،

ففي المأثورات الشعبية، يُعتقد أنّ فاطمة الزهراء وقد قُتل ابنُها الحسين بن علي غريبًا في كربلاء، تحضر في غربة كلّ غريب تخفّف عنه من مكابدته في المِحن. وهذا الخاطر الشعبي الذي مرّ في ذهن مظفّر أثناء هروبه لإيران عبر الأهوار عام ١٩٦٣ لا يلبث أن يعمّمه لتتماهى صورة فلسطين مع صورة بنت النبي الثاكل الغريبة. لكنّ النوّاب لم يرتضِ للغته السياسية أن تكون لغة مقعّرة بالأساطير وبالماركسية الشعبية فحسب، بل أراد لرأس جبل الجليد أن يكون حادًّا وجارحًا أيضًا، فكان أن ضمّن قصائده جملَ البذاءة النارية مثل «إنّ حظيرة خنزيرٍ أطهرَ من أطهركم»، و«**قمم، قمم/ معزى على غنم/ جلالةُ الكبش/ على سمو نعجة/ على حمار بالقِدم/ مضرطةٌ لها نغم**»، والتي كانت أشبه ببيان الرفض والمانيفستو الثوري الذي ينتقل على أشرطة الكاسيت في الزمن الرومنسي الجميل، وتنتقل كبارودةٍ لا تتعب في كلّ قضايا العرب المحقّة والمؤلمة، فمن ينسى قصيدته حول سقوط تلّ الزعتر إبّان الحرب اللبنانية بيد المليشيات اليمينية الفاشية:

لقد سقطت عاصمةُ الفقراء
لقد سقطت نسفًا والنسوة يرفعن
أياديهنّ ويمشين فرادى
والحامل بيت أنوثتها
طرحوا الحامل أرضا
سحبوا رحمًا فيها في الليل فدائي
أسمعتم عرب الصمت
أسمعتم عرب اللعنة
لقد وصل الحقد إلى الأرحام
أسمعتم عرب اللعنة
إنّ فلسطينَ تُزال من الرحم

أو ما كتبه في المقاومة اللبنانية:

بماء العنبر والشالات الوردية والحزن
ورقرقة الجسد الصيفيّ تشابك بالرشاشات
تَسلّل بين مدرّعتين
رقيقًا كالزيت
ولا أسمع غير الموت
ولا أسمع غير تنفّسه الخافت
والحزن ينوح على شجر الموز
وزقزقتي عصفورين حزينين
بحفرة كعبيه
الرائعتين الواثقتين القارئتين أغاني الدرب
ولا أعرف من أيّ قرى عامل
من صيفين تخرج
لا أعرف من أيّ قرى عامل
من صيفين تخرج
لا أعرف إلا أحرفه الأولى أر..بي .. جي
أيلول الممطر

كان لعينه تألّق حقل اللوز
منذ نهارين
كآبة حقل الألغام
لقد أومض حين اخترقته الرشاشات

التزام سياسي

لم يتخلّ مظفر النوّاب عن التزامه السياسي بالقضايا المحقّة حتى الرمق الأخير، ولم يبنِ مثل الكثير من الشعراء علاقات مع الحكّام المتسلّطين على شعوبهم، فلم يمتلك شاعر الجماهير مطالبَ شخصية بقدر ما هي مطالب الشعب الذي اعتبر نفسه الطائر الشجيّ الذي ينطق باسمه، والمطلب الوحيد هو كرامة الإنسان التي يجب ألّا يُعتدى عليها. ولم تنفع كلّ محاولات الحكّام في تدجين الشاعر وشراء صوته، وهو عبّر عنه شعرًا بالمقطع الشهير:

يظهر البعد الصوفي في معظم قصائد النوّاب، ولا يكاد بعضُ القرّاء يلتفت إليه لانشغاله بالمقاطع الناريّة المتفجرة

سبحانكَ ربي..
كلّ الأشياء رضيت.. سوى الذل
وأن يوضع قلبي في قفصٍ في بيت السلطان..
وقنعتُ بكون نصيبي في الدنيا كنصيب الطير..
لكن سبحانك.. حتى الطير لها أوطان..
وتعود إليها..
وأنا لا زلت أطير...
فهذا الوطن الممتدّ من البحر إلى البحر
سجون متلاصقة
سجّان يمسك سجان!

«مظفّر الصوفي»

نقطة أخرى لا بدّ أن تستوقف الدارس لشعر النوّاب، هي البعد الصوفي الذي يظهر في معظم قصائده ولا يكاد بعضُ القرّاء يلتفت إليه لانشغاله بالمقاطع الناريّة المتفجرة، إذ غالبًا ما يوازن الشاعر بين قسوة السياسة ورقّة الغزل، فلو أخذنا مطلع الوتريات الذي يذكّرنا بمطالع القصائد الجاهلية القديمة:

في تلك الساعة من شهوات الليل
وعصافير الشوك الذهبية
تستجلي أمجادَ ملوك العرب القدماء
وشجيرات البرّ تفوح بدفء مراهقةٍ بدوية
يكتظّ حليب اللوز
ويقطر من نهديها
وأنا تحت النهدين إناء

فالدارس للقاموس المعجمي لهذا المقطع الرقيق (عصافير- دفء- حليب اللوز- نهد) سيجدها أقرب إلى نعومة النهد منها إلى قساوة الشتيمة في مقاطع أخرى من القصيدة ذاتها. كما أنّ البعد العرفاني لا يلبث أن يتجلّى في مقطعٍ آخر لتتبدّى قصيدة النوّاب مركبة فعلاً من طبقاتٍ مختلفةٍ من الحجر والطين يجيد الشاعر الانتقال بين مناطقها الصلبة والرخوة، فنقرأ مثلاً:

سقطت زهرةُ لوزٍ في قدحي،
يا ربّ ما هذا النقا
غرقَت لم أستطع إنقاذها
أصبعي زاغت من السُّكر، وقلبي شهقا
ما لها الكرمة لا تعرفني، أمس رقرقت لها خمرتها
وأنا اليوم على خمرتها، دمعي وأمسي رقرقا.

في هذه القصيدة نوعٌ من الصوفية المادية كما نظّر أدونيس في كتابه حول الصوفية والسوريالية، وروحانية أرضية يحدو بها القلق إلى الاتصال بالمطلق، كما أنها تفيض بشفافية هي أقرب لمقامات الصوفيين وأحوالهم عند ابن الفارض وحافظ الشيرازي وعمر الخيّام.

قسّم الناقد والشاعر العراقي الراحل فوزي كريم شعراء العراق، وخصوصًا الجيل الستّيني، منهم إلى «شعراء المتاهة» ممّن انشغلوا بمتاهة عوالمهم الداخلية وتجنّبوا السياسة والخوض في غمارها شعرًا، ومنهم بدر شاكر السيّاب ونازك الملائكة ومحمود البريكان، قبل أن تتخطفهم العقائد والإيديولوجيات وتفسد أشعارهم. ووَضع في طليعة «شعراء الراية» عبد الوهاب البيّاتي وسعدي يوسف ومظفّر النوّاب. في هذا التصنيف مقدارٌ من الصوابيّة في بلادٍ انفصلت فيها السياسة عن الخبز اليومي ولم يلقَ بالشعراء في الزنازين وأقبية التعذيب، لكن في بلاد «سجّان يمسك سجّان» كان لا بدّ من اختراع شاعرٍ مثل مظفّر النوّاب لو لم يوجد صاحب «وتريات ليلية»، ليحمل راية الهدم حيث يجب الهدم، وليبقى الشعر خبز الحرية وجسدها وماءها وخمرتها الصافية.



قصيدة إلى ماياكوفسكي

إتيل عدنان

١٩٢٥- ٢٠٢١. روائية وشاعرة ورسامة ومؤلفة مسرحية من سورية ولبنان. من أعمالها المترجمة إلى العربية «الستّ ماري روز»، «سفر الرؤيا العربي»، «مدن ونساء: رسائل إلى فواز»، «قصائد الزيزفون»، «باريس عندما تكون عارية»، «في قلب قلب مدينة أخرى»

ترجمة فواز طرابلسي

١

ماياكوفسكي أين أنت؟

أستطيع الذهاب إلى المحطة
لاصطحابك.

نستطيع الحديث عن الطقس
في طريق العودة.

وإن كنت قادمًا بالباص
يمكنني انتظارك في نهاية الخط

أمّا إذا استطعت تدبير ما يكفي من المال
لتستقلّ الطائرة

سأصحو باكرًا
وأنتظرك في المطار.

لا تقل لي، عزيزي فلاديمير،
إنك أضعت عنواني،

وإنك لن تأتي
غدًا ولن تأتي أبدًا.

سوف أنتظرك مع ذلك
لأننا نشعر بالتعاسة

هنا وفي كل مكان: في أوروبا
كما في كاليفورنيا.

كلّنا يعلم أن ثورتكم
كانت دموية

لكن العالم يسكب الآن الدم
وما من تغيير وما من أمل
يلوح في الأفق المنظور.

أنت تحت التراب، يا ماياكوفسكي
أقصد إذا كانت عظامك لا تزال متماسكة،

رغم السنين،

فدعني أبلّغك أنّ
الشعراء يغادرون غرفهم
بالمئات،

بحثًا عنك، في
كل قطار وكل طائرة وحافلة،

وفي الليل، يبحثون عنك في المرافئ.

٢

تحت ضوء باهت مترجرج
أتابع مباراة كرة القدم

محدّقةً في نقطة في الفضاء
بين الراديو وماياكوفسكي

لم يكسب فريقي مباراة واحدة

منذ أن تعثرت الثورة

تحت وطأة توقعاتنا
ثقيلة الوطأة

لذا نتظاهر بلعب الشطرنج
مع الروس

أو نذهب للتزلج في المحيط المتجمد
مثل نرويجيين
في عطلة

إنما هي المشكلات
تزورنا،

فتلقانا نقرأ كتبك
يا ماياكوفسكي، وقد اصفرّت صفحاتها
من تراكم الغبار،
نقصتْ أعمارنا مائة عام
ونحن ننتظر معك الإشارة
التي سوف تغيّر العالم.

٣

لا أزال أسأل أين يختبئ
الشاعر، فلا تجيبني إلا البسمات
ونظرات الدهشة

أتوغل في أزقة
المدينة على أمل رؤيته واقفًا
قرب نافذة

قرعتُ باب «لِيلي بريك»
فصاح بي جيرانها
أنها غادرت إلى باريس

أقرأ الصحف وإعلانات الوفيات
فلا أعثر على اسمه

مع أنّ موسكو ليست مظلمة
هذه الليلة
بسبب الثلج.

عند عودتي إلى الفندق،
هاتفٌ يبلغني: لقد انتحر
ماياكوفسكي...
ما كنتُ أدري.

٤

في «بيريزينا»* طفولتي،
كان الجنود يموتون من الصقيع
ونابوليون يخسر الحرب

وأنا أبكي على الجياد لأنها
تبدو أضخم حجمًا من والديّ
وهي منقلبة على ظهورها

هذه الأيام، أتسكع في
مقاهي الشاطئ الشمالي وأمارس الحنين إلى
علامات المغامرة

مع ذلك، فإن شيئًا ما يضغط
على صدري. الزبائن سعداء
في هذه اللحظة الخاصة،
يحتفلون بقدوم الموسم.

وأنا قلقة.

٥

إنّ مستقبل هذه اللحظة سوف يكون
أبأس من أن تكترث له. فالأخبار تورثنا
الإحباط والخوف.

والاستنارة كامنة في شجر السنديان
لا في قلبي، أنا الباحثة عن شاعر أحادثه
الليل بطوله.

أذكر أن القطارات في تركيا
كانت تنفث ثاني أوكسيد الكربون
فيما السلطنة تنهار

* بيرزينا Berezina اسم النهر الذي قطعه جيش نابليون خلال انسحابه من روسيا بعد الفشل في احتلال موسكو.



وأن النسوة كنّ يحتسين الشاي
عند حافة شهواتهن.

٦
لي أصدقاء يكتبون أشعارًا صوفية
أيام النشوة، وأقدامهم العارية
تلاعب مياه المحيط. سياراتهم
تلمع أمام الأبواب، تحرّك أذيالها
بنفاد صبر.

أشعارهم عذبة تبوح بأسرار
العالم مثلما الشباب يبوحون
بالحب الأول

ولي أصدقاء آخرون – صحيح أنهم يعيشون
بعيدًا عن خليج كاليفورنيا- يحفرون
أشعارهم على جلود أدمغتهم.
يسكنون منازل مكتظة إلى درجة
أنهم يتناوبون على النوم لساعتين
في كل نوبة.

ولمّا كان الحصار يمنعهم من الحصول
على حبر وورق، يحلمون بأن يذبحوا
شرايينهم، ذات صباح، ليكتبوا
رسالة إلى أمهم.

٧
يا ماياكوفسكي،
الدم والموت التوأمان يقودانك إلى
أقبيتهما المظلمة المحجورة الخاوية،

لكن رؤاك السرية تسافر
من بلد إلى بلد لتستقر في عقول مختلفة
وبنايات مختلفة.

٨
تجميع طعام الروح في
كتب الإعراب يزيد من تقييد حركتنا؛
فنفقد النطق والأغنية
والتماسك.
هل كُتب علينا أن نلازم أمكنتنا،
متمسكين بأفكار عن الأبدية تتلظى كما
الشمس ذاتها، بالأمس، نظير فُرن مستعدّ لأن يحيل كل
شيء
إلى شعاعات مضيئة؟

٩
هل تسمعني حيث أنت؟

إنهم يبحثون عنك
بالمشاعل الكهربائية،
في أودية خفية،
وكهوف،

هل وصل صوتنا إليك؟
لعلك سمعت.
ربما أنك الآن تتململ،
وتفرك عينيك،
وتتمطى،

بل ربما أنك بدأت تسير في الأزقة
التي سوف تقودك إلى منزلَي
«ماليڤيتش» و«تاتلين»*

- لقد فارقنا هذا وذاك...

مات العديد غيرهما، مذذاك،
البعض شعراء مثلك،
والبعض ممن تكره.

ولكن ليست هذه هي المسألة.
فلا يزال العالم شاسعًا،
والبحر الأسود في مكانه، هناك
حيث روسيا تلتقي الشرق.

١٠
هل أنزلك أحدهم إلى الشاطئ في
المحيط المظلم أم أن غيومًا ترتدي السراويل
هبطت بك على الرصيف

* ماليڤيتش (١٨٧٩-١٩٣٥) وتاتلين (١٨٨٥-١٩٥٣) من فناني الطليعة في العقود الأولى من الاتحاد السوفييتي.



رسم Montagne 2 لاتيل عدنان، حبر على ورق، ٢٠١٩.

فيما الجيش يحتفل
بعيد الأول من أيار؟

أنا أريد استعراضًا للشعراء القتلى،
دقيقة صمت، باقات زهر...

هناك، أرى «آخماتوفا»* تنتحب بصمت
بين جثة ابنها الهامدة
وجثتك.

*آنا أخماتوفا، أبرز شاعرة في الحقبة السوفييتية.



١١

قبل أن نولد أنا وأنت بزمن طويل
كانت امرأة ذات إزار
أزرق تسكب الحليب في
قصعة رسام،

ثم ظهرتَ،
طويلَ القامة عاصيًا لا مباليًا،
على مسرح مطبخها
المضاء

كانت السنوات سنوات هياج
والطلاب يقرأون أشعارك في
أسرّتهم وفي مواسم
حمأتهم المرتفعة.

وكان ڤيرمير يعمل على رسم
صورتك الشخصية.

١٢

ماياكوفسكي، من أين آتي بالريح
التي ستحمل أفكاري إليك؟

كلهم رحلوا الإمام علي وتشي غيفارا
وغسان كنفاني وأنت رحلت...

لم يبقَ إلا القساة.

هذا الربيع، اصطفّت الأجرامُ
مثل سجناء ينتظرون
أن يحصدهم الرصاص... في
رائعة سماء شاسعة

الكلمات العالقة في حنجرتي
هي حصى مُشعّة،
وهي الرصاصة التي قتلتك.

إننا في سَورة الغضب الساطع، وأنت تعلم
معنى ذلك.

١٣

عزيزي م،

يمضون بقمصانهم التي يرتدونها على قفاها
وأنظمة الحماية من الطعام
والبكاء

- إنهم فاحشو الثراء طبعًا -

يمضون لنهب الأدغال،
وترويض الأنهار
وتجاذب أطراف الحديث فوق يخوت الملذّات.

يعتقد بعضنا أنك،
في غيابك،
لست أسوأ حالاً
من أولئك مهزولي الأجسام
الذين تكتظ بهم مدن الصفيح في
القارة الأميركية.

١٤

أيها الأحبّ،
الألوان تُزَوبِع
داخل النخاع

عندما نحدّق
في الفراغ
الذي يتركه رحيل
الزمن

وذرّات الطاقة
تنسكب في العيون

فيكفّ المرء عن
التفكير ما إذا كان الأفضل

أن يعيش أو أن
يموت.

بابلو نيرودا شجرة موز

إتيل عدنان

إني أحبك يا بابلو نيروا لأنك شجرة
موز.
كان ألليندي مدينة أشباح مبنية في قلب
تشيلي
وأنت نبتَّ خلال ساعة إلى شجرة موز

أرى جبال «الاندس» ملقاة إلى جانبك
وترتادان البحر عبر المستنقعات نحو البواخر
الكبيرة
أنت تقذف الحمم على «ماكشو بيشو».
وثلاثة قطارات تقلّ شعب «الإنكا» تدوس على جذعك.
أنت ورقة موز

إني مشتاقة لك با بابلو نيرودا، لأنك
حقل من شجر الموز.
«البروخوس» المكسيكيون يأكلونك نيئًا
وثمّة برودة تحت ظلّك.
عندما يعذّبون الزهور، تكبّ فلسطين دمَها
في مدينة طوكيو

نيرودا، أنت جمهورية موز مدفونة
تحت قشر البرتقال. وإني أحب الخنازير
التي تمشي فوقك

كاسترو، كوبا، تشي غيفارا،
ألقوا تحيةَ الوداع على نيرودا

نيرودا، يحمل الهنودُ نعشك إلى
البحر
وسمك القرش ينقله إليّ
أنا جالسة في حديقة
تنمو فيها أشجار موز

«وول ستريت» لن تلتزم الحداد
في كازينوهات البورصة خمسة
خيطان قصدير تلفّ وجهك، وقماش
البيرو يغطي عظامك.
ونحن باقون لتنظيم سهرة التعزية ليس من أجلك
من أجل عمّال المناجم

بابلو نيرودا، أقول لك إن الثلج تساقط
وإن الملاك يضيع دربه دومًا في الغابة.
عيناك التائهتان تكتبان الكلمات على بطن سمكة القرش
البلّوري

بينوشيه يبلغك حبّه

لا تأبه
البرد قارس تحت الأرض كما فوقها
وسهول الشمال والمطر
تدفع اليوم عجلة
الساح في محيط.

نيرودا، اسمح لي أن أقول لك
إن الشتاء يبسط صقيعه
وأنت رجل الثلج
والأرملة



أنت شجرة الموز التي نمَت في
حديقة جدّي
وعانقها مرضُ السرطان

السماء صافية هذا الصباح
وثمّة صاروخ يتّجه نحو القمر

سوف أوقد شمعة وأدعك تنام

«سيمبيبو سيمبو» سمّى قطته
على اسمك

أنا آخر سمكة في الصحراء
قال الشاعر.
وأنا عثرتُ على ذبابة في حدقة
عينك
وكلاب السلوقي تتلو
صلواتها.

يأخذون العمّال إلى محطات الوقود
ويقولون لهم:املأوها!
وفي بطونهم ما يكفي من البنزين
ليرافقهم حتى القبر
وتحت زخّ المطر تفرش شجرة الموز
أوراقها

أوقدوا شمعة من أجل بابلو نيرودا
سرّجوا أحصنتكم
إننا مغادرون إلى جبال «الآندس»

هذه المدينة عابقة بأريج الياسمين
والمجارير تجري في عينها

أراكَ إلى الأبد
قمرًا داخل هالة

حلقة من نور في مركز الأشياء
الذرات تحبّلت
وأنت الحلقة
الثانية
التي تتمدد
وتحرق شَعر الشمس.

كسر الربيع الحجر
وأنت ميت أنت ميت أنت ميت
وأنا أضع وردة في كأس الشاي التي تناولتها

أشجار شابة تسير
خلف نعشك

أعطيت جسدك للعربيّ
فاحرقه فوق أوراق موز
لكي
يبدأ تحرير الفقراء

عمُودك الفقري دودة
ينهش رأسها في
نخاعك.
مملكتك كومة
كلمات.
وأنا أراقب الظلام ينتشر ببطء
في عينَي الهندي.

من حقول البحر الأبيض المتوسط إلى الأدغال
تنتصب أشجار الموز
زرقاء مثل البحر
بابلو نيرودا مدفون تحت جذورها
الرجل يتشظى دومًا
وخمسة بحّارة يغنّون «غوانتانميرا»
لكلب.



نهوند

الملحّن عفيف رضوان
ثلاثية العتق والعشق والغربة

سمر محمد سلمان

صحافية وناقدة موسيقية، لبنان

هو أحد المخبوئين في ذاكرة النسيان الإعلامي والنقدي على الرغم من الأعمال التي بدَت لغزارتها حدسًا بموته المبكر. كلّنا يعرف «بالساحة تلاقينا» و«باعتلك سلامي» لوديع الصافي، لكن من منّا يعرف اسم ملحّنهما؟ من منّا يعرف أنّ الاخوين رحباني بحثا طويلاً عن مصدر فولكلوري لـ«بالساحة تلاقينا» ظنًّاً منهما أنها من ذاك التراث، فلم يعثرا سوى على روح عفيف المتوهّجة المجبولة بهذه الأرض*.

من منّا يعرف أعمال هذا الملحّن المبدع معرفةً تليق بما قدّم؟ هو سؤالٌ مُرٌّ مرارةَ التهميش الذي قصَر الفنَّ اللبناني على أسماء بعينها كان لها من العناية، ولاحقًا التوثيق، النصيبَ الأكبر، وربما الأوحد، حتى تعاظمت وغدَت دولةً فنيةً لها مؤسساتها الإعلامية والإدارية والترويجية داخل الأجهزة الفنية التابعة للدولة. وقد أدّى ذلك إلى طمس مبدعين آخرين قدّموا للموسيقى اللبنانية أعمالاً جديرةً بالاهتمام، لا سيما أصحاب المواقف السياسية العروبية. من هؤلاء عفيف رضوان والملحّن حسن غندور ونجاح سلام ومحمد سلمان، في بلدٍ كان يصف نفسه بـ«سويسرا الشرق» ويحاول الالتحاق بالغرب والانتساب إلى ثقافته من خلال نفي العروبة عن لبنان و«فَيْنقة» كلّ شيء آنذاك، إذا جاز التعبير. لذا بدا من الإنصاف في الذكرى الخمسين لرحيل عفيف رضوان الإضاءة على شيءٍ من إنتاجه، والغوص في عالمه الفنّي ومحاولة رسم معالم عطائه الإبداعي.

صلابةٌ وهشاشة

قليلة هي المعلومات والمصادر التي توثّق سيرة عفيف رضوان بدقّة لأسبابٍ بعضها خاص، يتعلّق بمعاناته الفردية وربما بشخصيته الميّالة إلى العزلة، وبعضها يتعلّق بالمناخ السياسي العامّ للبلد والانقسام العمودي بين هويتين وثقافتين، كان عفيف جزءًا أصيلاً منه وعنصرًا فاعلاً فيه مدافعًا عن مبادئه العربية في أشد اللحظات التاريخية حسمًا وصدامًا. هو المنتمي إلى القومية العربية، وجمال عبد الناصر، وفلسطين، المثلث الذي شكّل وجدانه الوطني والفنّي وتبدى في العديد من الأعمال والمواقف والأناشيد الوطنية التي أثّرت في الوجدان العربي وواكبت الأحداث الكبرى كالعدوان الثلاثي على مصر، وملحمة بور سعيد، والثورة الجزائرية، فكان نشيدُ «وطنّا في خطر» عام ١٩٥٦مع رفيقة الدرب نجاح سلام أوّلَ نشيدٍ أُطلق في «صوت العرب» أثناء العدوان الثلاثي، تناقلته الإذاعات العربية بعد القصف الذي حاول إسكات صوت الإذاعة المصرية الرائدة.

هذه الصلابة الوطنية كانت تقابلها هشاشةٌ عاطفيةٌ عزلتْه خلف أسوارها، منكفئًا على ذاته، مبدِعًا بعيدًا من الصخب الإعلامي. فظلّت سيرته محفوظةً في صدور من عرفه وجايله، وغابت بغيابهم. عمومًا، لا تهدف المقالة إلى رواية السيرة. هي محاولة لاستنطاق أعماله ومحاورتها والبحث في ثناياها لاستثارة الأسئلة الكاشفة عنها. بين العشق والوطنية، قضى ابنُ قرية البابلية الجنوبية عن ٤١ عامًا صريعَ ابتلاءٍ مزّق قلبه بين صورةٍ يكرهها ومثالٍ يرجوه. تراجيديا دفعتنا لولوج عالمه من باب الحبّ لندنوَ ونقترِبَ من فهم صحيح لأخيلته المدهشة والتفاتاته اللحنية الموجعة، ونقلاته الفنية المضمّخة بالالتياع، ونغماتٍ لطالما عبّرت عن الإحباط والخذلان، لم يكن للبهجة فيها إلا ظلال. تراجيديا لوحتِه حتى الرمق الأخير بين إرادة الحب وإرادة الخلاص منه، غرام استنزاف، ظنّ سقياهُ من خمرة الموسيقى والنسيان يشفيه، فما زاده اغترافُها إلا وَجدًا حتى هلك، فخسرت الموسيقى العربية جملةً جديدةً في كتابها وبذرةَ تَحوّلٍ لم يرتفع جذعها أكثر من عقدين من عمر أريجها الفنّي.

* تنويه: الشكر واجب للباحث الأستاذ أكرم الريّس (باحث في أنثروبولوجيا الفنون) لدعمه هذا العمل في ظلّ التهميش وشحّ المعلومات والمصادر التي تتناول السيرة الذاتية والفنية للملحّن عفيف رضوان.

غزالي

عفيف ملحّن متمرّد يصعب ترويضه، وصاحب أسلوبٍ فريدٍ لا تخطئه الأذن. أضفى على اللحن الشرقي مضامينَ حداثيةً جديدةً من وحي تأمّلاته الخاصة ورؤيته المفتوحة على آفاقٍ لا يشبهها شيء أكثر من توقه إلى الحرّية والانعتاق من أسْر التنميط، والحفر في أعماق المقامات الموسيقية بجرأة، بحثًا عن مواطن عذراء وزوايا مطفأة. يكمن جديده في كسْر التسلسل المنطقي للجمل اللحنية ومآلاتها النغمية بالتفاتاتٍ مقاميّةٍ غير متوقعة، خارجة عن السباق وعن سَرب الصياغة التقليدية، متجاوزًا الكثير من القواعد اللحنية والمعايير الجمالية الرائجة. فقد صاغ المقامات الشرقية بطريقة مبتكرة لخلق أجواء طرائفية مسكونة بالدهشة والغربة عن السائد والمألوف.

لا نغالي إذا قلنا إنّ لعفيف «أوّلياتِه»، منها على سبيل المثال كيفية تناوله لمقام «الصّبا» في أغنية نجاح سلام «غزالي» (١٩٦٣) بشكل تحرّري تقدّمي غير مسبوق. أدهش فيها كبار الملحنين في الوطن العربي وفي مقدّمتهم محمد عبد الوهاب وبليغ حمدي، إلى الحدّ الذي دفع عبد الوهاب إلى القول «ليته يأخذ عَشرًا من ألحاني ويعطيني غزالي»، وإنّ «عفيف رضوان جملة جديدة في الموسيقى العربية». أمّا بليغ فلم يكتفِ بالأمنيات، بل استلهم الأغنية في لحنه الشهير لوردة «وحشتوني» في الكوبليه ومطلعه «خدوني حبايبي خدوني». وكان يرى في عفيف توأمَه على نحو ما قدّم في هذا العمل توليفة مقاميّة جميلة، وظّفها في تظهير وتعزيز مقام الأغنية الأساس، وهو مقام الصبا، ومنحه بُعدًا دراميًّا من خلال الرجوع إليه في انعطافة لحنيّة شبه حادة بعد كل مقطع. والتوليفة المقامية التي قدّمها مجاورة للصبا، أي أنه لم يبتعد، لم يشطح أو يشذّ، فالمقامات التي لامسها، كالعجم والكورد، أو التي لحّن منها اللوازم والكوبليهات، كالرست والبيّاتي وراحة الأرواح، بعضها من داخل سلّم الصبا، ومع ذلك تشعر بأنك أمام صياغةٍ حديثةٍ بكر وليدة روحه المشتاقة إلى التفرّد والاختلاف.

وقد بلغ مقام الصبا في هذا العمل ذروة تألّقه وتمام معناه حتى بدا من الصعب أن يضاف إلى خياله خيالٌ وإلى عمقه عمق. نوعٌ من الإشراق الموسيقي والرؤية القلبيّة التي تقبض على سرّ المقام وكنهه، تفجّر طاقاته، تؤصّله وتحرّره في آن. تلك هي روح عفيف الحرّة، وذاك هو اغترابه الشجيّ، اغتراب الفنّان الملهم المبدع الظاهر بجلاءٍ في لغته الموسيقية، واغتراب ابن البابليّة الجنوبي الذي، ككلّ جنوبيّ، عانى من التمييز والاضطهاد والارتحال وتوّج الحزنَ تيمةً أساسيةً في نتاجه، حتى في ألحانه المعبّرة عن البهجة. حزنٌ عميقٌ يرجع صداه أيًّا كانت المشاعر، تلمحه في ظلال الجملة اللحنية، في قفلات الحزن الحارقة، في إيقاعاته وتحويلاته الملتاعة التي ترجع أصداء كربلائيةَ الروح أحيانًا كثيرة، وإن بشكلٍ غير صريح.

«بحريّ المزاج»

المقامات في خيال عفيف رضوان تخرج من ذاتها وتتحرّر، فلا تعود أسيرةَ التكوين. يعتقها عفيف من التناول التقليدي ويُطلق جناحها لتحلّق في الغريب والمدهش. غربةٌ تشعر بها في جمله وانتقالاته التي تُحدث خفقةً عالية، ثم تختفي كالشهب لتَليها جملةٌ أخرى تمحو الأثر. ومضةٌ من ومضات روحه التي عبَرت فضاء موسيقانا العربية ومضت قبل أن تكتمل دائرة القمر. أتراه كان يشعر بقصر عمره فسعى إلى استنطاق مخزون الخيال في الطقطوقة التي طغت على نتاجه وعلى الأغنية اللبنانية آنذاك ولا تزال؟

عفيف ملحّن تلقائي تعبيري. أعماله تسجيلٌ دائمٌ للحظاتٍ عابرة من دون الجوْر على سلاسة الفصل والوصل في ما بينها. ليس لحنُه حالةً ذهنية عقلانية في المجمل، بل إحساسٌ مباشرٌ وانفعالٌ نفسي لحظوي يتبدّى في تلك النسب الموسيقية الغريبة التي تفاجئنا على الدوام. إنّ المسار النغمي الذي يسلكه اللحن العفيفي ليس «نهريّ» المجرى، بل «بحريّ» المزاج يصعب عليك أن تتوقع لحظة تقلّبه أو انعطافه. هل يعني ذلك أننا أمام فوضى لحنيّة تربك ذائقتَنا وتُغرقنا في التوتر السمعي؟ كلا، بل إنّ هذه التعرّجات المفاجئة والانعطافات الحادّة تجعلنا نتأمّل معنى الحرّية والانعتاق المسؤول الذي لا يجور على التقاليد الموسيقية إنما يفتح لها مصاريع الخيال.

وقد أوقف موت عفيف المفاجئ تطورًا محتملاً في إبداعه يتجاوز الطقطوقة، لينطلق ربّما إلى رحاب التأليف الموسيقي الذي أرسَل إشاراته الخاطفة في عددٍ من الأعمال السينمائية والأناشيد الوطنية. من تلك على سبيل المثال «نشيد مقاومة» – من كلمات الشاعر معين بسيسو وأداء مذهل لنجاح سلام، راعية بداياته ورفيقة الدرب – ونشيدُ «جميلة» لوردة الجزائرية، وكذلك الاستعراض الختامي والفينالا الموسيقية لفيلم «فداكِ يا فلسطين» الذي أخرجه أنطوان ريمي عام ١٩٦٩، وهو من بطولة سناء جميل ومحمود سعيد.

تُضاف إلى ما سبق عشراتُ الألحان السينمائية المعبّرة عن المواقف الدرامية للمخرج محمد سلمان الذي شكّل مع عفيف ونجاح ثلاثيًّا فنيًّا ناجحًا، فكان عفيف الملحّن الأول والقاسم المشترك لغالبية أفلام سلمان، مع حسن غندور وزكي ناصيف وآخرين. من تلك الألحان السينمائية اللافتة



عاصي الرحباني وعفيف رضوان، ١٩٦٣.



قدّم عفيف «أنا صيّاد» لفهد بلّان من فيلم «يا سلام على الحب» (١٩٦٣) في صياغة لحنيّة بديعة وتناولٍ جميل ومميّز لمقام الرَّسْت من درجته الأصلية (دو) لكن بحساسية جديدة ووقع مغاير، وأغنية «مش موجود اللي يلوّعني» من فيلم «بدويّة في روما» (١٩٦٥) لسميرة توفيق في خروجٍ غير مألوف عن لونها البدوي ومناسبٍ للمشهد الذي تدور أحداثه في حانة ليلية. وقد جاء اللحن غربيّ الإيقاعات شرقيّ الميلودي في استخدامٍ عالي الذوق لآلات النفخ والآلات الإيقاعية ولحظات الصمت الخاطفة والمؤثرة بين اللوازم ودخول اللحن الجميل جدًّا ما يؤكد مرةً أخرى احتمالية التأليف الكامنة في قدرات هذا الملحن الموهوب. وعفيف من الملحنين اللبنانيين القلائل الذين قدّموا أعمالاً ذات طابع غربي منذ بداية مسيرته تغنّت بها زوجته جاكلين التي اشتهرت بتقديم ما اصطلح على تسميته بالفرانكوأراب. من تلك الأعمال أغنية «بليز» من فيلم «مرحبا أيها الحب» (١٩٦٢) والتي تُذكّر بأعمال قدّمها من قَبل محمد عبد الوهاب، وفريد الأطرش، ومحمد فوزي، ومنير مراد، ومحمود الشريف، لم يقدمها افتتانًا، بل كانت في غالبيتها أعمالاً سينمائيةً تحاكي مشاهد بعينها.

عفيف من الملحنين اللبنانيين القلائل الذين قدّموا أعمالاً ذات طابع غربي منذ بداية مسيرته تغنّت بها زوجته جاكلين التي قدّمت الفرانكوأراب

«القفلة العفيفيّة»

تُشكّل قفلة أغنية عفيف رضوان، أو ما يمكن تسميته بـ«القفلة العفيفية»، ركيزةَ اهتمامه. هي دائمًا مفاجئة وحرّاقة (بلغة الموسيقيين)، ومصبّ شلّاله المفاجئ والمفارق للسياق اللحني في أحيان كثيرة، فيبدو كأنه يلحّن لأجلها، ويبذل في سبيلها كلّ خيال. لا تخضع قفلته لمنطق المسار اللحني بالضرورة، والمسارُ اللحني في كثير من الأعمال لا ينبئ بالنهايات بل ربما يؤسس لبدايات جديدة من خلال قفلات درامية مستقرة وأخرى معلّقة وحُبلى بالأسئلة.

تُجبرك «القفلة العفيفية» على التلفّت والانتباه والتأمّل في محاولةٍ لخلخلة أساليب الإصغاء الخامل والاستماع السلبي وغير الفاعل. لا مناصَ حينئذ من السؤال: كيف خطرتْ له ومن أيّ منهلٍ شعوريّ بعيد نهل حتى خرجت غريبة وجميلة وعصيّة إلى هذا الحد؟ «القفلة العفيفية» متمرّدة وقصِيّة كروحه المحلّقة خارج السرب، تقوم على الانعطاف المدهش والمفارق. هي تجلٍّ من تجلّيات ثلاثيّته المقدسة «العتق والعشق والغربة»، تنزع الآه من عمق انجذابك إلى عمق الشجن. يدّخرها عفيف للأصوات المتمكنة القادرة على التحكم بتقنية أدائها الصعب. ولعلّ أغنية «يا ساكن قلبي كان خالي» لوداد تصلح نموذجًا توضيحيًّا لتقنيات «القفلة العفيفية» المبتكرة. هي عمل فنّي بسيط من حيث التركيب البنيوي والصياغة اللحنية، طقطوقة بالغة العذوبة من مقام الكورد وإيقاع الرومبا في مذهبٍ ومقطعين. اختار لها عفيف آلتَي البيانو والقانون ليعزفا تبادليًّا لازمةَ المقدمة بقدرات تعبيرية خاصة بكلّ آلة، واحدة شرقية وأخرى غربية في دلالةٍ غير مقصودة ربما على وحدة المشاعر الإنسانية واختلاف التعبير عنها اجتماعيًّا وثقافيًّا، وبالتالي موسيقيًّا. ثم يختفي البيانو بدايةً من الكوبليه الثاني مفسحًا المجال أمام الوتريات كي تعزف اللازمة نفسها التي تصل المقاطع بعضها ببعض، ويعود القانون إلى وظيفته التقليدية مصاحبًا غناءَ وداد في الخلفية ليضفي بنغماته الرقراقة بُعدًا تعبيريًّا يشبه البكاء.

يعتمد عفيف إذًا على أحاسيس ثلاثة للتعبير عن اللازمة الأساسية التي بُني عليها العمل؛ صولو البيانو ثم صولو القانون وأخيرًا الوتريات. أي أنه يتدرّج في نقل الإحساس من النقر المتقطع المنفرد عبر البيانو إلى النقر الرقراق المتداخل والمتّصل والمنفرد أيضًا عبر القانون، وصولاً إلى الإحساس الجماعي الشامل عبر الوتريات. ويتّخذ في هذا اللحن مسارًا متدرّج الصعود في دفع هادئ للشحنة الشعورية نحو الذروة ثم الهبوط في نسبٍ متباعدةٍ كمن يقفز أو يهوي لهفةً إلى القفلة التي جاءت غير متوقعة وغريبة وصعبة أدائيًّا. ويتمّ ذلك من خلال قفزة مقاميّة خاطفة تلامس مقام العجَم وقفزتين متتاليتين في الدرجة، فتشكّلان معًا مقوّمات القفلة التي أدّتها وداد باقتدارٍ وجمالٍ وحرفيّة.

ما نلحظه في هذا العمل القصير هو وحدة المقام ملامسًا النهوند في الكوبليهات في انعطافة لحنية تضيف إلى إيحاء المعنى إيحاءات نغمية تصوّر حالة التساؤل والاستغراب. أما اختيار النهوند فهو لأسباب موسيقية تتعلّق بإحساسه الشخصي وذوقه الفني لا بطبيعة المقام التعبيرية، ليعود ويستظلّ المناخ الكوردي الذي يظلّل الأغنية من البداية حتى النهاية. لقد أراد عفيف أن يجعل التنويع اللحني من داخل المقام وفي خدمته حفاظًا على وحدة الموضوع في محاولة لتعميق الأثر وتكثيف الحالة الشعورية الدرامية المسيطرة، وقد ساعد انتفاءُ التوزيع على توهّج المقام وبلوغه الدرجة الحارقة.

كذلك آثر عفيف الخروج من ثنائية التناغم الدلالي الحرفي بين الشكل والمضمون/ الكلمة واللحن إلى بُعدٍ أرحب وأخلص للموسيقى ووظيفتها المتمثّلة في إحداث الأثر الجمالي والروحي، وتحريرها من سطوة اللغة إلى التعبير عن الحالة العامّة التي تُحدثها الكلمات في النفس، أي استلهام روح المعاني والخضوع لشرارة الإبداع واحتمالات الفكرة بجمالية جديدة ورؤية مختلفة. غير أنّ عفيفًا لم يُغفل هذه الثنائية كليًّا وحاول أحيانًا الاقتراب من إشعاع الكلمة كمفردة وجسّ نبضها وترجمتها موسيقيًّا. والأمثلة كثيرة، في تكرار كلمة «يدق» في أغنية «قلبي يقول لي افتاح» لنجاح سلام، وفي أغنيتَي «مثل الأطرش بالزفة» و«خالة يا خالة» لصباح في مد كلمة «بعاد» وتكرار كلمة «قراب» في الأخيرة. في المحصلة، إن الفكرة الموسيقية وارتباطها بصدق العاطفة والإحساس الذي يصل الخيال بالانفعال غاية بذاتها في اللغة الموسيقية للملحّن المجدد عفيف رضوان.

انطلق عفيف مع نجاح سلام إلى حالة من التوأمة والانسجام الروحي الفني والسياسي فلحّن لها الكثير من الأغاني العاطفية والوطنية

توأمة فنيّة

يبقى الحديث عن عفيف مجتزأً إن لم نذكر توأم روحه وزميله ورفيق الدرب الملحّن الكبير حسن غندور (١٩٢٥-١٩٧٨). لقد شكّل حسن مع عفيف ثنائية تلحينية تقاسمت الأصوات والألحان والأعمال السينمائية، وواكبت باقتدارٍ التحولات الفنية والثقافية والاجتماعية والوطنية الكبرى التي رافقت ثورة ٢٣ يوليو وأثرها المزلزل في المنطقة بأسرها. بينهما قصة كفاح وعذابات وأواصر روحية وجغرافية ومهنية، فكلاهما من الجنوب الذي شكّل وجدانهما وملأ خزان الروح بالانتماء الوطني والقومي العروبي. وبينهما توأمة جعلت غيابَ عفيف المبكر فاجعةً بالنسبة لحسن والفقدَ يتمًا واغترابًا. ثنائية تشبه إلى حد كبير ثنائية الموجي والطويل في مصر جيل الخمسينيات والستينيات، الثنائي الذي استطاع أن ينسحب برفق من تأثير عبد الوهاب الطاغي وأناقته وحداثته ومن كلاسيكية السنباطي وشرقيته وحداثته، ليحفر رافدًا جديدًا لا يقطع أواصر الوصل مع التراث، وفي الوقت نفسه يُعبّر عن ذاته المتفردة وروح عصره الوثاب الممتلئ عملاً وأملاً وتحديات.

بين عفيف وحسن قواسم موسيقية مشتركة تصل أحيانًا إلى حدّ الالتباس. وفي الوقت نفسه، ثمة فروقات واضحة وكبيرة، إذ بدا تأثيرُ عبد الوهاب أشد وضوحًا في أعمال حسن، فيما استطاع عفيف أن يتمرد ويغترب أحيانًا بشكل حاد. كما اهتمّ حسن بالموشح اهتمامًا أكبر وقدّم في هذا القالب أعمالاً لافتة، من أهمها موشح «يا سميري» لنجاح سلام ومجموعة أخرى لسعاد محمد وموشح «ناجِ الهوى» بصوته الوهابي الرخيم وقصائد لنازك ونور الهدى ووديع الصافي ونصري شمس الدين ومحمد غازي وعادل مأمون ووداد وآخرين. وحسن من الملحّنين الذين اتّسعت مروحة أعمالهم وتوزّعت بين القوالب الموسيقية، إذ قدّم الطقطوقة بكل أنواعها (الشعبية الخفيفة والجبلية والرومانسية والوطنية) وقدّم الموشح والقصيدة والاستعراض والدويتو. وهو من الملحنين الجديرين بالتوقف عندهم ودراسة أعمالهم وتوثيقها وانتشالها من التهميش الذي عانى منه أولئك الملحنين الخارجين عن طاعة «اللبننة والفيْنَقة» برغم موهبتهم وجدارتهم.

لم تقتصر التوأمة على الثنائي حسن – عفيف، إذ انطلق الأخير أيضًا مع المطربة القديرة نجاح سلام إلى حالة من التوأمة أو الثنائية والانسجام الروحي الفني والسياسي الذي تجلّى في نصيب نجاح الأكبر من ألحانه العاطفية والوطنية. اكتشفت نجاح عفيف خلال عمله في الإذاعة وقدّمته في لحنه الأول «قلبي يقول لي افتاح افتاح». وقد انتقل خلال منتصف خمسينيات القرن الماضي من الكورال إلى التلحين. رأت نجاح في عفيف فتحًا جديدًا ونضجًا فنيًّا مبكرًا لشاب لا يزال في مقتبل خطواته، ولفتتها روحُه الجريئة، كما استوقفها في لحنه الأول اللوحةُ البياتية الموشاة بالتلاوين والنسب التي سلطنت المقام في اتّساقٍ وبساطة، ولم تحمّل النص الشعري للشاعر ميشال طعمة (وهو من اكتشافات نجاح أيضًا) ما لا يحتمل. ومثلما كانت نجاح ترى في عفيف بعثًا لروح جديدة في الأغنية الشعبية اللبنانية، كان عفيف يرى في صوتها الكبير قدرة فائقة على أداء ألحانه.

وبين عفيف ونجاح ومحمد سلمان أيضًا قصةُ كفاح وجهد وانتصارات وانكسارات وأحداث شيّقة لا تخلو من حكايات جديرة بأن تُروى، لاسيّما تلك التي رافقت الانقسامات السياسية بين الناصريين، دعاة القومية العربية من جهة، وبين دعاة الانعزالية اللبنانية الفينيقية من جهة ثانية. وكان ذاك الثلاثي الأشدَّ نشاطًا وفاعليةً وحماسةً

ومساهمةً في معارك الأمة العربية وصراعها مع الاستعمار والعدو الصهيوني، فيما انقسم باقي الفنانين بين مؤيد ومعارض ومحايد نسبيًا.

دولة الرحابنة والآخرون

وسط هذه الأجواء، وقف الأخوان رحباني في منأى عن الصراعات والانقسامات ليكونا جسرًا للقمر الذي «بيضوّي على الناس اللي بيتقاتلوا». هكذا هم «ناس» المدرسة الرحبانية بلا ملامح ولا أسماء، فقط «الناس». نوعٌ من التجريد المقصود ليظلوا في المنطقة الرمادية بعيدًا من الصراع والتدافع، فتكون موسيقاهم ملاذًا للجميع وهويةً متخيلةً مبتكرةً تصل بين الشرق والغرب، والسهل والجبل، والريف والمدينة، وما اختلف وما ائتلف. هوية «كوزموبوليتية» موسيقيًا، عربية جغرافيًا، لبنانية لغويًا وثقافيًا، موسيقى تشبههم وحدهم إلى درجة يصعب على أيّ باحث أو ناقد أن يضعهم في سياق اتجاه موسيقي يضمّ سواهم. دولة فنية مستقلة سعوا إليها منذ البداية ليخلقوا ريادةً خاصةً بهم من كلّ هذا التنوع ويؤسسوا لنهضة فنية في لبنان تُميّزه عن محيطه العربي وتقرّبه منه في الوقت نفسه.

أبدع عفيف ورفاقه فرادى وماتوا فرادى، بلا ظهير إعلامي أو سياسي أو مؤسساتي

أما عفيف رضوان ورفاقه حسن غندور، وشفيق أبو شقرا، وسامي الصيداوي، ونقولا المني وخالد أبو النصر وغيرهم، فكانوا خارج هذه المشاريع والتطلعات. لقد أبدعوا فرادى وماتوا فرادى، بلا ظهير إعلامي أو سياسي أو مؤسساتي ينجّم فنّهم أو يحيي ذكراهم بما يليق. أعلامٌ على الطريق مرّوا خفافًا ورحلوا متدثّرين بلذّة الموسيقى.

مختارات من ألحان عفيف رضوان

وديع الصافي: بالساحة تْلاقينا (مهرجان فرقة الأنوار ١٩٦٠)، باعتلك سلامي، قدّيش حلوة هالشيبة، عالقادوميّة، عا طريق العين، شعرك حلو، خدودك يا حَبّ الرمان، لملمت كلّ حوايجي، يا كروم بلادي، بتحبني وبحبها (مع نور الهدى).
نجاح سلام: كتّرلو كتّرلو، يا قلبي اللّه يجازيك، نداء العروبة، مقاومة، زلغوطة، يا ماما من باب الطيّارة، هالأسمر، مشْ هَيّن، قلبي بيقللي فْتاح فْتاح، غزالي، جوز عيني جوز، قصة حبيبي، نام يا حبيبي، مَبْحوحة، بدّي عريس، نعم نعم شو بتريد، شهر العسل، لولو يا لولو، نشيد الجزائر، وطنًا في خطر، من أجل أولادي، عا نُصّ الدرب، دولاب، طنّة ورَنّة، استعراض قاضي الغرام، اسكتش انقر يا دفّ الطارة (مع نصري شمس الدين ومحمد سلمان)، اسكتش أهلا بالضيف (فيلم مرحبا أيها الحب ١٩٦٢).
صباح: متل الأطرش بالزفة، ياما وياما، زقّوني، يامّ العيون القتّالة، بتعاديني بسيطة، بتحب بتكّة، خالة يا خالة، رايحة قابل حبيبي، ما بدّي توصاية (مهرجان الأنوار في بعلبك ١٩٦٤)، شكرًا شكرًا، اللّه يقصف عمر الحُبّ، تشهد النجمات، البيّا البيّا، أبو سمرة زعلان، رَحْ حزّرْكم حزّورة، غربِلْ يا غِربال، يا قلبي استحلي الحلوين، يا حسرتي عليك، على أونا على دوّي، قمحنا الغالي، ليالي الحُبّ (مع محمد سلمان وجاكلين)، عَيْن وقلب (مع فهد بلان)، يا صاحب هالصورة، أرضي الحبيبة.
جاكلين: بليز، بحبّك قدّ عيوني، يا دل دِلّي، ما بحبّو حلو
نازك: لو نعرفك جايي، فتاة الروابي، طلّة جْبينك
سميرة توفيق: مش موجود اللي يلوّعني، انشروها بالجريدة، ودّيني مشوار
نصري شمس الدين: مش من زمان كثير، تْمَرْمَرْ يا قلبي، يا منديلها، يا بيتنا الغالي، كان الولف، يا ملاكي، من عينيها طَلّ الحُبّ، يا بلادي، شو حلوة هالتنّورة
فهد بلّان: الغلّة (مع صباح)، أنا صيّاد، مَرْمَرْ زماني
محمد سلمان: الساعة ستّة، بوليس السيْر، يا دلّي يا دلّي، عالدبكة، رح جِنّ، يا زينة، بْرَمْت الدنيا، زيدوني
سعاد محمد: لا أحلى ولا أجمل، يا زعيم يا جمال، طيف الحبيب
وداد: يا ساكن قلبي، يا حبيب الكل
مائدة نزهت: لو ما الحب
محمد غازي: نشوة الحب (موشح)
زكية حمدان: حكاية الندى
وردة الجزائرية: جميلة، على مفرق درب الحبايب، سهرانة إيدي على خدي
محمد عبد المطلب: أنا الأمل
محمد قنديل: يا ريّس البحرية
هناء الصافي: القبطان
محرم فواد: مين وفين
الثلاثي المرح: يامّ المنديل
رندة: صحتين، اللي عبالو، مسا الورد، يا سلام عليك
سمورة: جانم امان
المجموعة: رمضان بالخيرات، ما أحلى الفَيّات



عفيف رضوان وكاتبة النص سمر محمد سلمان.

توزيع المجلة

الأردن مكتبة منشورات المتوسط، عمّان
العراق دار المدى للإعلام والثقافة والفنون، بغداد
مصر دار المرايا للإنتاج الثقافي، القاهرة
السودان سودان فيلم فاكتوري، الخرطوم
رتينه بوك كافيه، الخرطوم
مكتبة دار مدارك للنشر، الخرطوم
المغرب مركز محمد سعيد آيت ايدير، الدار البيضاء
تونس سوتوبريس، تونس
بلجيكا Librairie Lagrange Points، بروكسيل
ألمانيا مكتبة خان الجنوب، برلين
لبنان الاوائل لتوزيع الصحف والمطبوعات، بيروت

بيروت:

– مكتبات: مكتبات أنطوان (الأشرفية، الحمرا، فردان، الأسواق، سن الفيل، ABC) ABC Virgin (الأشرفية، الدورة)، مكتبة واي إن، مكتبة الفرات، مكتبة بيسان (شارع الحمرا)، مكتبة أنترناشيونال (جفينور)، مكتبة صنوبر بيروت (شارع مونو)، النديم (الظريف)، مكتبة الحلبي (قصقص)

– أكشاك: زياد عباني (الكولا)، نعيم صالح (شارع الحمرا)

المناطق: مكتبة قشوع (كفرشيما)، قلم وورقة (عين الرمانة)، نيوبرس (الحدث)، مكتبة ساوا (قبر شمون)، حسام بوكشوب (بعقلين)، مكتبة البستاني (زحلة)، مكتبة أنطوان، مكتبة سمير حصني (طرابلس)، مكتبة طلال، مكتبة النقوزي (صيدا)، مكتبة نعمة (صور)، مكتبة الطليعة (النبطية)، فواز غروب لتوزيع الصحف، مكتبة بيضون (بنت جبيل)

الاشتراكات (بما فيها أجور البريد)

إلى الصديقات والأصدقاء المشتركين،
بسبب ظروف لبنان الاستثنائية المعروفة من حيث انهيار سعر العملة وما نجم عنه من أكلاف باهظة في كل القطاعات، قررت مجلة «بدايات» زيادة أسعار الأعداد والاشتراكات ابتداء من العدد ٣٤ على النحو الآتي:
سعر العدد: لبنان ٥٠ ألف ليرة لبنانية
بدل الاشتراك: لبنان٣٠٠،٠٠٠ ليرة لبنانية
الاشتراكات في سائر العالم ١٥٠ دولارًا أميركيًا.

نظرًا للظروف الاستثنائية المذكورة أعلاه، تتلقى الاشتراكات والتبرعات باسم الأستاذ عماد زكي بواسطة Western Union أو OMT أو أية شركة تحويل أموال تتراسل مع لبنان.
شكرًا لتفهمكم.

Bidayat SARL
صندوق بريد 5748/13
شوران — بيروت — لبنان
للاشتراك: info@bidayatmag.com
رقم هاتف المجلة: 30 66 85 3 (961) +
www.bidayatmag.com — @bidayatmag

الحقوق

ص ١. أمام مبنى البرلمان اللبناني في عيد الاستقلال، ١٩٤٣. فريد أبو حيدر، Lebanon in a Picture.
ص ٦. مسؤولون لبنانيون بينهم الرئيس بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح خلال افتتاح مطار بيروت/مطار خلدة. صورة من صفحة لبنان رواية وتاريخ على فيسبوك.
ص ١٩. من صفحة غرفة التجارة اللبنانية الأميركية على فيسبوك، مجموعة جورج بستاني.
ص ٣٠- ٣١. الصورة مأخوذة من كتاب.
Les États de Syrie. Richesses marines et fluviales. Exploitation actuelle.
لآبيل غروفيل /gallica.bnf.fr/Bibliothèque nationale de France.
ص ٣٦-٣٧. أرشيف صور البنك الدولي.
ص ٤٢-٤٣. www.holcim.com.lb.
ص ٤٧. الصورة لأندريه روداكوف/بلومبيرغ.
ص ٥٧. الصورة لآر. رافيندران، thehindu.com.
ص ٦٤-٦٥. الصورة مأخوذة من أوغور أوميت أونغور ومحمت بولاتيل، مصادرة وتدمير: استيلاء تركيا الفتاة على الممتلكات الأرمنيّة، (٢٠١١)، ص ١٧٤.
ص ٨١-٨٨. رسومات لايا دومينيك، ميلرازونس، ٢٠١٧. أحد الكتب المنتقاة لكتالوغ ذا وايت رايفنز للعام ٢٠١٨.
ص ٩٢-٩٣. Alamy Stock Photo.
ص ١١٤-١١٥. من أرشيف أحمد فارس الشدياق.
ص ١٣٢- ١٣٣. الصورة لمروان نعماني/AFP.
ص ١٤٧. Artforum.
ص ١٥٤-١٥٥. من مجلة السينما والعجائب، أرشيف أكرم الريّس.
ص ١٥٩. من أرشيف سمر محمد سلمان.







بنك فرعون وشيحا ش.م.ل.
Banque Pharaon & Chiha s.a.l.





المطار






163
M.15
UNE LIVRE
LIBANAISE
000361163
بيروت في ١ كانون الاول سنة ١٩٤٥
الرئيس
M.15
163
ليرة
FRANCE·ORIENT
نهر قاديشا - ابي علي
الارز
بشري
مغارة قاديشا
مقطع طولي
مغارة قاديشا
1 PIASTRE
RÉPUBLIQUE LIBANAISE
1955
الادارة ذات المنفعة المشتركة لحصر التبغ والتنباك
RÉGIE CO-INTÉRESSÉE
DES TABACS ET TOMBACS